

التعريب



مجلة نصف سنوية محكمة تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق

اللائحة
العربية
هوئتمنا
القومية

المنظمة
العربية
للتربية
والثقافة
والعلوم

38

حزيران (يونيو) 2010

السنة العشرون
العدد الثامن والثلاثون

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010



التعريب

مجلة نصف سنوية

العدد الثامن والثلاثون

حزيران (يونيو) 2010

المدير المسؤول:

الأستاذ الدكتور زيد العساف

مدير المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق

رئيس التحرير:

الأستاذ الدكتور محمود السيد

هيئة التحرير:

الأستاذ الدكتور مفيد جوخدار

الأستاذ الدكتور محمد مكي الحسني

الأستاذ الدكتور دفع الله عبد الله الترابي

الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص

الأستاذ الدكتور محمد حلمي هليل

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبيد

الأستاذ شحادة الخوري

الأستاذ الدكتور عدنان سومان

في هذا العدد

الصفحة

- * افتتاحية العدد 5
- * المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في سطور 9
- * بحوث لغوية
- جدلية الفكر العربي في تناول النحو 19
أ. د. كمال بشر
- الصحافة والتنمية المعجمية 51
أ. د. محمود فهمي حجازي
- اللغة العربية في الإعلام المقروء 91
أ. د. محمود أحمد السيد
- الهوية اللغوية في الإعلام العربي 109
أ. د. محمد أحمد الضبيب
- بين الفصحى والعامية في الإعلام 121
أ. د. علي أحمد محمد بابكر

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

- اللغة العربية والإعلام العربي 143
أ. د. عبد العزيز المقالح

*** بحوث في المصطلحات**

- مصطلح الصورة في المعجم العربي والغربي 161
أ. صَبَّاح لحضاري
- مفارقات وتساؤلات في معاني مصطلح الرياضيات 175
د. أحمد محمد جواد محسن

- "الجنوسة": الجندر gander 193
د. ممدوح خسارة

*** بحوث في الترجمة**

- دور الترجمة في التواصل الحضاري
بين اللغات ومعوقاتهما من وجهة نظر الجاحظ 201
د. عبد الخالص عيسى
- منهج الحمزاوي في ترجمة المصطلح اللساني 219
د. رشيد حلیم

*** من أعلام الحضارة العربية الإسلامية**

- علي بن عيسى الكحال 235
أ.د. نشأت حمارنة

افتتاحية

أ.د. زيد العساف

مدير المركز العربي للتعريب

والترجمة والتأليف والنشر

يتصادف صدور هذا العدد من مجلة التعريب مع الذكرى الأربعين لتأسيس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1970- 2010 التي جعلت في مقدمة أهدافها، كما نص دستورها، "التمكين للوحدة الفكرية بين أجزاء الوطن العربي عن طريق التربية والثقافة والعلوم، ورفع المستوى التربوي والتعليمي والثقافي والعلمي في هذا الوطن، حتى يقوم بواجبه في البناء والمساهمة في الحضارة العالمية والمشاركة الإيجابية فيها".

وانطلاقاً من هذا فإن المنظمة تولي اهتماماً خاصاً للغة العربية التي تُعدّ العنصر الموحدّ الفعال بين أبناء الأمة العربية، والتي من دونها لا يمكن أن نبني ثقافة واحدة ولا نستطيع استنبات العلم في الوطن العربي. ولا أدلّ على ذلك من تقديم معالي الأستاذ الدكتور محمد العزيز ابن عاشور المدير العام للمنظمة لكتيب "أسباب ومسببات تدني مستوى تعليم اللغة العربية في الوطن العربي". صدر هذا الكتيب في إطار مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة، وفيه قال الأستاذ ابن عاشور "لقد جعلت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ تأسيسها اللغة العربية في صدارة اهتمامها، واختياراً استراتيجياً لها، وعنصراً أساسياً في خططها ومشروعاتها وبرامجها. فالمنظمة عاقدة العزم على مواصلة هذا الاهتمام وعلى تعبئة الطاقات كلها من أجل تنفيذ مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

المعرفة على أفضل الوجوه، حتى تؤدي لغتنا الدور الذي لا تقدر أية لغة أجنبية على تعويضها في أدائه، وهو أن تكون وسيلتنا الأولى إلى انجاز التنمية التربوية والعلمية والثقافية والاقتصادية المنشودة وسبيل مناعتنا وتفتحنا على العصر ومكتسباته، فتسلم أمتنا من الاستلاب والتهميش وتكون في صميم الحداثة".

لقد تجلّى اهتمام المنظمة باللغة العربية في مظاهر وإنجازات شتى، منها تعليم هذه اللغة وتطوير طرائقه وتحديثه، وذلك عبر المشروعات والبرامج العديدة، ومن أهمها الآن خطة تطوير التعليم العالي في الوطن العربي، وخطة محو الأمية في صفوف الرجال والنساء، وكذلك تأليف الكتاب الأساسي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وملحقاته العديدة، وتوفير سبل تعليم اللغة العربية للراغبين فيه من غير العرب في معهد الخرطوم الدولي لتعليم اللغة العربية. وسعت المنظمة إلى إثراء اللغة العربية بالمصطلحات العلمية وتزويد المكتبة العربية بالمراجع الجامعية المترجمة والمؤلفة، وذلك بالاستفادة من مكتب تنسيق التعريب في الرباط والمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق، فقد قام مركز التنسيق بوضع أكثر من أربعين معجماً موحداً في مصطلحات مختلف العلوم والتقانات، على حين قام مركز التعريب بترجمة مئة وواحد وعشرين مرجعاً علمياً، بعضها نال جوائز رفيعة تدل على أهمية الجهد المبذول في هذه الترجمات، وعلى أهمية الدور الذي يؤديه الكتاب الجامعي المُعرب في النهوض بتعريب التعليم العالي.

لقد أصبحت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم طرفاً أساسياً في العمل العربي المشترك عامة، وفي مجالات التربية والثقافة والعلوم خاصة، وإنها فعلاً تمكن وبأسلوب هادئ وعمل رصين للوحدة الفكرية بين أجزاء الوطن العربي.

إن تكليف المنظمة من قِبل قادة الأمة والجامعة العربية بالإعداد للقيمة الثقافية المقررة عام 2011 دليلٌ على المنزلة التي تحظى بها المنظمة، والدور المُناط بها في هذه الظروف التي تسعى فيها أمتنا لتحقيق التنمية والنهوض الحضاري المنشود. وليست هذه المرة الأولى التي تُكرّم فيها المنظمة فقد سبق أن كرّمها قادة الأمة بالطلب إليها تنفيذ مشروع النهوض باللغة

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

العربية.

وتقف المنظمة اليوم تدافع في المحافل الدولية لإحباط جميع المحاولات الصهيونية المستمرة لتغيير معالم التراث العربي والإسلامي المادي واللامادي في الأراضي العربية المحتلة.

كما أولت عملية التراث اهتماماً خاصاً من خلال خطة العمل المستقبلية التي أقرتها الدورة الحادية والتسعون للمجلس التنفيذي، وجعلت المحافظة عليه محوراً رئيساً من أعمال المنظمة في المستقبل.

إن إنجازات المنظمة عبر سنوات عملها عديدة وكبيرة وهامة على مستوى جميع الدول العربية، لذلك يحق للمنظمة ولنا أن نفخر بإنجازاتها، ونحتفل بالذكرى الأربعين لتأسيسها. ولمركزنا العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، أحد الأجهزة الخارجية للمنظمة، الشرف العظيم أن يحتفي أيضاً في ظل منظمته العتيدة الأم بالذكرى العشرين لتأسيسه مجددين العهد على أن نبقى مخلصين لأهداف المنظمة، عاملين لتحقيق برامجها ومشروعاتها.

يحتوي هذا العدد من مجلة التعريب على مقالات تتناول مسائل عديدة تهم التعريب ودور اللغة في الإعلام والعلوم والتواصل الحضاري، وكذلك دراسات تبحث في جدلية الفكر العربي في تناول النحو ومصطلح الصورة في المعجم العربي والغربي، ودور الترجمة في التواصل الحضاري إضافة إلى دراسات في المصطلح، ودراسة تتناول إنجازات العلامة علي بن عيسى الكحال مؤسس طب العيون بمناسبة الذكرى الألفية لوفاته.

نرجو لقرائنا الأعزاء الفائدة المنشودة.

والله ولي التوفيق.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

في سطور 1970-2010

النشأة:

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) هي وكالة متخصصة، مقرها تونس، تعمل في نطاق جامعة الدول العربية وتعنى أساساً بتطوير الأنشطة المتعلقة بمجالات التربية والثقافة والعلوم على مستوى الوطن العربي وتنسيقها. وقد أنشئت المنظمة بموجب المادة الثالثة من ميثاق الوحدة الثقافية العربية وتم الإعلان رسمياً عن قيامها بالقاهرة يوم 25 يوليو 1970 .

الأهداف:

الغاية من إنشاء المنظمة، كما وردت في المادة الأولى من دستورها هي "التمكين للوحدة الفكرية بين أجزاء الوطن العربي عن طريق التربية والثقافة والعلوم، ورفع المستوى الثقافي في متابعة الحضارة العالمية والمشاركة الإيجابية فيها".

المهام:

في إطار هذا الهدف العام، تنهض المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجملة من المهام، من أبرزها العمل على رفع مستوى الموارد البشرية في البلاد العربية والنهوض بأسباب التطوير التربوي والثقافي والعلمي والبيئي والاتصالي فيها، وتنمية اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية داخل الوطن العربي وخارجه، ومد جسور الحوار والتعاون بين هذه الثقافات والثقافات الأخرى في العالم .

الأجهزة الخارجية:

— معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة)

— معهد المخطوطات العربية (القاهرة)

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

- مكتب تنسيق التعريب (الرباط)
- معهد الخرطوم الدولي للغة العربية (الخرطوم)
- المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر (دمشق)

الاستراتيجيات والخطط القطاعية:

في نطاق النهوض بإحدى مهماتها الرئيسية، وهي التخطيط لتطوير القطاعات المتصلة باختصاصاتها وضعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عدداً من الاستراتيجيات والخطط من ضمنها:

*** إستراتيجيات التربية وخطط التنفيذ**

- الاستراتيجية العربية للموهبة والإبداع في التعليم العام
- الخطة العربية للتربية الرياضية المدرسية
- إستراتيجيات وخطط التربية قبل المدرسة
- إستراتيجية تطوير التربية العربية
- الإستراتيجية العربية لتطوير التعليم العالي
- الإستراتيجية العربية لتنمية الإبداع في التعليم العالي
- إستراتيجيات التعليم عن بعد والتعليم المفتوح
- إستراتيجيات وخطط تعليم الكبار في الوطن العربي

*** إستراتيجيات العلوم والبحث العلمي**

- الاستراتيجية العربية للمعلوماتية
- إستراتيجية تطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي
- ورقة حول إستراتيجية عربية لاكتساب العلم والتقانة واستخدامها لأغراض التنمية على المستوى العربي

- إستراتيجية عربية للتكنولوجيا الحيوية
- الإستراتيجية العربية للتنوع البيولوجي: دراسة تحليلية

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

* إستراتيجية التوثيق والمعلومات وخطط العمل المستقبلية

– إستراتيجية التوثيق والمعلومات وخطة العمل المستقبلية (1997-2004)

– خطة العمل المستقبلية (2005-2010)

– الإطار العام لخطة العمل (2011-2016)

الموسوعات:

في إطار السعي لنشر المعرفة بين فئات الجمهور العريض، اقتحمت المنظمة المجال الموسوعي وأنجزت فيه الأعمال التالية :

– موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين (تصدر تباعاً في خمسين مجلداً)

– الموسوعة الفلسطينية (صدرت في عشرة مجلدات)

– الموسوعة الصحفية العربية (صدرت منها ستة أجزاء)

– موسوعة المدن الفلسطينية (صدرت في جزء واحد)

– موسوعة الثروة الحيوانية في البلاد العربية (صدرت في 14 جزءاً)

السلاسل

نشرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عدداً من السلاسل شملت ميادين مختلفة ذات صلة باختصاصاتها، ومن هذه السلاسل:

– سلسلة الفن العربي الإسلامي (3 أجزاء)

– سلسلة كتب الفن التشكيلي العربي صدر منها 13 عنواناً

– سلسلة قصص المدن الفلسطينية (21 كتاباً)

– سلسلة "الكتاب العربي" التي تصدر في إطار المشروع العربي "القراءة للجميع" (10 عناوين)

الكتب المرجعية

وفي إطار تعريب التعليم العالي الذي يُعد هدفاً استراتيجياً للمنظمة قام المركز العربي

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق بتوفير الكتب الجامعية المرجعية في مختلف الاختصاصات العلمية، حيث قام بترجمة 121 مرجعاً من أمهات الكتب ومن مختلف اللغات إلى اللغة العربية (يرجى الاطلاع كامل إصدارات المركز في نهاية هذا العدد) وقد نقل المركز كتاب العلوم عند العرب لمؤلفه العلامة قدرى حافظ طوقان إلى اللغة الأسبانية، كما ترجم كتاب مقام العقل عند العرب للمؤلف نفسه إلى اللغة الفرنسية، كما أصدرت المنظمة العربية الكتب التالية:

- الكتاب المرجع في الرياضيات لمرحلة التعليم الأساسي بالوطن العربي (4 أجزاء)
 - الكتاب المرجع في العلوم المتكاملة لمرحلة التعليم الأساسي بالوطن العربي (3 أجزاء)
 - مرجع التعليم البيئي لمراحل التعليم العام في الوطن العربي
 - الكتاب المرجع في الكيمياء للمرحلة الثانوية بالوطن العربي (6 أجزاء)
 - الكتاب المرجع في قواعد اللغة العربية لمراحل التعليم العام
 - الكتب المرجعية حول فلسطين والقضية الفلسطينية (ابتدائي - إعدادي - ثانوي).
- وتواصل المنظمة في هذا المجال بإعداد "الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية" و"الكتاب المرجع في جغرافية وطن عربي بدون حدود".

المعاجم الموحدة للمصطلحات

تسهم المنظمة إسهاماً جاداً في حركة تعريب المصطلح العلمي والتقني، بفضل جهود مكتب تنسيق التعريب بالرباط الذي يصدر سلسلة من المعاجم تضم المصطلحات العربية الموحدة في كثير من العلوم الصحيحة والإنسانية وفي عدد من مجالات التكنولوجيا. وقد أصدر المكتب إلى حدّ سنة 2009 خمسة وثلاثين (35) معجماً في مختلف الاختصاصات.

وتشمل هذه المعاجم، على سبيل المثال، اللسانيات، والفيزياء العامة والنووية، والرياضيات والفلك، والكيمياء، وعلم الصحة وجسم الإنسان، والموسيقى، والآثار والتاريخ، والجغرافيا، والتجارة والمحاسبة، والطاقت المتجددة، والنفط، والبيئة، والهندسة الميكانيكية، والتقنيات التربوية، والفنون التشكيلية، والأرصاد الجوية...

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

دوريات المنظمة:

- المجلة العربية للتربية (نصف سنوية)
- المجلة العربية للثقافة (نصف سنوية)
- المجلة العربية للعلوم (نصف سنوية)
- مجلة تعليم الجماهير (سنوية)
- المجلة العربية العلمية للفتيان (نصف سنوية)
- النشرة العربية للمطبوعات (سنوية)
- أخبار الألكسو (نشرة إخبارية شهرية)
- نشرة "قضاءات" للتعليم عن بُعد (كل شهرين)
- مجلة معهد المخطوطات العربية (نصف سنوية)
- مجلة اللسان العربي (سنوية)
- مجلة التعريب (نصف سنوية)
- المجلة العربية للدراسات اللغوية (نصف سنوية)

التدريب وإعداد الموارد البشرية

- تحقيقاً لإحدى أولويات عملها المتصلة برفع مستوى الموارد البشرية في الوطن العربي، تنهض المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بأنشطة تأهيلية وتدريبية تهتم بالخصوص:
- إعداد معلمي اللغة العربية لغير الناطقين بها بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية
 - إعداد الدارسين بمعهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة
 - تدريب معلمي اللغة العربية في جيبوتي والصومال وجزر القمر.
 - تدريب العاملين والمدرّبين في المجالات ذات العلاقة باختصاصات المنظمة (تعليم الكبار، صيانة المخطوطات، حفظ الآثار، المكتبات، التوثيق والمعلومات، الاستشعار عن بُعد، الطاقات المتجددة، الموارد المائية، البحث العلمي، حماية البيئة...)
 - إعداد المواد والأدلة والحقائب التعليمية والتدريبية في مختلف المجالات، ومن الإنجازات

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الرائدة في هذا الصدد إعداد حقائب تعليمية تدريبية متطورة حول الطاقات المتجددة والخلايا الشمسية والسخان الشمسي.

التعاون العربي والدولي

يدخل التعاون العربي والدولي ضمن إستراتيجية شاملة ومتكاملة تقود حركة المنظمة ونشاطاتها في محيطها الإقليمي والدولي. فهذا التعاون يمكن المنظمة من الحضور الفاعل في الفضاءات العربية والدولية المتصلة بمجالات اختصاصها، كما يتيح فرصة تجنب الازدواجية والتكرار في الجهود التي تبذلها جهات مختلفة في المنطقة العربية لتحقيق نفس الأهداف وتنفيذ نفس الأنشطة والوصول إلى نفس المستفيدين.

وفي إطار هذا التعاون ترتبط المنظمة باتفاقيات ومذكرات تفاهم مع عدد من المنظمات والهيئات الدولية والعربية والإقليمية من بينها.

- منظمة اليونسكو
- المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)
- اتحاد إذاعات الدول العربية
- جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
- الاتحاد العام للفنانين العرب
- مؤسسة الفكر العربي
- المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا
- مكتب التربية العربي لدول الخليج
- معهد العالم العربي بباريس
- المنظمة الدولية للبلدان الناطقة باللغة الفرنسية
- الغرفة التجارية العربية الفرنسية
- معهد الاستشراق للأكاديمية الروسية للعلوم

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الحوار مع الثقافات الأخرى

انطلاقاً من إيمان راسخ بأهمية الحوار بين الثقافات والحضارات في التقريب بين الشعوب وربط علاقات تفاهم مع الآخر، عقدت المنظمة سلسلة من الندوات كان الهدف منها إرساء تقاليد حوار بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى. ومن بين هذه الندوات:

- ندوة الحوار بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى (تونس: 1997)
- ندوة الحوار بين الثقافة العربية والثقافة الصينية (بيكين: 1999)
- ندوة الحوار بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية (كايب تاون/ جنوب أفريقيا: 1999)
- ندوة "الثقافة العربية الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي ماضياً وحاضراً ومستقبلاً" (باماكو/مالي: يونيو 2002)
- المؤتمر العربي الأوروبي لحوار الثقافات: مرتكزات التعرف على الآخر من أجل التعايش معاً من منطلق التسامح بين الحضارات والأديان (باريس: 15-61 يوليو 2002).
- وعقدت المنظمة ندوة حول الحوار بين الثقافة العربية والإسلامية وثقافات أمريكا اللاتينية، في ديسمبر 2002، إضافة إلى نشاطات مشتركة مع أوروبا الشرقية واليابان والصين.
- بالذكرى الأربعين لتأسيس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سيصدر المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر كتاب في قضايا التعريب للأستاذ الدكتور محمود السيد رئيس اللجنة السورية للتمكين للغة العربية ونائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

بحوث لغوية

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

جدلية الفكر العربي في تناول النحو

أ.د. كمال بشر

نائب رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة

ليس بخاف أن اللغة العربية الآن بعيدة المنال على كثير من أهلها هنا وهناك بلا فرق. وليس بخاف أيضاً أنهم يرددون - ليل نهار - شكاوهم من صعوبتها وجمودها.

لكنهم - في الوقت نفسه - يركزون في شكاوهم على "النحو"، ويشتطون في وصفه بالعائق الأكبر (أو الأوحد) في سبيل عقد الألفة بينهم وبين لغتهم، وحرمانهم من حظوة التعامل بها والحوار معها في مواقعها المناسبة.

ومعلوم أن الشكوى من "النحو" لها أصول قديمة، ظهرت آثارها فيما قرأنا وسمعنا عنه من جدل ومناقشات حول هذه القضية وأسبابها وكيفيات التخلص منها. جرى هذا الجدل وتلك المناقشات بين اللغويين المحترفين أنفسهم، وبينهم وبين الشعراء أيضاً.

ولكن هذه الشكوى ازدادت مساحتها واتسعت بين العامة والخاصة في العقود الأخيرة، حتى إنهم فقدوا الأمل في إزاحتها والتغلب عليها، ومن ثم انصرفوا عن اللغة صاحبة هذا النحو وهجروها إلى مسالك لغوية أخرى.

وهنا نقول: نعم، العربية الفصيحة بالمفهوم الموروث، فيها صعوبات ظاهرة، تقود العامة وبعض الخاصة في وقتنا الحاضر إلى هجرها والانتحاء نحو غيرها من وسائل التعبير الأخرى. ولكن: لم كان هذا الزعم بأن "النحو" بالذات هو أساس هذه المشكلة والسبب الحقيقي في وجودها؟

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الرأي عندنا أن الصعوبة ليست في "النحو" وحده. إن الصعوبة واضحة في كل المستويات اللغوية، الصوتية والصرفية والنحوية، وإن بدرجات متفاوتة. أو قُلْ - في جملة واحدة - الصعوبة هي صعوبة اللغة كلها على جموع أصحابها.

ولنا الآن أن نتساءل: لم كانت هذه الصعوبة؟ أهى من طبيعة اللغة العربية أم أنها حصيلة ظروف زمانية ومكانية لحقت بها في سيرتها الطويلة، انعكاساً لما جرى ويجري في بيئات أهلها من أجواء غائمة محرومة من الحيوية وخبرة التفاعل والحوار مع أحداث الحياة المتجددة المتطورة علمياً وثقافياً واجتماعياً؟

الإجابة عن التساؤلات أمرها سهل ميسور. يقرر الثقات من الدارسين أن ليس هناك لغة تصعب بطبيعتها على أصحابها، وإنما الصعوبة وانعدام الإلف بين القبيلين يرجع كل ذلك إلى أسباب من صنع هؤلاء الصحاب أنفسهم؛ أو - في أحسن تقدير - من عدم إدراكهم لها، وتغافلهم عن النظر فيها لإزاحتها أو معالجتها بأسلوب علمي راشد.

ونحن من جانبنا نحاول تفسير أسباب هذه الصعوبة المدعى وصَمُّ اللغة العربية بها. الأسباب كثيرة ومتنوعة، وفي الإمكان "إيجازها في ثلاثة أسباب".

الأول: يتمثل في عزل اللغة العربية الفصيحة الصحيحة عن توظيفها نطقاً وكتباً إلا في النادر القليل من المواقف والمناسبات. وهذا النادر نفسه إذا حظي بالتوظيف جاء محشواً بالأغلاط والتجاوزات. ذلك أنهم انفضوا من حولها وتفرقوا شيعاً، وتناذبوا فيما بينهم باللسن النافرة الناشزة في صورة لهجات ورطانات.

يرجع ذلك كله إلى ضعف الثقافة اللغوية الصحيحة، لأسباب ثقافية عامة واجتماعية وضعف الانتماء إلى القومية بمعناها الدقيق. هجر القوم لغتهم الجامعة لأفكارهم وتوجهاتهم، فأوت إلى ركن غير رشيد، واتهموها بالجمود والتخلف. ولم يدركوا أن اللغة (أية لغة) لا تحيا ولا تنمو ولا تزدهر بنفسها، وإنما يتحقق ذلك كله بالتعامل بها والحوار معها.

ومعلوم أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وليست كائناتاً حياً، كما يزعم غير العارفين. ومعنى ذلك

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

- بكل وضوح - أن وضعها من حيث القوة أو الضعف، ومن حيث التكامل أو العور والقصور يرتبط كل الارتباط وأوثقه بحال أهلها من حيث أوضاعهم الحياتية التي تنعكس بالطبع لا بالصنع على لغتهم.

فاتهام اللغة بالصعوبة والتعقيد إنما هو اتهام ظالم، وينبغي أن يوجه إلى أصحابها صانعي هذا الوضع غير المقبول. إنهم لم يدركوا أهمية احتضانها والانتناس إليها وبها ومحاولة الحوار معها، وإن بالتدريج، حتى يصلوا بها وبأنفسهم إلى موقع متميز في صفوف العالم الهائج المائج الذي يهدد بذوبان لغتهم وفقدان شخصيتهم.

والأمر في ذلك كله يحتاج إلى قدوة صالحة ترسم الخطوط والحدود التي من شأنها أن تشجع السائرين في طريق "العوربة" رغبة في الوصول إلى الهدف المقصود.

والبدء في هذا الطريق يعتمد على ذلك المبدأ الذي وضعناه في هذه السبيل، وهو الموجز في قولنا: "اسمع وأسمع". وتفسير ذلك واقعاً عملياً أنك إذا أردت أن تكتسب لغة ما أو أن تجودها وتصلقها إلخ، فما عليك إلا أن تكيف نفسك إلى الاستماع الدائم إلى القدوة، فتتطبع حقائق اللغة في ذهنك، ومن ثم تستطيع التوليد منها وتأتي على منوالها في المواقف المناسبة. لقد مررت بهذه التجربة ذاتها في الشهور الأولى من بعثتي إلى لندن، حيث وفقت إلى تجويد معرفتي المتواضعة باللغة الإنجليزية باتباع هذا المبدأ الذي أخذ بيدي وحقق لي مستقبلي العلمي المرغوب، وهو الحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه.

الثاني: الشعور بصعوبة العربية وازدحام مشكلاتها ناجم عن المنهج الموروث في جمع اللغة وتعقيد قواعدها.

من المعلوم والمشكور أيضاً أن أسلافنا من قدامى اللغويين كانوا حريصين أشد الحرص على جمع لغتهم من هنا وهناك، بقطع النظر عن المستويات والبيئات اللغوية المختلفة، اعتزازاً بلغتهم وتقديراً لكل ما يصدر عن اللسان العربي الذي يميزهم ويصنفهم أمة واحدة.

ومعلوم أيضاً لدى الثقات العارفين أن لكل لغة في محيطها العام ظلالاً هامشية تختلف في

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

قليل أو كثير في بعض الظواهر اللغوية الخاصة بقبيل دون قبيل، انعكاساً لأجوائهم الحياتية، اجتماعية كانت أم ثقافية أم عرفية إلخ. وليس هذا فقط، بل لم يكن من النادر انتحاء بعض هؤلاء الأسلاف نحو الرواة للاستماع إليهم واستشارتهم فيما جمعوا من مادة أو للاستزادة والإضافة، على الرغم من استحالة إثبات الرواة بالصورة الحقيقية لما يروون.

جمعوا هذا الذي جمعوا من مصادر مختلفة وضمّوا بعضه إلى بعض دون تحديد لخواص ونوعيات هذه المصادر، التي تنتظم فروقاً واختلافات في جملة المادة التي جمعوها.

وانطلقوا بعد إلى التقعيد ومحاولة تشكيل البناء العام لقواعد كل ما جمعوا، صوتية كانت هذه القواعد أم صرفية ونحوية.

غلب المنهج المعياري على عملهم في التقعيد. والمنهج المعياري normative or prescriptive approach كما هو معلوم - لا يُعنى بوصف الواقع، وإنما يُعنى بإخضاع المادة المدروسة لنمط واحد من التقعيد، يرمى إلى بيان المثال والنموذج الذي ينبغي اتباعه، وأن تجاوزه أو الخروج عنه يعد خطأ.

وهنا اصطدم الدارسون بوجود أمثلة من الظواهر اللغوية التي يصعب إخضاعها لمنهجهم هذا الذي اختاروا، لوجود فروق هامشية أو غير هامشية في المادة المجموعة التي لم تسلم من احتوائها على أمثلة متفقة في شيء ومختلفة في شيء آخر.

فماذا فعلوا؟ حاولوا تحليل هذه الأمثلة بردها إلى ما رسموه من معايير وضمها إلى نظام واحد، بطريق التأويل أو الافتراض والتقدير، أو الجواز وعدم الجواز أو الراجح والمرجوح والأرجح، في تسجيل القاعدة الواحدة، متبعين في ذلك مبدأ وحدة النظام في التحليل اللغوي monosystemic principle مستعنيين في ذلك بخليط من الأفكار الفلسفية والمنطقية التي ربما تساعدهم على تحقيق بغيتهم.

وهكذا اعوجّ الطريق في تقعيد اللغة، ومن ثمّ ثقل الحمل على مستخدميها ومتعلميها جميعاً، وصاح الناس - عامتهم وخاصتهم - بالشكوى من صعوبة لغتهم، فنفروا من حولها شيعاً

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

ولوثوا ألسنتهم بأنماط من الكلام يصعب تصنيفه بناءً متكاملاً ذا خصوصيات مميزة.

الثالث: يرجع السبب الثالث، في الشكوى من صعوبة العربية الفصيحة والزعم بعدم قدرتهم على عقد الإلف بينها وبينهم، إلى فقدان القدوة الصالحة التي من شأنها أن تزيل الحاجز وتدفعهم إلى محاولة توظيفها قدر الإمكان في مواقعها الحياتية المناسبة.

لا ينكر أحد غياب هذه القدوة الفاعلة في الجوّ العربي، في العقود الأخيرة من تاريخ العربية، كما يشهد على ذلك واقع هذه القدوة ودورها في التنقيف اللغوي في العصر الذي نعيش فيه الآن.

ولتكن البداية بالقدوة واضعة حجر الأساس في بناء الإنسان، وإعداده لمواجهة الحياة والتكيف مع أحداثها بالوسائل التي تحدد موقعه ومكانته في صفوف مجتمعه.

هذه القدوة الأولى الراسمة لخطوط المسيرة الحياتية هي الأم. ولغتها هي السلاح أو الآلة التي تمنحها لوليدها وتدرّبه على تفعيلها بصورة تصنع منه لبنّة متسقة ومتألّفة مع سائر لبنات البناء الكبير، وهو المجتمع الذي يضمه إلى أحضانه.

وها نتساءل: ما نوع هذا السلاح وما مادته التي من شأنها الإسهام في تشكيل بناء متكامل خال من التناثر والاعوجاج؟

نقرر - بالأسف الشديد - أن الأم العربية الآن لا يرشحها الواقع الحاضر لصنع هذا السلاح أو منحه لولدها. ذلك ان الأغلبية من الأمهات العربيات لسن في وضع ثقافي يكافئ دورهن في التنقيف اللغوي المنشود. العربية الفصيحة الصحيحة - أساس البناء القومي - غائبة عن أذهانهم ووجدانهم، ومن ثم لم نجد لها أثراً أو انعكاساً على ألسنتهم. لسان معظم الأمهات العربيات مشغول - في أغلب احواله - بالدردشة - المحشوة مادتها بأخلاق من الأصوات العvisية التكامل مضموناً ونطقاً: عربي كسيح وعامي أو عاميات ورطانات متباينات يصعب تصنيفها أو حسبانها نمطاً من الكلام الذي يرشح نفسه قدوة لتنقيف الناشئة. ويزيد الأمر تجاوزاً واضطراباً ما يصنعه بعض المثقفات أحياناً من تلوث كلامهن بكلمات وعبارات

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

أجنبية لا يقتضيها السياق، مشوبة - في الوقت نفسه - بالخطأ في النطق وعدم إدراك معانيها الدقيقة.

وهكذا، ذهبت القدوة في التنقيف اللغوي أدراج الرياح. فلننظر الآن في المواقع الأخرى ذات الأهمية في هذا الشأن، علماً نجد في سلوكها اللغوي ما يفي بمسؤوليتها ويؤكد دورها بوصفها القدوة المرسومة حدودها وأبعادها.

من أهم هذه المواقع دور التعليم بمراحله المختلفة. لا ننكر أن اللغة العربية وجوداً من نوع ما في هذه المراحل، وإن بنسب مختلفة. ولكن هذا الوجود نفسه وجود نظري شكلي، يتمثل في المناهج والمواد المقررة المفروض تقديمها إلى الطلاب. وهذا التقديم - وبالأسف الشديد - يأتي قاصراً عن أداء هدفه وعاجزاً عن التعليم أو التنقيف اللغوي المنشود.

ذلك أن هذا التقديم يسلك - في أغلب الحالات - مسلكاً مغلوطاً مخلوطاً بأساليب نافرة من أنماط الكلام، بحيث يفقد القدوة الصالحة أو المثل المقبول.

ففي الحضانة والتعليم الابتدائي تَعَوَّجُ اللسان وتَقْدَفُ بأصوات لا هوية لها، من عربي كسيح محشوٍ بالعاميات والطرانات واللغات الأجنبية. يحدث هذا دون وعي من مربين ومربيات ليست لديهم الخبرة الكافية والإعداد السليم لأداء هذا الدور القومي، ذي الأهمية البالغة في تربية الناشئة.

وهناك في المرحلتين الإعدادية والثانوية محاولات جادة من بعض المعلمين لإنقاذ العربية من ورطتها وتقريبها من الطلاب. ولكن هذه المحاولات - ويا للأسف الشديد - لم تسلك الطريق الصائب لإنجاح هذا القصد الطيب. ذلك أنهم يركزون على تقديم قواعد اللغة (والنحو بالذات) بصورة لا تغني فتياً، حيث يقدمونها من خلال أمثلة منزوعة من سياقاتها نزاعاً عشوائياً، أو أمثلة تقليدية جافة مصنوعة صنعاً خالياً من انساق النظم والتعبير عن معانٍ تلائم ثقافات المتعلمين وأوضاعهم الاجتماعية والحياتية. وهم في كل ما يفعلون يسلكون مسلك التلقين والحفظ دون مناقشة أو حوار أو عَوْدٍ إلى استشارة أساليب اللغة صاحبة هذه القواعد.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وتكون النتيجة الحتمية لهذا النهج غير الموفق حفظ القواعد وصبها صباً في أذهان الدارسين، كما لو كانت قوالب جامدة معزولة عن البناء الكبير الذي نهدف إلى تعرفه أو إجادته وإتقانه، وهو اللغة. إن الطلاب في هذه الحالة يعرفون القواعد وينجحون في امتحانها، دون أن يدركوا قيمتها أو مواقعها في هذا البناء، لأن البناء (وهو اللغة) قد حرموا من تعرفه تعرفاً يرشدهم إلى هذه القيم والمواقع.

وهكذا أخفق التعليم في هاتين المرحلتين في إرساء القدوة الصالحة في رعاية العربية والعمل على تشجيع التعامل بها.

أما في التعليم العالي بجامعاته ومعاهده فالأمر يحتاج إلى النظر وإلى وقفة قومية خالصة من المسؤولين هناك، حيث إن مواقعهم في وطنهم تمثل أعلى درجات القدوة في التعليم والتنقيف وإعداد رجال المستقبل، أمل الأمة وعماد قوتها وازدهارها. ولكن يبدو لنا من حاضر واقعهم أنهم تناسوا دورهم أو تجاهلوه وانشغلوا عنه فيما يتعلق بالأساس الأول والأقوم في بناء المجتمع وتمكين هويته وتأكيداها، وهو اللغة.

اللغة العربية بمعناها القومي ليس لها وجود يعدل أهميتها في الكليات والمعاهد العليا، لا في استعمالها في تقديم المواد المختلفة، ولا في العمل على تجويدها أو تنمية وتعميق محصول الواردين إليها من المراحل التعليمية السابقة.

ففي معظم الكليات العلمية تترجحها اللغات الأجنبية عن مواقعها أو تغشيها بأخلاق من اللغات الأجنبية أو العاميات، بحيث تسيطر البلبلة اللغوية التي تحرم الطلاب من استيعاب المادة، وتقطع حبل الوصل بينهم وبين اللغة القومية.

وفي الكليات والأقسام ذات الاختصاص تجد اهتماماً ملحوظاً من الناحية النظرية المتمثلة في المناهج ومفردات المادة الواجب تقديمها للدارسين. وهذا شيء يُذكَرُ فيُشكرون عليه، ولكن تفعيل هذه المناهج عملياً وطرح هذه المفردات وتوصيلها إلى الطلاب بصورة تُؤتي أكلها وتنتج أهدافها من تمكين العربية الفصيحة الصحيحة في الأذهان، أو تعميق وتوسيع دائرتها

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

في الاستعمال الفعلي نطقاً وكتّاباً، يشوبها العور والقصور في الأداء وأساليب التقديم والتوصيل والشرح والبيان.

فهناك طائفة من الأساتذة - والشباب منهم على وجه الخصوص - تؤثر الانشغال بالفروع دون الأصول أو الطلاء دون البناء، فيقصرون دورهم على تدريس "الأدب" وما ارتبط به من تاريخ وشخص ونوعية الإنتاج، محاولين تجميل عملهم هذا بألوان من الرؤى والاتجاهات في تقييم هذا الأدب في إطار ما يعرف "بالنقد الأدبي".

وطائفة ثانية تحاول أن تسلك - اختياراً أو اضطراراً - المسلك الصحيح في درس البناء اللغوي ومكوناته من مفردات ووحدات، مع فائق الاهتمام بأساس هذا البناء من قواعد وعمد تشكل هذا البناء بصورة صحيحة.

هذه الطائفة الثانية تسلك هذا المسلك الصحيح المقبول من حيث المبدأ، ولكن رجالها - من حيث التطبيق والأداء والتوصيل - ينزعون منزعين مختلفين. فمنهم من يقصر عمله على جزء معزول من البناء اللغوي، دون مراعاة كافية لضرورة الربط والتألف بين الأجزاء التي تشكل في النهاية بناء متكاملًا. إن هذه الفئة من الأساتذة غالباً ما تكتفي بتقديم باب أو أبواب معينة من قواعد اللغة، إما لقصور في معرفتهم بالأبواب الأخرى، وإما للاكتفاء بما اختاروا لأنه يمثل كل حصيلتهم من المعرفة اللغوية التي سبق أن عرضوا لها في رسائل الماجستير أو الدكتوراه.

أما أصحاب المنزع الثاني من طائفة المهتمين بالبناء اللغوي - وهم قلة قليلة - فهم يجدون أنفسهم بحق وصدق في سبيل تمكين اللغة وخدمتها في إطار متكامل يجمع بين قواعدها وظواهرها في نظام متألف الوحدات والمكونات التي تشكل البناء الذي تقدمه لطلابهم.

هذا قصد جليل مشكور، ولكن غالبيتهم مع ذلك لم يوفقوا التوفيق المبتغى في الوصول إلى مقاصدهم تلك الطيبة. ذلك أن بعضهم ما يزال يعتمد على المناهج القديمة الموروثة في تقديم المادة، فيشغلون أنفسهم بالآراء المختلفة في تفسير القاعدة الواحدة، ويحاولون تفسيرها بالتأويل

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

والافتراض أو بالشذوذ أو نسبتها إلى قبيلة أو لهجة، وهذا الأمر يشنت أفكار الدارسين ويحرمهم من استيعاب ما يُراد تقديمه. وبعض آخر يخلط بين القديم والجديد من المناهج ويأتي بأمثلة التوضيح والبيان منزوعة من سياقاتها، أو مصنوعة صنفاً عشوائياً لا يفيد في قليل أو كثير. وبعض ثالث يلقي بنفسه في خضم النظريات ورجالها ومدارسها، متغافلاً إلى حد واضح عن تقديم ظواهر اللغة وحفاتها.

هذا إضافة إلى تلك الظاهرة المؤسفة التي تشيع الآن بكثرة بين أساتذة اللغة العربية، وأعني بها ظاهرة الخط الواضح بين الفصيحة والعاميات أو الاكتفاء أحياناً بالعاميات في تقديم مواد العربية وثقافتها.

وهكذا اهتزت القدوة العالية وتنافرت أركانها، فاهتزت أفكار الطلاب وتنافرت اتجاهاتهم. بقي أن نشير إلى موقع معين يحسب في نظرنا أهم قدوة وخير سبيل في التنقيف اللغوي على المستويين العام والخاص. وأعني بذلك الإعلام المسموع في الإذاعة والتلفزة. ولنا في هذا الشأن حديث أكثر تفصيلاً فيما بعد.

السؤال المهم الآن: لم كانت الشكوى في الأوساط العامة والخاصة من النحو وحده؟

الإجابة سهلة ميسورة: إنما كانت الشكوى من صعوبة اللغة وعدم القدرة على التعامل بها مركزة وموجهة غالباً إلى "النحو" لشيوع الخطأ نطقاً وكتباً في تلك الخاصة المعينة التي من السهل تعرفها وإدراكها من كل من له معرفة متواضعة باللغة. هذه الخاصة هي الإعراب، في حين أن الإعراب ليس النحو بحال، وإنما النحو له خواص أخرى أهم بكثير من الإعراب الذي لا يعدو أن يكون واحداً منها في اللغات المعربة، ومنها العربية الفصيحة الصحيحة. ومن هنا نؤكد رأينا المعبر عنه بقولنا: الإعراب ليس النحو وليس النحو الإعراب.

النحو - كما يعرفه النقات - هو علم التراكيب Syntax الذي يُعنى بالنظر في هذه التراكيب وتحليلها من وجهات ثلاث وظائف أساسية في كل اللغات، هي:

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

1. الاختيار، أي اختيار المكونات التي تشكل التركيب لإفادة المعنى المقصود وفقاً لسياقه، صغيراً كان هذا التركيب أم كبيراً.
 2. الموقعية، أي وضع كل مكون من مكونات الجملة في موقعه الصحيح، طبقاً لقواعد اللغة المعينة، سواء أكان هذا المكون اسماً أو فعلاً أو أداة إلخ.
 3. الربط بين هذه المكونات بوسائل الربط المقررة في اللغة المعينة. ولهذا الربط أهمية كبيرة، إذ لا يكفي أن تقع المكونات في مواقعها دون ربط بينها، وإلا أصبحت المكونات أشبه بوضع أحجار البناء بعضها بجوار بعض، دون سبكها سبكاً محكماً.
- لا ننكر أن هناك وظيفة رابعة أو - قل - خاصة مميّزة للنحو في اللغات المعربة، ومنها اللغة العربية بمعناها العلمي الدقيق. هذه الخاصة أو الوظيفة هي الإعراب.
- ولكن الإعراب - كما هو واضح - ليس مكوناً من مكونات التراكيب، وإنما هو المرآة التي تعكس ما يقع في التركيب من صحة أو خطأ في بناء هذا التركيب. ولنا أن نوضح ما نقول بالأمثلة التي تؤكد هذا التفسير.
- تأمل معي المثال التالي الذي يكثر وقوعه نطقاً وكتباً من أهل العربية - ومنهم متخصصون -: "إن لدينا أعمال كثيرة"، برفع كلمة "أعمال"، وهو خطأ بلا شك. ولكن الخطأ في حقيقة الأمر ليس في الإعراب ذاته، وإنما هو خطأ في موقعية مكونات التركيب. ذلك أن المتكلم أو الكاتب لم يدرك أن عبارة "لدينا" شبه جملة، وغاب عنه أن شبه الجملة لا يقع مبتدأ بحال، والقاعدة في لغتنا تقول: ما لا يقع مبتدأ لا يقع اسماً - إن ولا اسماً - كان إلخ.
- إن اسم "إن" في المثال السابق هو "أعمال" فيجب نصبه، ولكنه جاء مرفوعاً لعدم إدراك هذه القاعدة أو جهلاً بها. والذي كشف عن هذا الخطأ في البناء هو الخطأ في الإعراب. فالإعراب في اللغة العربية (وغيرها من اللغات المعربة) خاصة مهمة، وظيفتها الإفصاح عن الصحة أو الخطأ في الكلام، أو قل: هو الدليل الذي يسهل إدراكه على أن البناء صحيح أو خطأ من حيث خواص وحداته المكونة له. إنه دليل كاشف عما وقع في هذا البناء من عور أو

تجاوز، وليس مكوّنًا من مكوّناته.

ومن هنا نكرر ونؤكد أن الإعراب ليس النحو وليس النحو الإعراب، على عكس ما يفهمه العامة وبعض المتخصصين وكثير من معلمي اللغة في مراحل التعليم المختلفة. وربما يؤيدنا في ذلك أن الكلام - في سياقه الداخلي والخارجي - يمكن فهمه بدون علامات الإعراب، ولكننا مع ذلك لا نجيز إهماله أو الاستغناء عنه لأنه ما زال المنبه والمرشد إلى الصحة أو الخطأ فيما نقول أو نكتب.

وحقيقة الأمر أن النحاة بالغوا في الاهتمام بالإعراب. وهو اتجاه مقبول، ولكنهم في الوقت نفسه لم يوجهوا قدرًا كافيًا من الاهتمام بوظائف النحو الأخرى التي هي في واقع الأمر قوام النحو، وهي النظر في مكونات التركيب ومواقعها ووسائل الربط بينها. وجاء اهتمامهم هذا المتواضع بتلك الوظائف مفرقًا متناثرًا، ومشارًا إليه إشارات غير كافية في أبواب النحو التي صنفوها ووزعوها طبقًا لحالات الإعراب ووجوهه، حتى ليظن المرء أن النحو هو الإعراب وأن الإعراب هو النحو.

ومن اللافت للنظر أن هذا المنهج في دراسة النحو المجاوز لأساسيات التحليل العلمي الدقيق هو المنهج السائد بل المسيطر على أعمال المتأخرين من النحاة بصفة خاصة. وسار على هذا المنهج أو أسوأ منه جملة من المشتغلين بالنحو الآن في مراحل التعليم وغيرها من المواقع اللغوية المسؤولة. وأعني بهم أولئك الذين يدعون التجديد والتطوير في الدرس اللغوي في عصرنا هذا الذي نعيش فيه.

ومن الجدير بالذكر أن البلاغيين كانوا أعمق نظرًا وأوسع إدراكًا لمقاصد النحو وغاياته من النحويين. وجه البلاغيون اهتمامًا كبيرًا - نظرًا وتطبيقًا - إلى أساسيات التحليل النحوي بمعناه الدقيق، وبخاصة فيما يتعلق باختيار مكوّنات التركيب ومواقعها وضمها بعضها إلى بعض وإلى الربط بينها.

يظهر ذلك كله واضحًا فيما صنعوا وسجلوه في آثارهم، وخصصوا له علماء من علوم

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

البلاغة، هو ما أطلقوا عليه "علم المعاني". ويبدو أن أستاذنا وشيخنا الكبير المرحوم علي السباعي كان مدركاً تمام الإدراك لقيمة ما صنعه البلاغيون ومستوعباً لأهميته في التحليل النحوي على مستوى أرقى وأدق مما سار عليه النحويون، فسماه "النحو العالي" وهذا حق وصدق.

ولنا أن نشير هنا - بكل تقدير واعتزاز - إلى ما رسمه هؤلاء البلاغيون في هذا الشأن؛ بتسجيل شيء يسير مما أتى به معلمهم ورائدهم عبد القاهر الجرجاني في كتابه الأشهر "دلائل الإعجاز".

يقول عبد القاهر، مشيراً إلى المبدئين الأولين في تأليف الكلام وتحليله، وهما اختيار المكونات ومواقعها المقررة في المنظوم من جملة أو عبارة: "وما النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله". ومعناه باختصار شديد أن التأليف أو المنظوم نظاماً صحيحاً لا يكون ولا يتحقق إلا بوضع مكونات التركيب المختارة (كلامك)، كل في موقعه وفقاً لقواعد النحو وقوانينه.

وليس هذا فقط، فقد أدرك عبد القاهر بثاقب فكره أن عملية اختيار المكونات ووضعها في مواقعها الصحيحة، لا تكفي لإقامة بناء متكامل متسق الوحدات، متماسك اللبّات، فانصرف، بتأكيد ووضوح بيان، إلى المبدأ أو الأساس الثالث من أسس إقامة البناء أو النظم، وهو التعليق أو الربط بين هذه المكونات المختارة. يقول: "ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض".

وهكذا، انتهى هذا الرائد الكبير منذ زمن بعيد إلى ما انتهى إليه الفكر اللغوي الحديث، وسرنا على نهجه من أن وظائف النحو الأساسية، هي الاختيار والموقعية والربط أو التعليق.

وما الرأي في الإعراب؟

للإعراب نصيب كبير من الاهتمام عند البلاغيين، ولكنهم لم يشطحوا فيه شطح النحاة المحترفين. اكتفى البلاغيون ببيان قيمة الإعراب وأهميته، من حيث كونه أمانة صحة التأليف أو فسادها، ومن حيث كونه المرآة الكاشفة عن صحة المبادئ أو الوظائف الأساسية لعلم النحو أو فسادها.

استمع إلى شيخهم عبد القاهر يقول في هذا الشأن: "قد علم أن الألفاظ (المكونات) مغلقة على معانيها، حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها، حتى يكون هو المستخرج لها وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورُجحانه، حتى يُعرض عليه، وأنه المقياس الذي لا يُعرف صحيح أو سقيم حتى يُرجع إليه".

وهكذا أكد لنا هذا الشيخ الكبير ما رأيناه من أن الإعراب ليس مكوناً من مكونات البناء، وإنما هو أمانة صحة التأليف أو فسادها. أو - قل - هو المرآة الكاشفة عن حال التركيب من حيث مجيئه وفقاً للقواعد المقررة في بناء التركيب أو لا.

ومعنى هذا كله، أن تقييم الكلام من حيث الصحة والخطأ نحوياً ينبغي أن يوجه إلى كل وظائف النحو، لا إلى الإعراب وحده الذي اعتمده ويعتمده غير العارفين، كما لو كان الأساس الأوحد في الحكم على صحة التأليف أو خطئه، والذي اتهموا العربية بصعوبتها وتعقيدها، لعدم استيعاب حقيقته ووجوهه، في حين أن عدم الاستيعاب أو الجهل بوظائف النحو الأخرى هو السبب الحقيقي في صعوبة اللغة التي يكشف عنها ويعكسها بوضوح جرس الإنذار في ذلك كله، وهو الإعراب.

وإلى هنا نتساءل: أليس في المستويات اللغوية الأخرى (الأصوات والصرف بالذات) خلط واضطراب في الاستيعاب والأداء؟ نقول: بلى، بكل تأكيد، ولكن العامة وكثيراً من الخاصة لا يدركون هذه الحقيقة لنقص في المعرفة أو جهل بأبعادها، وانطلقوا - بلا روية - إلى اتهام النحو بالقصور والعور، لاعتمادهم - خطأ - في هذا الاتهام على صعوبة الإعراب وتعقيد

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وجوهه، والخطأ فيه سهل تعرفه على كل من له معرفة متواضعة باللغة.
وحقيقة الأمر أن الخطأ والخلط لهما وجود واضح في الأصوات والصرف أيضاً.

الأصوات

تحفل اللغة العربية في العالم العربي الآن بخليط من الصوات الزاغة والمحشوة بركام من الأصوات النافرة، من عربية ولهجية وورطانية وأجنبية. هذا الخطأ النطقي له وجود ظاهر في الأصوات المكونة للتركيب أو البناء، وهي الأصوات الصامتة Consonants والصائتة أي الحركات Vowels.

اختفت أصوات أو كادت في الاستعمال الحي المنطوق في غالبية القوم، متقفين وغير متقفين، كأصوات الثاء والذال والطاء. فينطقون الثاء سيناً، كما في نحو "سلاسة" بدلاً من "ثلاثة" أو تاء كما في "تعلب" بدلاً من "تعلب". وينطقون الذال زياً كما "زنب" بدلاً من "ذنب"، أو دالاً كما في "ذهب" بدلاً من "ذهب". أم الطاء فنادرًا ما ينطقها العرب نطقاً صحيحاً. والشائع على ألسنة المصريين الآن نطقها زياً.

وتأمل معي نطق صوت "الجيم". إنه ينطق بخمس أو ست صور. صحيح أنه كان لهذه الصور وجود في القديم، ولكن هذه الصور لم يكن نطقها مختلطاً بعضه ببعض في البيئة الاجتماعية الواحدة، وإنما كانت كل صورة منها مقصورة على لهجة معينة. أما الآن فالخلط في النطق له وجود ظاهر هنا وهناك في مجمل البيئات العربية، بل في نطق البيئة الواحدة أو الفرد الواحد.

وهذه الصور المختلطة هي:

1. ما يطلق عليها الآن الجيم الفصيحة (للتمييز بينها وبين غيرها من الصور) وهي المأخوذ بها في قراءة القرآن الكريم، وقد نسمعها أحياناً من بعض المتخصصين، ولها وجود ظاهر أيضاً بين العامة في صعيد مصر على وجه الخصوص. ورمزها في الكتابة الصوتية [dj].

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

2. الجيم القاهرية، وسميت بذلك لكثرة استخدامها في القاهرة وبعض الحواضر المصرية الأخرى وغيرها من البلاد العربية. ورمزها [g].
3. ما يسمى بالجيم الشامية، نسبة إلى تلك المنطقة العربية المعروفة "بالشام". وهذه النسبة لا تعني الآن قصر استخدامها على هذه المنطقة وحدها، إذ إن لها أثراً واضحاً في نطق الكثيرين من المصريين وغيرهم، وعندما يحاولون نطق الجيم الفصيحة، فيعجزون عن ذلك ويأتون بها جيماً شامية. ورمزها في الكتابة الصوتية [J].
4. تنطق دالاً خالصة في نطق بعض أهالي الصعيد في مصر، فيقولون "ديش" بدلاً من "جيش"، و"ردا" بدلاً من "جرجا".
5. تنطق ياء، كما بعض لهجات الخليج العربي، وبخاصة في الكويت ورمزها [y].
6. قد تنطق زائاً في بعض لهجات فلسطين وتونس. وهذه الصورة السادسة أشار إليها الجاحظ في "البيان والتبيين" ونسبها إلى "الأنباط".
وندلف الآن إلى صوت القاف

القاف

- ينطق هذا الصوت بثلاث صور شائعة في معظم البلاد العربية. وقد تقع هذه الصور الثلاث في البلد العربي الواحد، بل أحياناً على لسان الشخص الواحد، في المقامات المختلفة.
- الصورة الأولى:** نطق القاف نطقاً صحيحاً، وهذه الصورة هي ما يجري عليه المجيدون من قراء القرآن الكريم في مصر، ورمزها [q].
- الثانية:** هي الأكثر شيوعاً والأعم استخداماً في معظم لهجات الوطن العربي، بل قد يلتزم بها بعضهم في الفصح والعامي على حد سواء. هذه الصورة هي ما نسميها بالجاف (بنطقها جيماً كما في نطق القاهريين وأمثالهم) ورمزها [G].
- الثالثة:** تنطق القاف همزة خالصة، كما نطق القاهريين وأضراً بهم من سكان الحواضر في مصر وبعض البلاد العربية.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

ونأتي بعد إلى صوت الضاد. وهو من أكثر الأصوات العربية حيرة على ألسنة العرب. قد ينطق صوتاً مفخماً، كما في نطق مجيدي قراءة القرآن، وعامة المصريين. وكثيراً ما يصيبه الترقيق، فينطق كما لو كان دالاً، كما نسمعه أحياناً في نطق السيدات.

ولهذا الصوت صورة عجيبة في النطق في بعض البلاد العربية، كالعراق والكويت. ينطقونه في معظم المقامات اللغوية بصورة تجمع بين سمات الضاد وسمات الظاء. وقد يكتبه بعضهم بالرمز [ض] وآخرون بالرمز [ظ]، وقد يشير إليه بعض آخر في الكتابة بالرمزين معاً في النص المكتوب الواحد.

ولنطق هذا الصوت في القديم قصة طويلة عجيبة، من الصعب تعرّف حقيقة نطقه بالدقة. كل الذي نعرفه عنه في هذه الحقبة القديمة هو ما سجله الأقدمون كسيبويه وابن جني (وغيرهما) من أوصاف تبعد بنطقه بُعداً شاسعاً عن نطقه الآن في مصر.

تلك أمثلة للأصوات التي أصابها الخلط والاضطراب في النطق، وهذا ما زاد من صعوبة العربية وتشويه حقائقها على الجماهير العامة، وبخاصة أن بعض الصور الشائعة في نطق ما مرّ من أمثلة يقع في دائرة الخطأ المحض، وهو ما يقتضي النظر في هذا المستوى الصوتي للغة العربية.

وهناك بجانب هذا الخطأ الصوتي المحض تجاوزات في أداء أصوات أخرى، لا يدركها إلا الثقات العارفون. يمكن التمثيل لهذه التجاوزات بنطق صوتي "الراء" و"اللام" على وجه الخصوص.

الراء: في العربية الفصيحة الصحيحة لها حالتان من النطق: مفخمة ومرفقة. التفخيم له مواقعه وحدوده وهو أكثر وروداً في اللغة، وللترقيق سياقاته المحددة كذلك. ولكن القوم العرب الآن يخلطون خلطاً كبيراً بين الحالتين، وهو ما يخرج بالنطق العربي عن أصوله المقررة. ويظهر الخلط بصورة أوضح في ميل الكثيرين - وبخاصة النساء - إلى ترقيق ما أصله التفخيم.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

اللام: في النطق العربي الفصحى صوت مرقق، ولكنه في لفظ الجلالة (الله) له حالات من التفخيم والترقيق وفقاً للسياق.

قال النقات: يفخم صوت اللام في لفظ الجلالة إذا سبق بضم أو فتح، ولكنه يرقق إذا سبق بكسر، كما في نحو بسم الله الرحمن الرحيم، وعلى الرغم من ذلك نلاحظ تجاوزاً واضحاً في الأداء الصحيح في نطق اللام في هذه الحالة.

كل ما مضى مجرد أمثلة للأصوات الصامتة consonants التي أصابها الخلط والاضطراب في أدائها النطقي، وهو ما يعني عدم استيعاب الناطقين لخواصها وحقيقة موقعها في المنظومة الصوتية للغة العربية. ولم تسلم الصوائت الحركات "Vowels" من الخطأ في النطق أو التجاوز فيه بصورة أوسع وأعمق مما لحق بالأصوات الصامتة. وبيان وجه الحق في هذه الحالة يحتاج إلى وقفة خاصة في دراسة مستقلة، نأمل أن تأتي بها في مقام آخر.

في الصرف

ليس الصرف بأحسن حظاً من الأصوات في الخلط والاضطراب نظراً وتطبيقاً. قليلون هم أولئك الذين يهتمون به أو يفكرون في مشكلاته، أو يقدمونه للناشئة بصورة تعينهم على تعرفه تعرفاً يأخذ بيدهم نحو هضم حقيقته واستخدام ظواهره وقواعده استخداماً مقبولاً في أدائهم النطقي للغة العربية.

والحق أن علم الصرف بالذات قد ورثناه عن الأسلاف محشواً بالتعقيد والصعوبة في رسم قواعده وتحليلها؛ وهذا ما زحزحه وأبعده عن إطار الألفة والاهتمام به في مراحل التعليم المختلفة من المعلمين والمتعلمين على حد سواء. هذا إضافة إلى إن أحداً من المهتمين بشؤون العربية لم يحاول تقديم موادّه وعرضها على الراغبين على وجه يزيل غريبته ويرشحه للقبول والتعامل به ومعه.

ومن هنا لا نعجب أن نجد الكلام العربي - كَتَباً ونطقاً - مشحوناً بالأخطاء والتجاوزات

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الصرفية، وهو أمر معروف لكل ذي بصر وبصيرة. ويكفي في هذا المقام أن نشير إلى أمثلة من هذا الخطأ الذي لا تسلم ألسنة العامة والخاصة من الوقوع فيه.

الخطأ واضح ومشهور إلى درجة حسبانته - عند غير العارفين - أنه الصحيح الذي استقرت عليه القواعد الصرفية المقررة. لاحظ معي الخطأ في أوزان الأفعال والمصادر والمشتقات والتنثية والجمع مثلاً.

من ذلك قولهم: حرص (بكسر الراء) والصواب حرص (بفتحها) - بدء (بكسر الباء) والصواب بدء (بفتحها) - قبول (بضم القاف) والصواب قبول (بفتحها) - سهولة وصعوبة (بفتح السين والصاد) والصواب سُهولة وصُعوبة (بضمهما) - الأخرتان (متى أخرى) والصواب أُخْرَيَان - أخان أو أخّان، والصواب أخوان - الراسل والصواب المرسل - وفيّات - جمع وفاة) بكسر الفاء وتشديد الياء، والصواب وفيّات، بفتح الفاء وياء بدون تشديد الخ.

يتبين لنا من كل ما سبق أن صعوبة العربية وعدم استيعاب قواعدها والشكوى من العجز عن استخدامها استخداماً سليماً، كلها أمور لها وجود ظاهر في كل المستويات اللغوية، وليست مقصورة على النحو الذي درج العامة والخاصة على اتهامه وحده بأنه السبب الأساسي في مشكلات العربية نظراً وتطبيقاً. وحقيقة الأمر في كل ذلك أن الصعوبة في اللغة كلها بكل مستوياتها، إذ إننا في واقع الأمر نعلم ونتعلم قواعد موروثة للغة غائبة عن أصحابها.

ولنا هنا أن نتساءل: أين اللغة صاحبة هذه القواعد؟ الإجابة سهلة ميسورة: اللغة العربية الفصيحة الصحيحة صاحبة هذه القواعد الموروثة عزلها أهلها وحرموها من الاستعمال والحوار معها، فبعدت الشقة بين القبيلين إلى درجة ملحوظة، أوقعتهم في حيرة من أمرهم، واكتفوا بالشكوى ولم يحاولوا النظر الدقيق في سبل ووسائل تصحيح هذا الوضع الكارثي.

ما الحل؟ ليس من المستحيل أن نصنع شيئاً في سبيل خدمة لغتنا ونعيد إليها شيئاً من أمجادها وتمكينها من عرشها الذي هدمناه بأنفسنا. ولن يتحقق هذا إلا إذا أفاق القوم من رقدتهم، ونظروا في جوهريات مشكلاتها، دون الالتفات إلى ظواهرها وهوامشها.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

هناك - في رأينا - وسيلتان متصلتان غير منفصلتين من شأنهما معاونة الصادقين المخلصين على الوصول - وإن بالتدريج - إلى هذا الهدف القومي النبيل.

السبيل الأولى

تمثل هذه السبيل الأولى في محاولة تمكين اللغة العربية الفصيحة الصحيحة من مواقعها التي يجب - ثقافياً وعلمياً وقومياً - الالتزام بها في التواصل اللغوي مع الجماهير عامتهم وخاصتهم على السواء. هذه السبيل - وإن كانت تستغرق وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً - معقود لها النجاح والتوفيق في أداء دورها المرسوم أو المأمول في تنشيط اللغة وتقريبها - بصورة من الصور - إلى أهلها.

ولنبداً بتوجيه النصح إلى تلك المواقع المصنفة قدوة في المجتمع، تربوياً وتعليمياً وثقافياً وإدارياً وسياسياً، الخ، داعين مسؤوليها إلى تكريمها وتقديرها على الوجه الذي يعدل أهميتها ومكانتها التي شرفوا بتصريف أمورها أو كلفوا إنجازها.

هذه المواقع القدوة تبدأ بالأم، وإن كانت الأم العربية الآن - كما قررنا سابقاً - ينقصها الوعي الكافي بأهمية التنقيف اللغوي. وتليها في الأهمية، على المستوى القومي، الهيئات والمؤسسات العامة والخاصة، ذات الاتصال الوثيق بالجماهير مثل الدوائر الحكومية، النقابات المهنية، الجمعيات الثقافية، الدعاة، بيانات المسؤولين وأحاديثهم الرسمية، وما إلى ذلك من كل موقع ينتظر من رجاله الإرشاد والتوجيه ورعاية ما يكلفون به من خدمات لأبناء وطنهم.

وإن ننس لا ننس دور التعليم بمراحله المختلفة في شأن تصحيح المسار اللغوي. ذلك أن التعليم يشكل منظومة متكاملة ذات أبعاد مرسومة ومقاصد مقررّة تهدف إلى تربية الناشئة وتنقيفهم وإعدادهم إعداداً قومياً له خصوصياته وسماته. وهي مقاصد وسمات تعين مواقعهم في صفوف العالم المشحون بالصراع على التفوق والتنافس على سبق والسيطرة، باعتماد كل قوم من المتصارعين على المعرفة الأوسع والأعمق؛ ونوعية الثقافة والتوجيهات الفكرية التي من شأنها احتواء الآخرين وضمهم إلى صفوفهم. ولا يكون ذلك - بالطبع - إلا بالسلاح

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الفاعل المؤثر وهو اللغة القومية لكل فريق.

ونأتي بعد هذا إلى أهم درجات القدوة - وأيسرها في الوقت نفسه - في إطار تمكين اللغة من مواقعها الصحيحة.

نعني بهذه القدوة الإعلام المنطوق (المسموع) المتمثل في الإذاعة والتلفزة على وجه الخصوص. هذا الجهاز الإعلامي يأتي على قمة الوسائل الفاعلة في التنقيف اللغوي.

إن هذا الجهاز فائق التأثير جليل القدر في اكتساب اللغة وتنميتها ونشرها. ذلك أنه منبر الأمة في مجموعها، ولسانها الناطق المعبر عن أفكارها وتوجهاتها وثقافتها. من هنا كان من الحتم على هذا الجهاز الالتزام باللغة القومية، وهي الفصيحة لأنها الأداة الفاعلة والسبيل الأقوم إلى صب هذه الأفكار والتوجهات والثقافات في بوتقة واحدة، ضماناً لها من التشتت والتفرق وتعرضها للتناثر أو الضياع.

هذا السلوك اللغوي الموحد هو ما يجري العمل به في معظم البلدان التي ترمي إلى توحيد الصفوف والزحف بها في تناسق وانضباط، وصولاً إلى الهدف المرسوم والغرض المطلوب، وهو الفوز بمواقع إنسانية رفيعة القدر، عالية الشأن، تنبئ عن خصوصيتها، وتؤكد هويّة أصحابها.

وإنما كان اهتمامنا بدور الإعلام المسموع في مسيرة الإصلاح اللغوي، لتأكيد الحقيقة العلمية المقررة التي تنص على أن اللغة (أية لغة) إنما تكتسب وتنمو وتعمق أو تصقل وتنتشر باتباع المبدأ الذي وضعناه، وهو "اسمع وأسمع". ومعناه أنك إذا أردت أن تفوز بشيء من تصحيح المسار اللغوي، فما عليك إلا أن تسمع اللغة التي تود التعامل معها وبها مراراً وتكراراً، حتى تثبت قواعدها وظواهرها في الذهن. فإذا كان الموقف التواصلية المناسب، عُدت إلى هذا المخزون الذهني، وأتيت على منواله بما يسدُّ حاجة هذا الموقف جهرًا.

هذا المبدأ بالذات له أهمية القصوى في تلك المجتمعات التي تكتسب معارفها وثقافتها بالسماع لا القراءة. ومن هذه المجتمعات - دون شك - المجتمع العربي في عمومها، فنحن -

كما يقال - قوم نسمع ولا نقرأ.

هذا المبدأ المرغوب اتباعه متحقق بالطبع - لا بالصُّنع - في الإذاعة والتلفزة. إننا نسمع كل ما يلقى علينا، ويستقر في أذهاننا، ولهذا السماع والاستقرار أثره الواضح في كلامنا (نطقاً وكتّاباً)، حيث نأتي بمثله من وقت إلى آخر، فصيحاً كان أم عامياً أو ملوثاً بأشكال متنافرة من الأصوات العربية والأجنبية أحياناً.

وإلى هنا نتساءل: هل يقوم الإعلام المسموع بدوره المرغوب أو الواجب إنجازه في مسيرة الإصلاح اللغوي، بوصفه أهم قدوة في هذه السبيل في بلادنا؟ لا ننكر أن هناك محاولات فردية في بعض البرامج الإذاعية ترشح نفسها للقبول واعتمادها قدوة في هذه السبيل، حيث يأتي الكلام فصيحاً صحيحاً، صالحاً للتثقيف اللغوي الرشيد، ومحاولة الانتفاع به والسير على منواله قدر إمكانات المتلقين. يظهر ذلك مثلاً في نشرات الأخبار وقراءة البيانات الرسمية، وفي بعض الحوارات مع الضيوف، ولو أن بعض هؤلاء الضيوف يخلطون خطأً عجباً في كلامهم شكلاً ومضموناً، حيث يضيع الوقت في مكمة صارخة زاعقة لا تفيد المتلقي في قليل أو كثير.

أما الكثرة الكاثرة من البرامج فتقدم باللسن العامية المخلوطة، وتؤدي بسرعة عجيبة محشوة بأخلاق من الأصوات النافرة التي تضطر السامع في كثير من الأحيان إلى إغلاق الجهاز.

ويرى كثير من الإذاعيين وبعض المتقنين غير العارفين أن العاميات أقرب السبل وأيسرها إلى التوصيل في مجتمع لا تألف غالبية التواصل بالفصح الصحيح من الكلام، أي اللغة القومية ذات الحدود والضوابط المقررة.

ونحن نقول: ربما يكون هذا الزعم صحيحاً في التواصل العادي في الشارع والمتجر، وما إلى ذلك من مواقع الحرف والصنائع والتجمعات الجماهيرية هنا وهناك إلخ. أما في الإذاعة - القدوة المثالية في الإصلاح اللغوي - فالأمر يحتاج إلى تخطيط وتصنيف للبرامج، بحيث تقدم

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

رسائلها بصورة كلامية تعدل أهمية الإذاعة في التنقيف والتنوير وضرب المثل الأقوم في خدمة القوم أجمعين.

لا ننكر وجود العاميات، ولا نستطيع زحزحتها من مواطنها التقليدية. أما في الإذاعة فالأولى بنا زحزحة هذه العاميات، وإن بالتدرج، مع قصر استخدامها - إن كان الأمر ضرورياً - على تلك البرامج المحدودة التي يُظن أن العاميات تسدُّ حاجة بعض الفئات التي درجت في تسيير شؤونها وإدارة أعمالها على أساليب كلامية أشبه بالاصطلاح التواصل في مواقعهم.

وهنا يأتي رأينا في التواصل اللغوي المأخوذ به في التلفزة. درج القوم هناك على الاهتمام بالمظاهر والمناظر: أناقة ووجاهة في الملابس والمجلس والابتسام والحركة الخ، أما اللغة العربية فلا موقع لها إلا في نشرة الأخبار ونحوها، ومع ذلك لا تخلو من التجاوز أو الخطأ والحن في البناء والطلاء، في التركيب والأسلوب والأداء.

ويبدو من واقع الأمر الآن، أن العمل في التلفزة ينقصه الانضباط المحكم ويعوزه إدراك المسؤولية، ويشوب برامجه شيء من الخلط والسطحية والتهريج أحياناً في عرض موادّه وتقديمها إلى المشاهدين: موادّ مكررة في القنوات المختلفة، أو بثها في أوقات غير مناسبة، أو عدم كفايتها في التنقيف أو حتى الترويج المقبول من النفوس السوية.

ويبدو أيضاً أن توزيع الأدوار على المذيعين والمذيعات يجري بطريقة عشوائية، دون مراعاة لتقافتهم وإمكاناتهم التي تعدل نوعية ما يقدمون أو يعرضون من مواد. وتكون النتيجة مجرد ثرثرة صوتية، مصحوبة بحركات وإشارات تغطي المادة المعروضة، بل تقذف بها إلى الأجواء الخارجية المشحونة باللغظ والصياح.

تأمل معي مثلاً جلسات الحوار مع الضيوف. ماذا تسمع وتشاهد؟ تسمع خليطاً من الأصوات المتداخلة، بحيث لا تدري من صاحبها (المذيع أم الضيف)، ولا تدرك ماذا يقول هذا أو ذاك. وتشاهد في الوقت معركة حامية سلاحها حركات وإشارات تدفعك إلى مراقبتها،

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

مهملاً أو غافلاً عن موضوع المعركة.

أما لغة التواصل في هذه الحالات وغيرها، فهي عصيّة التصنيف: مفردات وأساليب نافرة من العربية، وأخلاق ملوثة من العاميات والطرانات، وأحياناً من لغات أجنبية، إظهاراً للفوقية وامتياز الثقافة.

وهكذا خرجت التلفزة من دائرة القدوة في تصحيح المسار اللغوي، ويا ليتها تعود إلى رشدها، وتتضم إلى صفوف المجاهدين في تمكين العربية من مواقعها، بتوجيه قدر من الاهتمام الجاد إلى تجويد أساليب الاتصال اللغوي.

السبيل الثانية

تتمثل هذه السبيل في وجوب النظر في مناهج التقعيد الموروثة عن الأسلاف. من المعلوم أن هؤلاء الأسلاف - رحمهم الله - كانوا حريصين على جمع اللغة من هنا وهناك، دون تحديد للمستوى أو البيئة. أخذوا عن الفصحاء الضاربين في البادية، وعن القبائل في دوائرهم الخاصة بألسنتهم، المختلفة في قليل أو كثير، بحكم أنماط أحوالهم المعيشية وظروفهم الاجتماعية.

فكان ما كان: جمعٌ لمادة وفيرة غزيرة، ولكن يشوبها شيء من الاختلاف في بعض الظواهر اللغوية، في صورة لهجات وطرانات محلية، أو روايات متباينة أو متضاربة، صادرة عن أفراد، عرفوا بالرواة، ذوي انتماءات ثقافية واجتماعية ليس بينها إلف أو تقارب يرشح تصنيفها مجتمعاً واحداً ذا لسان موحد يمكن الاعتماد عليه في التقعيد للغة واحدة.

انطلق اللغويون بعدُ إلى إخضاع هذا الكم الغزير المختلف المستويات للتقعيد. وحرصاً على تقعيد كل ما جمعوا، بقطع النظر عن بيئته أو مصدره، أخضعوا كل هذه المادة ذات المستويات المختلفة لنظام واحد، بمعنى أنهم أخضعوا الأمثلة المتفقة في شيء المختلفة في شيء آخر، لقاعدة واحدة أو حكم واحد، بمحاولة تحليل المختلف برده إلى ما رسموه من معايير، وضم هذه المنققات المختلفات بعضها إلى بعض.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وكان المفروض اتباع مبدأ تعدد الأنظمة polysystemic principle، بمعنى وجوب مراعاة كل مستوى لغوي على حدة، ووضع نظام خاص لكل مستوى: نظام للمستوى العام - نظام اللهجات - نظام للغة الشعر أو ضرورياته - نظام لكل ما جاوز الظواهر اللغوية العامة، بسبب اختلاف الرواة أو سياق الحال إلخ.

ومعلوم أن مبدأ تعدد الأنظمة يجنب الدارسين والمتعلم الانصراف إلى التأويل أو الافتراض أو الحكم بالشذوذ أو جواز أكثر من وجه للمثال الواحد إلخ. ومن هنا يسهل الأمر على مستعملي اللغة ومتعلميها، وتزول الصعوبة التي يشكو منها أهل اللغة قديماً وحديثاً. ومعناه أن الصعوبة البادية في قواعد اللغة ليست في القواعد ذاتها.

القواعد موجودة شيئاً أم لم نشأ، وإنما الصعوبة الحقيقية تكون في طريق التقعيد والتتظير وتحليل المادة، أو بمعنى آخر: الصعوبة في التقعيد لا في القواعد.

ومعنى كل ما تقدم بشأن الشكوى من صعوبة اللغة، أننا لو عقدنا الألفة بيننا وبين لغتنا بالاستعمال الحي المنطوق، وحاولنا النظر في قواعدها بأساليب علمية خالية من تعقيدات النظم الموروثة - لو حاولنا هذا وذاك لانكشفت الغمة، وزالت الشكاوي، واستراح الناس وألفوا لغتهم نطقاً وكتباً.

محاولات للإصلاح والتيسير

أدرك هذه الصعوبات في قواعد اللغة نفر من المهتمين بلغتهم الحريصين على تقريبها من أهلها وإزالة الشكوى الزاقة في العصر الحديث من مشكلاتها، فحاولوا صنع شيء في هذا السبيل. فماذا فعلوا؟

من اللافت للنظر أن الأغلبية العظمى من هؤلاء المصلحين ركّزوا جهودهم على مراجعة "النحو" وقواعده، أملاً في الوصول إلى تمكين اللغة من مواقعها وتقريبها من أهلها، بتخليصها من مشكلاتها وجعلها قريبة المنال من الجماهير، كل بحسب موقعه وإمكاناته.

ونحن نقول، نعم: الإصلاح مطلوب والتيسير مرغوب. ولكن النهج الذي سار عليه

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

المصلحون للوصول إلى هذا الهدف الطيب، لا يفي بآمالهم وعاجز عن إتمام المسيرة المبتغاة. ذلك:

1. أنهم وجّهوا معظم محاولاتهم إلى النحو وحده، مهملين أو متغافلين أو جاهلين بأهمية النظر في المستويات اللغوية الأخرى.
2. أنهم انطلقوا إلى هذه النظرات النحوية منفردين، كل يعتمد على رؤيته الخاصة للمشكلات النحوية، ويختار منها للعلاج والنظر ما يروقه ويلائمه أفكاره.
3. أن أيًا من هؤلاء المجتهدين لم يرسم لنفسه منهجاً معيناً في الدرس والتحليل النحوي، فجاءت مناهجهم جميعاً خليطاً من الرؤى والاتجاهات.
4. أنهم في حملتهم اقتصروا في عملهم على مسائل جزئية من قضايا النحو ومشكلاته.

إنها جهود مشكورة ولا شك، ولكنها جميعاً جاءت قاصرة عن الوصول إلى أهدافها، لاختلاف النظر والرؤى واختلاف مناهج الدرس والتحليل وعدم التكامل في معالجة البناء، وانصراف أغلبهم إلى النظر في أبواب أو قضايا نحوية معينة لقربها إلى محصولهم النحوي، وألصق باهتماماتهم الشخصية. فكان الخلط والاضطراب في نتائج محاولاتهم، وحرار الناس في الاختيار والأخذ بهذه المحاولة أو تلك.

والأغرب في هذه المسيرة الإصلاحية المضطربة مناداة بعضهم بضم أبواب من النحو التقليدي بعضها إلى بعض، واقتراح آخرين بحذف أبواب بذاتها حذفاً نهائياً، كما في يظهر في محاولة بعضهم ضم خبر "كان" إلى باب الحال، وحذف بابي التنازع والاشتغال لصعوبتهما وعدم مناسبتهما للتعليم في الوقت الحاضر.

ونحن نرى أن هذه المحاولات من شأنها أن تشوّء البناء ولا تصلحه، إذ كيف نفكر في حذف أبواب من النحو، وقواعدها موجودة في اللغة شئت أم لم تشأ؟ إذا كانت هذه القواعد صعبة المنال والاستيعاب على بعضهم، يمكن النظر في التيسير مرحلياً، وذلك بعدم تقديم هذين البابين ونحوهما إلى الناشئين من طلاب المراحل الأولى في التعليم العام، ثم نحاول بعدُ

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

تقديمها بصورة ميسرة في التحليل والشرح من خلال نصوص أدبية مقبولة صياغة ومضموناً. ومهما يكن الحكم على هذه المحاولات من حيث صلاحيتها أو عدم صلاحيتها لتطبيقها والأخذ بها، فإن انصراف اهتمامهم في جملته إلى "النحو" فقط أمر لا يقبله الثقات العارفون بطبيعة اللغة وحقائقها وعناصرها المكونة لها. اللغة بناء متكامل، يمثل النحو فيه جدران هذا البناء. وهذه الجدران نفسها مشكلة من مكونات تقيم صليها وترفع قامتها وتحيلها هيئة دالة على خصوصية البناء كله، وهو اللغة. ومعنى هذا كله أن هذه الجدران (النحو) مهما كان موقعها وأهميتها، لا يمكن بحال سبر أغوارها وتعرّف مادتها تعرفاً سليماً دقيقاً إلا بالنظر في مكوناتها وعناصرها التي شكلتها بالصورة التي تبدو عليها.

هذه المكونات والعناصر، أو قل، هذه اللبنات التي شكلت هذه الجدران وعينت أنماطها وحددت خصوصيتها بناءً وطلاء، هي لبنات تنتمي إلى مستويات أخرى من مستويات الدرس اللغوي، وأعني بها في هذا المقام اللبنات أو المواد الصوتية والصرفية.

ومقتضى ما نقول أن هناك علاقة تكاملية وثيقة بين هذه المستويات الثلاثة (الأصوات - الصرف - النحو). وهذا يعني - في نظرنا - أنه كان من الواجب على المصلحين أن يدركوا أن هناك صعوبات في المستويات اللغوية كلها، وأن يحاولوا الكشف عن هذه الصعوبات، وأن يخرجوا بها إلى مسيرة الإصلاح، تمكيناً للغة وتيسير لجهودهم في مراجعة "النحو" التي لا تتم على وجه علمي دقيق إلا بالنظر في لبناته المكونة لمادته، وهي العناصر والحقائق الصوتية والصرفية.

ولكن الذي حدث ومازال واقعاً حتى الآن أن جهود الإصلاح في مسيرة اللغة لم تهتم بهذين المستويين (الأصوات والصرف) نظراً وتطبيقاً، إلا في النادر اليسير الذي لا يفيد شيئاً يذكر في مجال تجويد البناء (اللغة) وإعداده للسكن وراحة الجميع، العامة والخاصة على حد سواء. وإليك البيان.

في الأصوات:

لا ننكر أن جهوداً نظرية في مجال الأصوات قام بها في البدء أستاذنا الكبير دكتور إبراهيم أنيس رائد الدرس اللغوي الحديث في الوطن العربي. قام الرجل بالنظر فيما ورثنا عن الأجداد في هذا المجال، وحاول تيسيره نظرياً بمنهج جديد في العرض والتحليل، بأسلوب سهل ميسر، كما حاول عقد شيء من المقارنات بين القديم والجديد، مشيراً إلى تجاوزات في عمل الأقدمين، وتجاوزات في نطق المحدثين العرب في العصور الأخيرة.

وجاء من بعده نفر من تلامذته، وساروا على نهج أستاذهم، في محاولة الاهتمام بأصوات العربية، ولكنهم بالغوا في النظر والتحليل، في اعتمادهم على المناهج والتوجيهات الحديثة في الدرس الصوتي. وهي مناهج وتوجيهات عامة ذات أبعاد واسعة شغلتهم عن القيام بمسؤولياتهم الحقيقية، وهي بيان كيفية التخلص من الخلط والاضطراب في أداء العربية صوتياً. ومن هنا ضاعت محاولاتهم أدراج الرياح، وظل المستوى الصوتي بحاله ينتظر اليد الصانع لتشكيل بنيته الصحيحة التي يرجى إقامتها بوصفها مكوناً من اللغة التي نأمل تجويدها وتيسير قواعدها.

ويزيد الأمر إهمالاً وتغافلاً أن الكليات والأقسام المتخصصة في اللغة العربية لم تشأ أن تخصص وقتاً معيناً لتدريس أصوات العربية والتدريب على أدائها إلا في السبعينيات من القرن العشرين. وكان سبق في ذلك لقسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية وقسم علم اللغة بدار العلوم، وحاول المسؤولون هنا وهناك الاستعانة بمعامل الأصوات، بوصفها من خير وسائل التدريب على النطق الصحيح وكيفية أدائها أداء سليماً.

ومرت الأيام، واعوج طريق الدرس الصوتي، حيث ركزت آداب الإسكندرية على التدريب المعلمي الصرف، دون اهتمام كاف بالنظر والتحليل للأصوات وكيفية تشكيلها، في حين انصرفت دار العلوم إلى المبالغة في الدرس النظري، وتغافلت عن التدريب المعلمي، وأهملت بالتدريج الاستعانة بالمعمل، حتى أصبح الآن مجرد تراكم من الأجهزة والأدوات، وصار طلالاً

على طلل.

وهكذا ظلت أصوات العربية تتعى حظها، إذ لم تجد من يناصرها، ويضعها في مواقعها الصحيحة في البناء الكبير المرجو إصلاحه وتيسير حقائقه، وهو اللغة.

في الصرف

النظر في اللغة لتجويدها، أو جعلها مألوفة مأنوسة من أهلها، يقتضي حتما النظر في "الصرف" ومشكلاته، شأنه في ذلك شأن "الأصوات"، إذ هما معاً يشكلان مكونات التراكيب التي يختص "النحو" بمعالجتها.

ومع ذلك نلاحظ أن الصرف قد حرم حرماناً ظاهراً من معالجته والنظر فيه نظراً جديداً، يخلصه من مشكلاته واعوجاج طرائق الدرس فيه. نقول هذا، في حين أن هذا المستوى اللغوي بالذات هو أولى المستويات اللغوية بالعود إليه لمراجعة مادته وتحليلها وتصنيفها واستخلاص قواعدها، إن أردنا تيسير استيعاب مسائله وتعيين مواقعها في البناء اللغوي المتكامل.

معلوم أن علم الصرف الموروث محشو بالتعقيد في مادته وبالصعوبة البالغة في تحليل هذه المادة، وهذا الأمر يوجب على المصلحين النظر فيه نظراً يزيج الغمة ويريح المعلمين والمتعلمين.

تأمل معي مادة علم الصرف الموروث: إنها خليط من المستويات الثلاثة الصرف والأصوات والنحو، وتراكم ثقيل من مسائل هذه المستويات وتداخل بينها بحيث لا تدري حدود أي منها.

من أمثلة الخلط بين الأصوات والصرف مثلاً ما نراه واضحاً في أبواب الإعلال والإدغام والإبدال. إن مادة هذه الأبواب ونحوها مادة صوتية في الأساس، حاول الأجداد في تفسيرها وتحليلها ما حاولوا، حتى يصلوا بها في النهاية إلى ما يمكن نسبته إلى الصرف. وهي في رأينا محاولات عقيمة تحرم المتعلم أو الدارس من الاستيعاب، كما تحرم هذا وذاك من

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الوصول إلى الحقيقة الصرفية المراد بيانها إلا بعد جهد جهيد، بل ربما تختلط عليه الأمور ويخرج خالي الوفاض. وليس مقبولاً عندنا ما يزعمه بعض الدارسين من أن هذا الصنيع الموروث له مسوغ يرشحه للقبول، حيث يرشدنا إلى أصل الكلمة وما صارت إليه بعد في صورة صيغة أو حقيقة صرفية. نقول: هذا احتمال وارد نظرياً، ولكن تفعيله أو تطبيقه يفسد ولا يصلح، كما يشهد بذلك واقع الأمر في علم الصرف الآن المشهور بالتعقيد وصعوبة التحصيل إلى حدّ ينفّر المعلم والمتعلم.

وهناك أيضاً في التراث الصرفي (وما سار على هديه في الحديث) أبواب كثيرة لها نسب قريب وصلة وثيقة بالنحو، أو قل، هي في الأساس مسائل نحوية خالصة، من حيث موقعها ودورها في التراكيب.

من هذه الأبواب الكلام عن العدد (الإفراد والتنثية والجمع) وعن النوع (التذكير والتأنيث) والتذكير والتعريف الخ. ومعلوم أن هذه الأبواب لا تظهر قيمة مادتها إلا في التراكيب، حيث تبين صحة الربط أو فسادها بين مكونات التراكيب، وهذه وظيفة نحوية خالصة.

قد يقال: إنهم عرضوا لهذه الأبواب في علم الصرف بوصف مادتها ضرباً من التمهيد أو مدخلاً لبيان قيمته في التركيب. هذا احتمال وارد، ولكنه بالغوا في عرضها وعاملوها كما لو كانت مستقلة بنفسها، ولم يسيروا في قليل أو كثير إلى هذه القيم على المستوى النحوي. ودليل ذلك أنهم عند كلامهم عن هذه المادة، اكتفوا بعرضها صيغاً ذات مبان شكلية مقسمة بأوصاف التذكير أو التأنيث أو الإفراد والتنثية والجمع الخ، دون أية إشارة إلى وظائفها في الكلام المتصل. وهكذا ظل الخلط واقعاً في معالجة هذه الأبواب وغيرها، وظل الصرف محشواً بمادة معقدة تحتاج إلى تصنيف آخر في الدرس والتحليل ونسبتها إلى المستوى اللغوي الذي تنتمي إليه.

هذا ما صنعه الأجداد ولا لوم عليهم فيما فعلوا، فهذا هو منهجهم في الدرس، وهو منهج ينبغي النظر فيه وتعديل مساره، قصداً إلى التيسير والإصلاح الذي ينادي به الزاعقون

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

والصائحون من صعوبة اللغة.

كان على هؤلاء الزاعقين ومدّعي الحداثة على وجه الخصوص أن يدركوا أن هذه المشكلات الصرفية ونحوها، لها منهج آخر في الدرس والتحليل أدق وأيسر في التعلم والتعلم. هذا المنهج الآخر هو ما رسمته المدراس اللغوية الحديثة في العالم، ويحاول النقات من اللغويين العرب المحدثين تطبيقه - على استحياء - على الصرف العربي الموروث.

يرى هؤلاء وأولئك أن دراسة هذه المشكلات ونحوها تقع في إطار المستويين اللغويين الجديدين، وهما ما يشار إليهما الآن بالتحليل الصوتي - الصرفي morphophonemic analysis والتحليل النحوي - الصرفي morpho-syntactic analysis. وهما فرعان من النظر في دراسة اللغة، يمكن الإفادة منهما في تحليل المسائل المعقدة المتشابكة المبنوثة قسراً في علم الصرف. وعلى الرغم من ذلك لم يلتفت أحد من المنادين بوجود التيسير في قواعد اللغة إلى هذا المنهج الجديد في دراسة اللغة.

تبين لنا من كل ما تقدم أن اللغة العربية (بمعناها القومي المشترك) في وضع لا يعدل أهميتها، وأن أهلها يشكون من صعوبتها، وأن المخلصين منهم يحاولون تمكينها من مواقعها وعقد الألفة بينها وبين أصحابها.

حاول هؤلاء ويحاولون - مشكورين - علاج هذا الوضع للارتقاء بها إلى مكانتها اللائقة، ولكنهم حتى الآن لم يوفقوا في الفوز بأهدافهم. ذلك أنهم في محاولاتهم هذه سلكوا سبلاً معوجة وانتهجوا مناهج متباينة تباين رؤيتهم وتقييمهم لما تنسم به من مشكلات وصعوبات.

اكتفى الكثيرون منهم بالصياح الزاعق والإعلان الغاضب عن جمود اللغة وقصور مادتها عن التعبير عن حاجاتهم وعن التواصل فيما بينهم وحياتهم الحاضرة. وأصرّ النقات منهم على النظر في الأمر، بقصد التيسير والإصلاح، ولكنهم وبالأأسف - أخفقوا في تشخيص الداء، ومن ثم كان تجاوزهم في تقديم الدواء.

لم يدركوا حقيقة الداء، وانصرفوا إلى محاولة علاج الظواهر العارضة التي يسهل إدراكها

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

على العامة والخاصة والتي لا يفيد علاجها في التخلص من الداء الحقيقي، موطن العلة وأساس الغمة. الداء الحقيقي يكمن في غياب اللغة وحرمانها من الاستعمال أو الحوار معها: عزلوها وابتعدوا عنها، ومع ذلك لم يكفوا عن الشكوى منها، بذكر أمثلة سطحية جزئية من صعوباتها.

المفروض توجيه العلاج كله إلى اللغة ذاتها، بدءاً بتمكينها من مواقعها المناسبة، مع محاولة النظر العلمي الدقيق في تيسير قواعدها على المستويات كافة: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، دون فصل بينها. اللغة بناء متكامل ليس من السهل أو المقبول الفصل بين مستوياتها إلا عند الضرورة القصوى. تتمثل هذه الضرورة في حالتين اثنتين.

الأولى: عند النظر في كل مستوى على حدة نظراً علمياً بقصد تعويد مواد هذا المستوى أو ذاك وبيان حدوده وموقعه في البناء الكبير (اللغة).

الثانية: في مرحلة التخصص للعارفين معرفة كافية بالبناء اللغوي كله بمستوياته المختلفة، كما في مرحلة التعليم العالي وفي البحوث العلمية الأكاديمية كالمجستير والدكتوراه.

أما في مراحل التعليم العام، وبخاصة في مرحلتي الابتدائي والإعدادي، فليس من المقبول في رأينا الفصل بين هذه المستويات. المفروض، بل الواجب أن ننصرف في هاتين المرحلتين إلى تقديم اللغة بوصفها بناءً متكاملًا، والعمل على تقريبها وعقد الألفة بينها وبين المتعلمين. ويتحقق ذلك في الأساس بالاعتماد على النصوص المختارة والتعامل معها بحصافة ودقة: يقرأ المعلم العارف الوثائق النص المختار بأداء جهري سليم، ويعود إليه بعدُ لشرح موضوعه ونقاطه الأساسية، ثم ينقلب إلى الدور المهم في العملية كلها، وذلك بإقراء تلاميذه بالتبادل جهراً فيما بينهم، وفي هذه الأثناء، تكون الفرصة للتدريب على أداء اللغة وتصحيح الأخطاء أو التجاوزات، والكشف عما غاب أو اشتبه على الطلاب من حقائق اللغة وقواعدها. وللمعلم في النهاية أن يستخلص ما يرى من قواعدها، ويسجلها كتابة أو يملئها على الدارسين.

وهذه الطريقة العملية كفيلة - بكل تأكيد - باكتساب اللغة وتنميتها وصلفها وجعلها قريبة

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

مألوفة من الجميع. ولربما تزول الشكوى الزاعقة من صعوبتها، وتعتقيد قواعدها. ومن اللافت للنظر أن هذا الصنيع قد تنبه إليه وقام بتطبيقه من قبل أستاذ الأساتذة رائدنا ومعلمنا علي الجارم وزميله مصطفى أمين في كتابهما الموسوم "بالنحو الواضح" للمستويين الابتدائي والثانوي، فلهما الشكر والتقدير، وعلى المخلصين الصادقين أن يحاولوا ويجربوا هذا النهج الطيب خدمة للغتهم ولأنفسهم.

الصحافة والتنمية المعجمية

أ.د. محمود فهمي حجازي

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

أولاً: الإطار العام

هدف هذا البحث بيان أهمية الصحافة العربية منذ بدايتها سنة 1828م ودورها في التنمية المعجمية على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين. إن الصحافة من أهم وسائل الإعلام¹. وهناك مصطلحات أساسية تستخدم للتعبير عن وسائل الاتصال، منها: الوسائل الجماهيرية، وسائل الاتصال الجماهيرية، وسائل الإعلام، وهي مصطلحات جديدة نسبياً في اللغات المعاصرة، وترجع إلى القرن العشرين، وتشترك هذه المصطلحات في الدلالة على الإذاعة المسموعة والتلفزة والصحف ذات الانتشار الواسع، وهناك من يجعلها تضم أيضاً الكتاب والسينما. وهذه الوسائل المتعددة لها - أيضاً - سماتها اللغوية المختلفة، وقضاياها المعاصرة وأهميتها في الأداء اللغوي. موضوعنا هنا يقتصر على الصحافة بكل أنواعها وتاريخها، ومنها الصحافة اليومية والأسبوعية والمجلات الأدبية والعلمية والدوريات ذات الأهداف التعليمية. أما وسائل الإعلام الأخرى فإنها لا تدخل في هذا البحث، وهي جديرة بدراسات كثيرة.

إن أهمية وسائل الإعلام ترجع في المقام الأول إلى مخاطبة الجماهير، ولها من هذا الجانب دورها الحاسم في الاستخدام اللغوي المعاصر. لقد زاد عدد المتلقين لوسائل الإعلام

¹ انظر حول المفاهيم الأساسية في الإعلام والدراسات الثقافية: O'Sullivan T., Key Concepts in

Communication and cultural Studies London and New York 1994

صابات، خليل: وسائل الإعلام، القاهرة 1990م.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

المطبوعة زيادة غير مسبوقه. كانت البدايات بعدد محدود من النسخ. بدأت الوقائع الرسمية وما يماثلها من الصحف العربية الرسمية بمئات النسخ. ولكننا اليوم نعرف صحفاً يومية كبرى، يصل عدد النسخ اليومية من الصحيفة الواحدة إلى مليون نسخة، ولا يمكن اليوم توقع تحول قريب في إطار عصر التقنيات. لقد كان دور الصحافة العربية في المئة والخمسين عاماً الماضية، أي منذ 1860م - على وجه الخصوص - كبيراً وحاسماً وموازياً لأهمية الكتاب المدرسي في المصطلحات وألفاظ الحضارة الحديثة. إن الصحافة كانت منذ البداية مهمة في التنمية المعجمية أو تنمية اللغة بمكونات معجمية جديدة، أي بكلمات جديدة في الشكل والدلالة، أو إعطاء كلمات موروثه دلالة جديدة، أو بتكوين تراكيب جديدة يدل كل منها على مفهوم محدود. وكان للصحافة دور كبير وحاسم في تكوين آلاف من الكلمات والتراكيب التي أصبحت من الرصيد الأساسي للعربية في العصر الحديث. هذه الكلمات والتراكيب بعضها من أصول تراثية وبعضها من الكلمات الجديدة وبعضها من الدخيل، وللصحافة دور كبير في نشرها، إلى جانب وضع عدد منها لمفاهيم جديدة.

المنطلق الفكري لهذا البحث يقوم على ما يأتي:

أ. لغة الصحافة من أهم أشكال الأداء في اللغات المعاصرة، نجد أهميتها واضحة في تاريخ اللغات الحية الحديثة من القرن السابع عشر حتى الآن، ولها دورها في تنميتها، وفي هذا السياق فإن الصحافة العربية قطاع مهم من اللغة العربية في العصر الحديث. كانت البداية بإصدار "الوقائع المصرية" بالقاهرة 1828م وتبعتها بعد عشرين عاماً "المبشر" في الجزائر 1848م ثم ظهرت في عشر سنوات ثلاث صحف فقط. ولكن الطفرة الحقيقية للصحافة العربية كانت بعد سنة 1860م، وصدر نحو مئة صحيفة ومجلة جديدة حتى 1900م، ثم مئة أخرى حتى عام 1919م، وتضاعف العدد عدة مرات بعد ذلك.

ب. اللغة العربية حية ومستمرة وليست لغة مرحلة تاريخية منتهية، وليست لغة مقصورة على بعض الشرائع الدينية وعلى قراءة التراث القديم. هي اللغة القومية للعرب المعاصرين،

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

ومن واجبنا الاهتمام بها بحثاً وصفاً وتنميةً وتعليماً.

ج. نتناول الدراسات في لغة الصحافة كل الجوانب الصرفية والدلالية والنحوية التركيبية والمستويات اللغوية والأسلوبية والاتصالية وغير ذلك، مما يكشف أبعاد الواقع بطريقة علمية، وليس بطريقة البحث عن الأخطاء. والجانب المعجمي أحد هذه الجوانب. دور الصحافة يتكامل في مجال المصطلحات وألفاظ الحضارة مع لغة الإدارة والتعليم، والبحث المعجمي التاريخي الشامل من شأنه جمع المادة من كل هذه الوثائق والمطبوعات.

د. البحث العلمي في لغة الصحافة من شأنه الإفادة من نظرية الاتصال، وذلك بمراعاة كل أركان عملية الاتصال (المصدر - الرسالة - الناقل - الإشارة - الإشارة المستقبلية - المستقبل - الرسالة - نقطة الوصول)، ويبحث أيضاً لغة الصحافة من حيث تأثيرها في المتلقين ومدى تحقق رد الفعل المنشود. وتطبيق هذا في المجال اللغوي ممكن ومهم، وذلك لبحث مدى تقبل جمهور المتلقين للوحدات والأنماط التركيبية.

هـ. الصحف والمجلات العربية في مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة العربية والسودان وبلدان المغرب العربي كثيرة، ولها تاريخها في اسطنبول وفي باريس ولندن والمهجر الأمريكي ومناطق أخرى، ودورها كبير في نشر المصطلحات وألفاظ الحضارة. وهذه الدوريات لها اتجاهات متعددة ومصطلحات متنوعة وتوجهات شتى، وفي كل الحالات لها مكوناتها المعجمية. ويقتصر هذا البحث على بيان الاتجاهات العامة لدور الصحافة في التنمية المعجمية.

و. إن البحث في لغة الإعلام على مستوى اللغات الكبرى فيه قضايا واتجاهات شتى. هناك بحوث في الصحافة من حيث تاريخها وأنواع الكتابات فيها ومسائل تحريرها وغير ذلك، ومنها ما يتناول الأشكال ومنها ما يبحث المضمون ومنها ما يربطهما ومنها ما يقيس مدى فهم المتلقين وأثر الرسالة الإعلامية. أما الجوانب اللغوية في هذه البحوث فتتناول مستويات اللغة وعلاقة المكونات اللغوية وغير اللغوية، ووظائف النصوص وتحليل الحوار وتحليل الأخبار، والشفاهية والتدوين، والفروق المعجمية في صحافة بلدان اللغة، والتحليل اللغوي

للموضوعات الاقتصادية وللموضوعات الرياضية وغيرها. وقد بدأت دراسة العربية في الإعلام بشكل محدود جداً، وتناولت موضوعات صرفية ونحوية بشكل جاد، ولكن ثمة مقاومة لها ممن يعرضون عن دراسة الواقع اللغوي المعاصر. ومن هنا أهمية هذا الموضوع في إطار المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة¹.

ثانياً: متطلبات جديدة

1. ارتبط تاريخ عدد كبير من الصحف والمجلات العربية بأسماء مفكرين كانوا مهتمين بتنمية اللغة العربية للوفاء بمتطلبات الحياة الحديثة والتقدم العلمي. تولى رفاعه الطهطاوي - وبعد عدة سنوات - محمد عبده تحرير الوقائع الرسمية، وارتبطت "الجنان" 1870م باسم بطرس البستاني، والجوائب 1860م في اسطنبول باسم أحمد فارس الشدياق، والمقتطف 1876م في بيروت والقاهرة باسمي يعقوب صروف وفارس نمر، والأهرام 1876م في الإسكندرية ثم في القاهرة باسمي سليم تقلا وبشار تقلا، والأستاذ 1892م في القاهرة باسم عبد الله النديم، والهلal 1892م بالقاهرة باسم جرجي زيدان، والمنار 1898م في القاهرة باسم محمد رشيد رضا، والمقتبس 1908م في دمشق باسم محمد كرد علي، وهؤلاء الكتاب كانوا على وعي بالقضية اللغوية ويمارسون الكتابة. كانت أكثر الصحف والمجلات قبل نهاية الحرب العالمية الأولى تصدر في مصر ولبنان وسورية، وقليل منها في تونس والمغرب والجزائر والعراق وفلسطين. وفي تلك السنوات ظهرت صحف ومجلات عربية في استانبول وباريس ولندن ونيويورك ومكسيكو وريودي جانيرو وسان باولو وبيونس أيرس. وقد تغير الموقف بإصدار عدد كبير من الصحف والمجلات في الدول العربية المستقلة، وزادت الصحف والمجلات في دول الخليج بعد استقلالها، وظهرت الصحافة العربية العابرة للحدود من لندن، وقلت أهمية مواقع أخرى في الخارج.

¹ انظر عن لغة وسائل الاتصال: Burger, H., Sprache der Massenmedien, Berlin, 1990. وفي البليوجرافية نحو منتي عنوان بلغات أوربية لدراسات في لغة الإعلام وما يتصل بها.

2. "الوقائع المصرية" أقدم الدوريات العربية في العصر الحديث، صدرت في القاهرة (1828م). اهتمت الوقائع المصرية - إلى جانب القوانين والنظم الداخلية - بما يجري في العالم، ومن هنا دخلت الموضوعات والاتجاهات السياسية. وكان لهذه المقالات دور المحاولة في وضع مقابلات عربية أو معربة للتعبير عن مفاهيم الفكر السياسي ونظام الدولة. تضمن العدد (623) من الوقائع المصرية (غرة ربيع الآخر 1258هـ) مقالاً بمناسبة حوادث في البرتغال تضمن معلومات عن الشرطية، وهذا المصطلح استخدمه رفاة الطهطاوي في تخلص الإبريز تعريباً للمصطلح الفرنسي La Charte، وظل يدل في الكتابات العربية آنذاك على الميثاق الدستوري¹. وهنا نجد أيضاً مصطلحات جديدة حول السلطات العامة: "قوة الحكومة مكونة من أربع قوات، الأولى: القوة التشريعية (أي ترتيب القوانين وتبديل الأحكام)، والثانية: القوة الإجرائية (أي قوة تنفيذ الأحكام وإمضاءها)، والثالثة القوة الشرعية (أي ما يتعلق بالمحاكم من الأفضية والأحكام والدعاوى والبيانات)، والرابعة: القوة التلطيفية (أي تقليد المناصب). فكرة فصل السلطات كانت جديدة إلى حد ما. كانت الوقائع الرسمية تصدر بعدد محدود، وكان عدد القراء محدوداً أيضاً، ولهذا فإن اقتراحاتها في المصطلحات كانت محدودة الأثر. في الوقائع الرسمية نجد استخدام مصطلح (قوة) ترجمة مباشرة للمصطلح الفرنسي Puissance للتعبير عن السلطة. عبارة القوة التشريعية هو ما يسمى اليوم السلطة التشريعية، أما مصطلح القوة الإجرائية فقد حل محله مصطلح السلطة التنفيذية، وأما مصطلح السلطة الشرعية فقد حل محله بعد ذلك في أكثر الدول العربية مصطلح السلطة القضائية. كلمة البوليتيكا التي دخلت من

¹ كلمة La Charte في الفرنسية وما يقابلها في اللغات الأوربية يرجع إلى اللاتينية Charta بمعنى ورقة، وقد استخدمت في فرنسا منذ 1814 علماً على ما صدر في عهد لويس الثامن عشر، واستخدمت اختصاراً للدلالة على الميثاق الدستوري. انظر ذلك المدخل في LE MAXLIDICO والطهطاوي، تخلص الإبريز ص 229؛ وفي: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، لكاتب هذا البحث، القاهرة 1975م.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الإيطالية¹ Politica، حلت محلها بعد ذلك على المستوى الرسمي كلمة عربية تراثية وهي: سياسة، وهنا نجد إحياء مصطلح عربي تراثي. جاء في الوقائع الرسمية: "والآن يتساعلون عن أحوال الدول داخلية أو خارجية من جهة إدارتها وسياستها، وما فيها من التولية والعزل ونحو ذلك. وهذا ما يسمى بالبوليتيكا، والمتكلم في شأن ذلك يقال له بوليتيقي. فما كان بين الدول والممل يقال له بوليتيكا خارجية وما كان في دولة واحدة مما يتعلق بانتظامها وتديرها يقال له بوليتيكا داخلية. والغالب أن الغازيات والوقائع هي التي تتكلم عن كل من البوليتيكا الداخلية والخارجية". ومصطلح البوليتيكا ظل يتداول في الصحافة العربية أكثر من نصف قرن، ثم أخذ مصطلح السياسة يحل محله. أما الغازيات² فهو مصطلح استخدم أيضاً في تخلص الإبريز للطهطاوي واستخدم في الصحافة العربية، وظل متداولاً أيضاً إلى أن حلت محله من خلال الصحف والمجلات أيضاً كلمتان عربيتان هما "صحيفة" و"جريدة"، وأصبحتا مصطلحين متداولين في الصحافة العربية كلها.

تضمنت الوقائع الرسمية أيضاً أنواع الحكومات: "الحكومة مقسمة أربعة أقسام: ديمقراطية وأرستقراطية ومونارخية ومختلطة أي مركبة. الحكومة ديمقراطية يعني جمهورية أهلية. وإذا كان الحكم صادراً من عدة حكام في الملة، مستخرجين من أكابرها وصدورها فالحكومة أرستقراطية، أي صادرة عن أشرف البلاد وكبرائها. وهي أيضاً نوع من الجمهورية. وإذا كان الحكم في يد واحد فقط فالحكومة مونارخية أي واحدة الحاكم: ملوكية كانت أو سلطانية. وحكم الملك أو السلطان إما أن يكون مقيداً أو مطلق التصرف، فالمقيد هو أن يكون الملك لا يحكم إلا بقوانين المملكة. "إن عدداً من المصطلحات الواردة هنا وافدة وإن كانت بعض هذه المفاهيم يمكن أن نجد لها أصولاً عربية. أما كلمة جمهورية فهي عربية، كلمة جمهور مع

¹ كلمة Politica في الإيطالية، وما يقابلها في اللغات الأوربية يرجع إلى اليونانية في إطار الفكر لإدارة المدينة الدولة، انظر: Ernest Weekley, An Etymoloical Dictionary p. 1118.

² كلمة Gazette في الفرنسية وgazzetta في الإيطالية، المرجع السابق p.629، وكانت أول ظهورها في البندقية نحو سنة 1550م. أما في بريطانيا فقد صدرت نشرة إخبارية بهذا الاسم في أكسفورد سنة 1665م.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

زيادة نهاية المصدر الصناعي، وفي هذا الصدد استقرت في الاستخدام العربي بعد ذلك الكلمات ديمقراطية وارشتراطية وجمهورية، أما كلمة مونارخية¹ فلم تستقر وحلت محلها كلمة ملكية.

3. مجلة "الجوائب" التي بدأت في 1860م ورئيس تحريرها أحمد فارس الشدياق (- 1888 1804)، صدرت باللغة العربية في عاصمة الدولة العثمانية استانبول²، وهذه المجلة كانت قريبة من الإدارة، إلى جانب تقديمها معلومات عن الحوادث والتكنولوجيا الجديدة. وتتضح أهميتها في استقرار عدد من المصطلحات السياسية والإدارية والعلمية والتقنية.

ويتضح دور الجوائب في استقرار مصطلحات إدارية كثيرة، وبعضها مستخدم حتى اليوم في الاستخدام العربي المعاصر: محكمة، مأمور، معاهدة، اتفاق، متقاعد، سهم، قرض، بلدية، ضابط، وكذلك التراكيب: خزينة الدولة، تحصيل الضرائب (292/7)، أمانة المدينة (293/7)، إعلان رسمي (263/7)، خدمة عسكرية (295/7).

كما نجد في الجوائب وظائف عامة وألقاباً كثيرة عسكرية ومدنية، مثل: مُشير، فريق، سفير، وكذلك إمبراطور³، لورد Lord، لائحة، قانون أساسي، ورئيس وزراء، وهذه كلمات تكررت في الصحافة العربية واستقرت في الاستخدام العربي الحديث.

في الجوائب نجد بعض المشكلات في بعض الكلمات، مثل تلك الثنائية في أسماء الشهور الميلادية: تموز/جوليه، تشرين الثاني/نوفمبر (266/7)، آيار/مايو (290/7)، آب/أغسطس (295/7). كما نجد ثنائية بين كلمة أوربية وكلمة مألوفة في الدولة العثمانية: بوليس⁴/ضبطية

¹ كلمة مونارخية monarchie في الفرنسية و monarchy في الإنجليزية من اليونانية monos فرد، واحد و arxein بمعنى حكم، انظر: p.944 weekley.

² منها سبعة مجلدات طبعت بعنوان: كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، جمعها سليم فارس، الآستانة 1295هـ.

³ كلمة imperator في اللاتينية، ومنها الفرنسية empereur، وكانت عند الرومان. انظر Weekley p.506.

⁴ بوليس Police في الفرنسية بمعنى الإدارة المدنية، ثم تحولت إلى معنى الشرطة في بداية القرن التاسع عشر في أوروبا، انظر: المرجع السابق p.1118.

(7/258)، كوبون¹/بطاقة (290/7).

أسماء الدول والأماكن والشهور في الجوائب استقر كثير منها في الاستخدام العربي الحديث منها، ألمانيا، فرنسا، بريطانيا العظمى وإيطاليا، أسبانيا، رومانيا، بوسنة وهرسك (50/7). ولكن بعضها لم يعد مستخدماً، مثل أوستريا (حالياً النمسا). أما تدوين بعض الأسماء ففيه خلاف: هنكاري، (حالياً: هنغاريا) = المجر، أغسطس، (حالياً: أغسطس، أوت)، الأناتول، (حالياً: الأناضول)، كريد، (حالياً: كريت) (28/7). بعض الكلمات الواردة في الجوائب مأخوذة من وثائق رسمية كانت مستخدمة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، ولكنها بادت ولم تعد مستخدمة، منها الكلمة الإيطالية دكريتو² (219/7)، والكلمة الفرنسية كولونل³ (267/7) colonel، وكلتاها لهما نظائر أوربية قريبة.

4. "روضة المدارس" مجلة أصدرها ديوان المدارس المصرية سنة 1870م لتوزع على المدارس وعلى الأعيان ووجوه المجتمع، كانت اهتماماتها التعليمية والثقافية بعيدة عن السياسة والمجتمع، وقدمت فصولاً منجمة من كتب التاريخ والجغرافيا وعلم الفلك وعلم الصحة والمساحة والفقه والطبيعة والمصريات والطب والكيمياء والميكانيكا، إلى جانب قطع أدبية ومقالات وصفية. ومن هنا يقترب محتوى روضة المدارس إلى حد بعيد من الكتب المدرسية وشبه المدرسية. هذه الدورية "حاولت أن تكون" بألفاظ فصيحة غير حوشية... وهدفها أن تتكشف للعامة مخدرات العلوم" (ص 45)، أي خفايا العلوم وأسرارها.

تضمنت روضة المدارس أيضاً موضوعات ثقافية، منها مثلاً ما يتصل بدار الكتب التي

¹ كوبون coupon في الفرنسية بمعنى ورقة صغيرة مُنْتَزَعَة، ومنها كلمة إنجليزية ماثلة، p. 372.

² دكريتو، من الإيطالية decreto، ومثلها في الفرنسية decret، وترجمتها العربية: مرسوم، انظر: p. 423.

³ كولونل، من الإنجليزية ولغات أوربية أخرى colonel وأصلها coronel بمعنى أمر الفرقة من الجند، انظر: p. 332.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

أسست أيضاً في عام 1870م، وهنا نجد مصطلحاً مركباً، وهو "دار الكتب" (ص7). كان الطهطاوي في تخلص الإبريز قد عبر عن هذا المفهوم بكلمة خزانة، ولكننا أمام مصطلح جديد استقر شيئاً فشيئاً في أكثر البلدان العربية بدلاً من استخدام المصطلح المنافس كتابخانة أو كتبخانة (11 في 15 جمادى الآخرة 87، ص) وهو مصطلح مركب من كتاب أو كتب في العربية وخانة بمعنى مكان في اللغات التركية، والمصطلح المركب متداول هكذا في اللغات التركية. التسمية الأولى دار الكتب كانت في مقالة كتبها سعادة مدير ديوان عموم المدارس والتسمية الثانية كانت في بيان رسمي يعلن افتتاح "الكتبخانة المصرية". وقد أثبت تاريخ هذه المؤسسة استقرار المصطلح الأول في الدوريات، وذكر أيضاً في فهرس محتويات العدد نفسه (انظر ص 2، قارن السطر الخامس، ثم الإعلان).

كان لروضة المدارس دورها إلى جانب الكتب المدرسية في استخدام المصطلحات العلمية الأساسية في الفصحى المعاصرة، ومنها: تقطير (60)، حوامض (540)، زئبق (514)، وبعض المصطلحات المركبة، مثل: غاز الاستصباح (600)، الفحم الحجري (600) حالة الصلابة (547)، أكاسيد قاعدية (540)، أول أكسيد الكربون (600)، كبريتور الكربون (600).

أما ألفاظ الحضارة فنجدتها في عدد من المقالات، منها ما هو مأخوذ عن لغات أخرى. في مقال للتعريف بالإسكندرية أن بها "مجتمع التجار المسمى بالبورصة"¹ (762) وهذه كلمة أوربية استقرت في العربية، وتكون إلى جانبها تعبير آخر: سوق الأوراق المالية. ونلاحظ في مجال

¹ كلمة La Bourse في الفرنسية، die Borse في الألمانية تذكرها الدراسات المتخصصة مأخوذة من اسم أسرة تجار هولنديين van der Burse. انظر: Le Maxidico, Fluck, H., Fachsprachen, Tübingen 1991, s. 60; Paris 1996, p. 143 وقد دخلت الكلمة العربية من الصيغة الإيطالية borse وهناك في فرنسا من يجعلها فرنسية الأصل، من الكلمة الدالة على كيس النقود purse، أما المراجع الفرنسية المتخصصة فتذكر تاريخ الكلمة وتاريخ الأسرة الهولندية الغنية التي خصصت أحد بيوتها ليكون ملتقى للتجار فأطلق عليها اسمها، ودخلت الكلمة الفرنسية سنة 1549م. انظر: Le Maxidico, 143 Baumgartner, E. Dictionaire .etymologique et historique de la langue française, Paris 1906. p.101

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

فن التمثيل كلمة التشخيص والمشخصين (762). وقد استمر استخدام الكلمتين نحو نصف قرن، إلى أن حلت محلها شيئاً فشيئاً كلمة التمثيل وكلمة الممثلين. وكان للصحافة العربية دور في كل هذه الكلمات.

5. كانت **مجلة المقتطف** (1876 - 1952) أهم دورية ثقافية علمية باللغة العربية في بداية النهضة، صدرت من بيروت ثم من القاهرة، وكان لها آلاف القراء في كل البلاد العربية. اهتم كُتَّاب المقتطف بتقريب العلم في أسسه وأحدث بحوثه بمصطلح علمي واضح وأسلوب عربي دقيق. ومن هنا كان دور المقتطف كبيراً في نشر مصطلحات كثيرة جديدة تتجاوز ما كان متاحاً في الكتب المدرسية الجديدة للعلوم. تضمنت مجلة المقتطف مصطلحات عربية كثيرة في مجالات شتى. كُتِّبوا من أصحاب الثقافة العلمية الحديثة والمعرفة بلغة أوربية أو أكثر. تابعوا الجديد في المطبوعات الأوربية المعاصرة لهم وعبروا عنه بالعربية. وهذا واضح في حالات كثيرة في ضيق الفجوة الزمنية بين ما كان قد نشر بالإنجليزية من جانب، وترجمته المطبوعة بالعربية من جانب آخر. تابع المقتطف عمل مجمع تقدم العلوم البريطاني عاماً بعد عام ونشر تقارير المجمع السنوية.

تناولت الموضوعات التي اهتم بها محررو المقتطف مجالات العلم والفلسفة، والعلوم الهندسية، وبناء المادة، بناء الأرض وشكلها، ومذهب داروين، والمجرات، والسماء والأرض، وظواهر الجو وأحواله، والإشعاع، وغزو الذرة، والغدد والحياة، وعقل الإنسان، والفضاء بين النجوم، وسر طاقة الشمس، وعلم الصوت، وضوء النهار، وأسرار اللون، وأشعة الشمس، وأسرار الخلايا، والصفات البيولوجية لإنسان المستقبل، والعلم والأمراض العقلية. ويتضح من تنوع هذه الموضوعات وتكاملها دور المقتطف في تقديم المادة والمصطلحات العربية. وقد حددت هذه الكتابات - كما يتضح من الموضوعات - مفهوماً للعلم يجعله يكاد أن يكون مقصوراً على العلوم الطبيعية وعلى أثرها في التخصصات الأخرى. وهو مفهوم مختلف عن المأثور قبيل عصر النهضة العربية الحديثة عندما تصوروا العلم مقصوراً على علوم الدين، ويختلف أيضاً عن مفهوم العلم كما شرحه الطهطاوي في تخليص الإبريز، فقد جعله شاملاً

لكل مجالات المعرفة.

ونقرأ بالعربية في المقتطف بلغة عربية واضحة عن الزمن، والزلازل، وباطن الأرض، والحركة الطولية والحركة السطحية، وسطح الدماغ، وأبعاد النجوم، وسرعة الضوء، والثابت الشمسي، وإرشاد السفن، وضغط الدم، والأشعة الكونية، والتحول الفجائي، وعوامل الوراثة، والنظير، والإشعاع، والنشاط الإشعاعي. وكلها مصطلحات عربية لا تثير عند القارئ شعوراً بالغربة، وكأنها من تاريخنا اللغوي العلمي. كان دور المقتطف هنا كبيراً في تقريب العلم بمصطلحات واضحة، لقد نقل هذه المفاهيم الجديدة بكلمات عربية سليمة.

6. "الأهرام" صدر عددها الأول في 5 أغسطس 1976م وفيه مجموعة مصطلحات في مجال الإعلام مستخدمة حتى اليوم (2010)، منها: نُسخة، مطبعة، جريدة، عدد، اشتراك، مشترك، إعلانات، جمهور. واستمرار هذه الكلمات بهذه الدلالات الجديدة، في عصر الطباعة وحتى اليوم، يرجع إلى استخدامها في الصحافة. أما كلمة جرنال فكانت في السياق الأجنبي: الجرنال الرسمي الفرنسي، وكأنها اسم علم وليست دالة على هذه النوع من الدوريات. المصطلحات وألفاظ الحضارة التي يضمها العدد الأول كثيرة، منها تمدن، رئيس الجمهورية، مجلس نواب الأمة، سفير، أعضاء مجلس الوكلاء، سياسة، مأمورية، ومنها كلمات دخيلة: قنصل¹، مرشال = مارشال². ومنها أسماء أماكن: الجبل الأسود، الهرسك، روسيا، فرنسا. بعض الكلمات طرأ عليها تغير تصريفي، لم يعد أحد يجمع صفحة على صفائح بل الجمع صفحات. كلمة لائحة مستخدمة بمعنى قائمة، كما في "لائحة المشتركين". وكلمة مملكة والجمع ممالك لم تكن محددة الدلالة كما هي اليوم، بل كانت تدل على وحدة إدارية كبيرة، وعلى سبيل المثال كان في داخل الدولة العثمانية: "سورية وسائر

¹ قنصل في الفرنسية Consul والإنجليزية Consul وللکلمة تاريخ طويل منذ عهد الدولة الرومانية، ثم منذ القرن السادس عشر عندما كان القنصل يمثل التجار المستقرين في دولة أجنبية، انظر: Weekley, p.353.

² مارشال في الفرنسية Maréchal والإنجليزية Marchal رتبة عسكرية رفيعة عالية. كانت دلالتها القديمة: راعي الخيل، ثم ارتقت دلالتها، انظر: Weekley, p.899.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الممالك المحروسة". بعض أسماء الأماكن والدول حدث لها تغير في كيفية التدوين بالحروف العربية، في العدد الأول من الأهرام نجد: باريز بالزاي اعتماداً على صيغة الصفة والنسب Parisien وليس بالسين، السرب بالسين وليس بالصاد، بطرس برج St. Petersburg، Petersburg وليس بطرسبورج، وبعضها بصيغة قريبة من الفرنسية: لندرة Londres وليس لندن، إنكلترا والإنكليزي بالكاف وليس بالجيم، ومن التغيرات الدلالية منذ ذلك الوقت: عمارة بمعنى مجموعة سفن أو قافلة بحرية.

الكلمات الدخيلة في هذا العدد بعضها أصبح له بديل عربي مستقر ومتداول: بوسنة¹ Posta والبديل بريد، أبوكاتو² حل محلها محامي، فابور Vapeur حلت محلها سفينة بخارية أو باخرة. أما الألقاب الموروثة والمكتسبة فهي كثيرة: أمير (للشركيين)، برنس (للأوربيين) Prince، ملك، ملكة، إمبراطور imperator، الدوك Duce كذا بالكاف وليس بالقاف. إن التاريخ المعجمي للأهرام جزء من تاريخ معجمنا العربي الحديث. وفي كل الحالات فإن أثر الأهرام واضح في نشر كلمات كثيرة للملايين من القراء للتعبير عن الحياة الحديثة.

7. مجلة الأستاذ صدر عددها الأول في عام 1892 كان لها دور كبير على مدى سنوات ما بعد الحركة العُرابية في مصر. ونظراً لمكانة صاحبها عبد الله النديم ولدوره في تلك الحوادث فقد كان لها قبول كبير. أهم المصطلحات التي نجدها في أعداد مجلة الأستاذ تتصل بمصطلح "الوطن" و"الوطنية" و"الحياة والوطنية" و"الموطن" و"الجامعة الوطنية" بمعنى الوحدة الوطنية. وهذه المصطلحات استقرت من خلال الكتابات الصحفية العربية وأصبحت من الرصيد الأساسي في الفصحى المعاصرة. وهناك مجموعة من المصطلحات الأساسية في مجلة الأستاذ تتضمن مفاهيم مجتمعية: المدنية، التربية، تربية الأبناء (202)،

¹ بوسنة في الإيطالية Posta، ومثلها في الفرنسية Poste والإنجليزية Post، وكانت دالة منذ سنة 1500م في أوروبا على محطات البريد باستخدام الخيل والركبان لنقل الرسائل الملكية، انظر: Weekly, p. 1129.

² أبوكاتو، في الإيطالية avvocato من اللاتينية advocatus.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الجمعيات الخيرية (208)، الجمعيات الدينية (345)، الرأي العام (289)، القوانين الوضعية (339)، حرية الكتاب (347)، تربية الأمم (351). وتوجد مجموعة ثالثة من المصطلحات في مجلة الأستاذ في إطار وعي واضح بالوظيفة الاجتماعية للغة، وهنا نجد "اللغات المتداولة" (169)، اللغة العربية الشريفة (169)، اللغة المحلية (179)، اللغة الدارجة (467)، وأكثر هذه المصطلحات أصبح رصيذاً مهماً في الفصحى الحديثة. وهكذا كان دور عبد الله النديم ومجلة الأستاذ واضحاً في عدد من المفاهيم والمصطلحات.

وعلى الرغم من وجود كلمات دخيلة محدودة في مجلة الأستاذ فإن النديم تجنب استخدام كلمة جرنال وكتب عن الجريدة والجرائد (387)، وتجنب كلمة بوليتيكا واستخدم كلمة سياسة. ويتضح التوازي بين الكلمة الدخيلة والمقابل العربي في كتاباته عن التمثيل العربي وعن التياتر (501). وفي تلك الحقبة كانت كلمة التمثيل للدلالة على ذلك الفن الوافد تعبر عن مفهوم جديد. الكلمات الدخيلة: جرنال، بوليتيكا، تياتر كانت معروفة، ولكن نشر الكلمات العربية المقابلة ارتبط باستخدامها في الصحافة.

8. مجلة الهلال من أقدم المجلات الثقافية العربية (1892 -)، وكان لها دور مهم في تنمية الوعي بالحضارة العربية الإسلامية والحضارة الحديثة. استخدم كتاب الهلال لغة فصيحة سهلة تتسم بالبساطة وتقرب المعاني البعيدة، فكان لها دور في تقديم مصطلحات علمية وألفاظ حضارية كثيرة. تجنب كتاب الهلال - وفي مقدمتهم جرجي زيدان - (1914 - 1861) استخدام الألفاظ الدخيلة بقدر الإمكان، تجنب كلمة جورنال، وجرنالات، وكتب عن الجريدة والجرائد (9)، استخدم كلمة سياسة بدلاً من البوليتيكا (10)، وحاول إيجاد المقابل العربي بدلاً من الاصطلاح الأجنبي، كتب عن الحبور الصحية (بدلاً من الكورننيتيات)¹

¹ الكلمة الإيطالية quarantine والكلمة الفرنسية quarantaine والإنجليزية quarantine بمعنى الأربعين يوماً، وكانت من الناحية النظرية مدة إبعاد القادمين من الخارج عن دخول البلاد منعاً للعدوى Baumgartner, p. 655. Weekley, p. 1181

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

(222)، ومثل ذلك مركبات هوائية (بدلاً من بالون، ص 25). كانت الهلال تتابع الملتقيات العالمية، وهنا استقرت كلمة "مؤتمر" وكلمة "معرض". كتب عن المؤتمر الجغرافي الدولي (23)، وكذلك عن معرض شيكاغو (ص 25). ومن أهم الكلمات العربية المتداولة في مجلة الهلال: التمدن، المدنية، النهضة، الوطن، التقدم، التعليل، الآراء، الفروض، الإصلاح، المجالات، الحرية.

9. كان للصحافة الأدبية في بداية القرن العشرين دور كبير في نشر بعض المصطلحات الدالة على الجديد في الفنون والعلوم. لقد استخدمت مجلة الزهور (1910 - 1914) عدة مصطلحات مسرحية جديدة. كان رفاة الطهطاوي (1801 - 1873) قد عرف التياتر theatre والجمع تياترات وكتب أيضاً عن اللعبة واللاعبين، وعرف آخر القرن التاسع عشر كلمات مثل تياترو teatro من الإيطالية، ولكن الموقف بدأ في التغير مع أوائل القرن العشرين. كتبت الزهور مستخدمة كلمات جديدة، من ذلك كلمة مسرح، يعني البيت المسرحي: بلغ دخل المَرَسَح في الليلة الأولى (70، 1910/10)، وظلت هذه الكلمة مَرَسَح بهذه الصيغة - وكذلك مع القلب المكاني: مَرَسَح/مسرح - متداولة في المجالات الأدبية، إلى أن أصبحت كلمة مسرح من الرصيد الأساسي للفصحى في العصر الحديث. وفي هذا المجال الجديد نجد دور الصحافة واضحاً في نشر كلمات، مثل: التمثيل (70/1910/10) عَقْدَة (72/1910/1) وكذلك الستارات (69/1910/1)، المشهد (68/1910/1)، ودور (176/1910/4). بعض الكلمات استخدمت عدة أجيال، ثم قل استخدامها لذلك المعنى بعد ذلك، من ذلك تسمية المسرحية باسم "الرواية" التي كانت تمثل على "ملعب" (68/1910/1). لقد استخدمت كلمتا رواية وملعب في تلك السنوات، وكثيراً ما كان الوصف موضعاً للمعنى، كتبوا عن "روايات تمثيلية" وعن "الممثلين" وعن "رواية كبيرة تمثل على الأوبرا الخديوية" (176/1910/4)، كما كتبوا عن تأليف الروايات التمثيلية للملاعب العربية (438/1910/10)، وعن شكري غانم (1861 - 1929) ذلك الكاتب المسرحي العربي الذي ألف بالفرنسية "رواية عنتر التي مثلت في ملعب إمارة مونت كارلو Monte Carlo

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وملعب الأديون¹ (49/1910/1). Odéon. كلمة ملعب تدل هنا على خشبة المسرح، وهذا الاستخدام لم يستقر، وأصبحت كلمة مَلْعَب خاصة بمكان الألعاب الرياضية.

استقرت مصطلحات وألفاظ حضارية كثيرة في المجالات الثقافية والحضارية من خلال استخدامها المتكرر منذ بدايات القرن العشرين. وفي مقدمة هذه الكلمات: تمدن (171)، كانت الإشارة إلى تمدن عصر سقراط وتمدن باني الأهرام وتمدن عصر العباسيين (171)، الشعوب المتمدنة (419/1910/10)، وأمة متمدنة (23/1910/1)، وكذلك: الترقى، المطابع، المجالات، الصحف والجرائد، المقالات، النهضة، المتحف (461)، مكتبة (461)، الوطنيين (= أبناء البلاد -462)، البرلمان (471)، التصويت (473)، حزب معارض (129)، المنتدى (182). كان مفهوم المشاركة في الأعمال الاجتماعية من خلال العمل التطوعي غير الحكومي جديداً في تلك السنوات وهو نظام مختلف عن الأوقاف الخيرية الفردية، ولهذا بدأ استقرار كلمة "جمعية"، مثل جمعية الصليب الأحمر أو جمعية الهلال الأحمر، وجمعية دولية (الزهور 417/1910/10).

لقد استقرت دلالات كلمات كثيرة من خلال استخدامها في الدوريات الثقافية. ومن ذلك كلمة: نقد، نقد القواعد، النقد الأوربي، وكلمة قصة، قصة واقعية، قصة بوليسية، قصة تاريخية، قصة مدرسية، قصة شعبية، قصة خرافية، قصة غرامية، قصة ماجنة، قصص الأطفال.

10. عرف المثقفون العرب في كل الأقطار مجلات أدبية كان لها دور كبير في تكوين مصطلحات الحياة الثقافية ونشرها وترسيخها. من أهم هذه الدوريات السياسية الأسبوعية (1926 - 1949) والرسالة (1933 - 1950) والثقافة (1939 - 1953)، وكتاب هذه المجالات الثقافية كانوا من أهم أعلام الفكر والأدب والفن والعلم من كل الأقطار العربية.

¹¹ حالياً مونت كارلو جزء من إمارة موناكو، أما مسرح الأديون Théâtre de L' Odéon فهو من أهم مسارح باريس منذ 1782. انظر: Le Maxidico 1474, 1496.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وأكثر الكلمات التي استقرت في الفصحى المعاصرة في القرن العشرين تدین لهم تارة بفضل تكوينها، وتارة أخرى بفضل تحديد دلالتها الحديثة. وكان لتلك الدوريات الدور الأكبر في استقرار هذه الكلمات وتجاوزها الحدود لتصبح رصيداً عربياً جديداً.

من أهم المصطلحات التي استقرت في تلك السنوات مصطلح "ثقافة" عند سلامة موسى وطه حسين والعقاد والزيات ومحمد فريد أبو حديد ومعاصريهم، مع دلالة هذا المصطلح في سياقات كثيرة على التعليم وأوجه النشاط الفكري الأخرى، كما في مستقبل الثقافة في مصر لطفه حسين. ونجد هذا المصطلح في تراكمات مثل: الزاد الثقافي، والتعاون الثقافي، والرابط الثقافي، والنشاط الثقافي، والنهضة الثقافية، والأهداف الثقافية، والصلات الثقافية، والبعثات الثقافية. استخدم مصطلح الثقافة مع وصفه اللغوي، مثل الثقافة العربية، أو في إطار وصفه بالمدال المعرفي: الثقافة الأدبية، الثقافة العلمية، الثقافة الفنية، الثقافة الفلسفية، أو في إطار وصفه من خلال البيئات التعليمية، مثل الثقافة الأزهرية، الثقافة العصرية، الثقافة الحديثة، الثقافة المدرسية، الثقافة الجامعية، كما استخدمت كلمة الثقافة مضافة، مثل: ثقافة الأديب، ثقافة الشاعر، ثقافة الفنان، ثقافة الناقد، ثقافة الشرق والغرب. ودارت دلالات كلمة ثقافة في إطار إعمال العقل في ضوء مجموع المعارف المكتسبة. ومن مصطلح الثقافة استخدمت مصطلحات شتى، منها المصدر تنقيف، ومنه: التنقيف النظري، والتنقيف الذاتي، وتنقيف النشء. ويرتبط بهذا أيضاً مصطلح المثقف، مثل المثقفين الفرنسيين، والمثقفين العرب، المثقفين الأتراك، والنفوس المثقفة، وهناك مصطلحات كثيرة اتخذت دلالتها المحددة باستخدامها المنظم في الدوريات الثقافية. من ذلك كلمة أدب قُطِرَ ما مثل: أدب مصر أو أدب المغرب، أو نوع أدبي مثل أدب المسرح أو أدب القصة، أو لغة محددة: الأدب الإيطالي، الأدب الإسباني، الأدب العربي، واستقرت في تلك السنوات أيضاً مصطلحات المسرح بشكل محدد، كتبوا عن مسرحيات شوقي الشعرية ومسرحيات برنارد شو النثرية ومسرحيات تيمور والمسرح الغنائي. ومن ذلك أيضاً كلمة دراما وكلمة مسرحي، مثل درامات المسرحيين الأسبان، درامات المسرحيين الهولنديين، وكذلك المؤلف المسرحي، والإنتاج المسرحي، والاحتراف المسرحي،

والإخراج المسرحي، وشببه بهذا مصطلح أسلوب، فقد استقر في تلك الكتابات: أسلوب الفكر، أساليب القدامى، أساليب الكتابة، أساليب التربية الحديثة، أسلوب أدبي، أسلوب علمي. إن هذه المصطلحات لها أهمية كبيرة في العربية الفصحى في القرن العشرين. انتشرت من خلال الصحافة وبعضها دخل بعد ذلك إلى الكتب المدرسية، وبعضها لم يكن له مكان في تعليم فروع مادة اللغة العربية أو غيرها في المدارس. وكان الاستخدام في الدوريات الثقافية منطلقاً انتشار هذه الكلمات، وأكثرها عربي الأصل، وتحولها إلى مصطلحات حديثة محددة الدلالة.

ثالثاً: استقرت في الصحافة العربية قبل نهاية الحرب العالمية الأولى توجهات منهجية عامة في وضع المصطلحات وألفاظ الحضارة. ونتناول هذه التوجهات على نسق تاريخي:

1. أكثر الكلمات المقترحة والمستخدمة للتعبير عن الحياة الحديثة والعلوم الحديثة من أصول عربية. نجدها في كل المجالات على نحو يجعلها قريبة من القارئ من حيث البنية والدلالة. بعض هذه الكلمات له وجود قديم لكن المعنى جديد، مثل صحيفة وجريدة، وبعضها تكون في مراحل تاريخية قبيل العصر الحديث من مواد عربية وبأوزان عربية مثل: محكمة ومأمور. وبعضها دخیل في عصور الحضارة الإسلامية ولكنه اتخذ دلالة اصطلاحية جديدة مثل: دستور¹. وبعضها مما تكون من مواد عربية وبوزن عربي للدلالة على معنى جديد، مثل: معرض ومتحف وجامعة ومؤتمر ومحامي ومسرح. وفي الوقت نفسه نجد كتاب الصحف والمجلات يتفقون بصفة عامة في قبول الكلمات العالمية على سبيل التعريب الجديد،

¹ دستور من الفارسية: بفتح الدال، ولها استخدام في التركية والعربية؛ بفتح الدال وضمتها، لعدة قرون للدلالة على السجل المتضمن معلومات محددة على شكل قائمة أو جدول أو نظام أو قواعد. لم تذكره المعاجم المتقدمة مثل الصحاح للجوهري، ولكن حاجي خليفة في كشف الظنون 419/1 شرح الكلمة في مجال الفلك بأن الدستور سجل موضوع لاستخراج التقويم من الزيج فيه جدول تعديل الأيام. واستخدمت أيضاً لقباً لكبار الحكام لأنه صاحب القرار، أنظر مثلاً تقديم الطهطاوي لتلخيص الأبريز وعباراته عن محمد علي باشا.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

ومن ذلك - مثلاً - أسماء العناصر الكيماوية وأسماء الأماكن.

2. نشرت روضة المدارس أيضاً قاعدة وضع المصطلحات المركبة والاختصارات في بعض التخصصات مثل الكيمياء: "لأجل تسمية هذه الأجسام يُنهي اسم الجسم الذي كهربائيته سالبة المشابه للأوكسجين بلفظ أور، ويوضع بعد ذلك اسم الجسم الذي كهربائيته موجبة، مثال ذلك: كبريتور الكربون، كلور البوتاسيوم، ثاني كبريتور البوتاسيوم، ثالث كبريتور البوتاسيوم، رابع كبريتور البوتاسيوم (ص 543).

كان التعليم يجري باللغة العربية، وتطلب ذلك إيجاد اختصارات في مجال الكيمياء: أ = أكسوجين؛ كب = الكبريت؛ ك = الكربون؛ كا = الكالسيوم؛ كو = كوبالت. وهنا طرح عملي لوسيلتين في وضع المصطلحات، إحداهما الاقتراض والثانية الاختصارات. وقد استقر عدد من هذه المصطلحات الكاملة في الاستخدام العربي الحديث، ولكن الاختصارات العربية في مجال الكيمياء ظلت تستخدم في الكتب المدرسية المصرية نحو قرن ونصف، ولكنها لم تصبح من رصيد اللغة العربية على المستوى العام.

3. كتب عبد الله النديم أيضاً عن أهمية وجود كيان علمي للنظر في قضايا اللغة العربية، وهو ما أطلق عليه آنذاك "مجتمع اللغة العربية" بهدف وضع الأسماء والاصطلاحات العربية (الأستاذ 673). لم يستخدم كلمة أكاديمية academie على نحو ما كان عند الطهطاوي. ولكن جهد اللغويين والعلميين يعد بمنزلة اقتراح، وكان النديم مدركاً لأهمية النشر في الجرائد المحلية (674) لتعرف رأي المتقنين في هذه الكلمات الجديدة المقترحة. وهنا نجد مناقشة لبعض الكلمات، كانت كلمة أفوكاتو الإيطالية مستخدمة في بعض البيئات في مصر، واقترح في مقابلها كلمة محامي، واقترح لها النديم أيضاً كلمة مدره (الأستاذ 675 - 576)، وعلى الرغم من دفاع النديم عن تلك الكلمة النادرة فقد استقرت كلمة محامي، على نحو ما اقترحتها مجلة الهلال، وهذا مثال لدور الصحافة في اقتراح كلمات ومناقشتها، ومثال على سهولة تقبل الكلمات الواضحة صرفياً. ونوقشت أيضاً كلمة نومرو = numero في الإيطالية، واقترح لها

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

نمرة وعدد، واستقرت كلمة عدَدَ للدلالة على هذا المفهوم، وكانت بعض الجرائد قد سبقت إلى ذلك (الأستاذ 677). ومن الكلمات التي ناقشتها الأستاذ أيضاً كلمة بهُو في مقابل الصالون¹ (678) والقفاز مقابل الجُونَتِي² (679)، والوشاح مقابل الكردون³ (679). وكل هذه الكلمات استخدمت في الصحافة واستقرت في الاستخدام العام، ولكن بعض الكلمات لم تقبل بسهولة. كلمة كلوب⁴ اقترح له كلمة مرب كما اقترحت كلمات النادي والمنتدى. وعلى الرغم من أن النديم تحفظ على كلمة نادي، لأنها تستخدم فقط عند وجود الناس في المكان فقد استقرت تلك الكلمة في تسمية ذلك المكان متجاوزة هذا التحفظ. وبصفة عامة يمكن القول بأن عدداً من الكلمات التي دعا إليها النديم في الأستاذ صادف قبولاً. رجل البوليس اقترح له كلمة شرطي، وكارت فيزيت⁵ اقترح لها بطاقة الزيارة، والبالطو⁶ اقترح له المعطف. وهنا نجد وعياً بدور الصحافة وجهداً في تكوين المصطلحات وألفاظ الحضارة.

4. عبر النديم عن رأيه في طرائق وضع المصطلحات وألفاظ الحضارة. إن هذه المصطلحات وألفاظ الحضارة مهمة والأمل أن يتصدى لها المجمع المقترح ويقسم العمل طبقاً

¹ صالون، في الفرنسية Salon والإنجليزية Saloon، ومن الأصل نفسه Salle، وفي الألمانية Saal. وقد استقرت الكلمة في فرنسا على وجه الخصوص في القرن الثامن عشر للدلالة على ملتقى الأدباء والفنانين، انظر: p. 1270 Weekley. أما ترجمتها: بهو، فهو دال على أحد معاني الكلمة وليس كل معانيها.

² جُونَتِي، للكلمة صيغ مختلفة في اللغات الأوروبية في مجال الثياب وما يتصل بها. في الإنجليزية gauntlet والفرنسية gantelet تصغر gant، انظر: Weekley, p. 627 – 628، وفي الإيطالية giunta.

³ كردون، في الفرنسية والانجليزية cordon تصغير corde بمعنى شريط، وقد استخدمت في مجال الأوسمة، كما استخدمت للشريط الحاجز أو الفاصل، انظر: Weekley, p. 362.

⁴ كلوب، في الانجليزية club والألمانية Klub بمعنى مكان التجمع لأفراد لهم حقوق خاصة لممارسة نشاط محدد، انظر: Weekley, p. 317.

⁵ في الفرنسية Carte de Visite.

⁶ في الفرنسية Paletol. أما manteau فإنها ترجع إلى اللاتينية mantellum، ومشكلة تأصيل الكلمة أنها متداولة أيضاً في لغات بلدان كثيرة حيث البرد الشديد والحاجة الأساسية إلى المعطف.

للتخصصات، وذلك بأن ينظر العلماء في المؤلفات والمصطلحات والمفاهيم، ثم يكون التعاون مع الكتاب الصحفيين في بحث الكلمات ونشرها. كتب النديم: "وإذا رأى المجتمع نشر الكلمات التي يريد تقريرها طالباً من أرباب الجرائد والمنشئين والعلماء الذين تهتمهم اللغة والمحافظة على العلوم العربية مشاركتهم له في بحث تلك المواضيع" (الأستاذ 681). وهذه المشاركة بالرأي في المصطلحات وألفاظ الحضارة تمهد لأمر الحكومة باستخدامها. وقد عبر النديم عن أهمية دور الحكومة (مجلس النظار) في إصدار الأوامر لاستخدام ما يستقر عليه الرأي (638).

5. كان كتاب الهلال يحرصون على اختيار الكلمات العربية الفصيحة، في إطار وعي بأن إغفال الفصحى يحرم المجتمع من تراثها المكتوب على مدى قرون الحضارة العربية الإسلامية. وفي الوقت نفسه وجه جرجي زيدان الكتاب إلى عدم اختيار الألفاظ المستهجنة المهجورة. إن الكاتب مكلف بانتقاء الألفاظ التي تفهمها العامة ومراعاة جمهور القراء، إن الكاتب لا يهتم بالألفاظ العربية المهجورة، لأن الهدف تقريب المعرفة بلغة عربية سليمة واضحة، وبعبارة أخرى: "إننا نريد إكسابهم المبادئ الأدبية أو التاريخية لا تعليمهم ألفاظ اللغة" (الهلال 202 - 203).

6. كتب جرجي زيدان عن الألفاظ التي اقترحها مجمع لغوي خاص ومحدود سمي آنذاك بالمجتمع اللغوي العربي، وكانت المناقشة بين عدة أطراف، منهم تلك النخبة من اللغويين وكتاب مجلتي الأستاذ والهلال. لعل أهم ما كتب في الهلال في هذا السياق يتصل بحقيقة التغير اللغوي وأن "لغتنا سائرة على سنة الارتقاء الطبيعية كاللغات الأخرى... لأن اللغة في هذا الاعتبار حية بحياة الناطقين بها تنمو بنمو احتياجاتهم" (الهلال 248). ومن هنا ضرورة التعبير عن الحياة المعاصرة باللغة العربية من خلال ألفاظ عربية متاحة في المعاجم، وإذا لم نجد الجديد في معاجمنا ولاسيما الاصطلاحات العلمية التي تعد بالمئات أو الألوف فنحن في حاجة إلى اقتفاء آثار أسلافنا في استخدام الألفاظ المولدة أو المستخدمة إذعاناً لحكم الضرورة التي هي من طبيعة العمران" (الهلال 248). يرى جرجي زيدان وكتاب آخرون أهمية وجود

كيان علمي لبحث قضايا اللغة العربية بصفة عامة، وعلى وجه الخصوص لبحث الاصطلاحات الصناعية والعلمية والإدارية أو السياسية والألفاظ الأعجمية التي التقطتها العامة من مخالطة الأعاجم، وكذلك الألفاظ المستحدثة للمعاني الجديدة. هذا الكيان العلمي يكون في مصر مع مشاركة علماء اللغة من بلاد الشام والعراق. وهذا ما طبق في مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ إنشائه. وكتب زيدان عن هذا الكيان بأن تعرض أعماله في الجرائد المحلية أو في نشرة خاصة لتعرف الرأي.

7. اهتم المقتطف بمسألة حدود العمل في المصطلحات. تحفظ كتاب المقتطف بالنسبة لرأي يطالب بكلمات عربية كثيرة وجديدة، وذلك بإيجاد كلمة عربية لكل مفهوم علمي جديد. ويرى أن يقتصر ذلك الجهد اللغوي على المفاهيم العلمية العامة لجمهور المتقنين، أما غيرها فيبقى بصيغته العالمية. وتتلخص هذه الفكرة في العبارة الآتية: "السييل الأصلح أن نبقي على الكلمات العلمية الجديدة التي لا ينتظر أن يكثر استعمالها بين العامة، بل نبقى خاصة بأهل العلم"، الكلمات العربية في الثقافة العلمية هدفها التقريب. تتضح الفكرة من العبارة: "ترجمنا كلمة بُرُوتُون بكلمة نواة، ولكن النواة تطلق على مسميات كثيرة، والعلماء يقصدون في استعارة الألفاظ اليونانية واللاتينية أن تكون اللفظة غير مستعملة لمعنى آخر حتى لا يقع التباس فنكون بمثابة علم للمعنى الجديد، فلا غنى لنا عن أن نحذو حذوهم لو عَرَبْنَا كلماتهم" (266/1). وهذا الموقف يفرق بين مصطلحات ثقافية علمية عامة تكون بالعربية لجمهور القراء من جانب، ومصطلحات علمية عالمية بدلالات تخصصية محددة للمتخصصين.

8. كان دور المقتطف كبيراً في وضع رموز علمية مهمة (انظر مثلاً 238)، من ذلك مثلاً مكونات الدم ولها أسماء ورموز دولية. وهذا الجانب استقر بعد ذلك في الكتابات العلمية الراقية. قدّم المقتطف كل المادة بلغة عربية دقيقة وسليمة، واجتهد في وضع كلمات عربية في كل هذه المجالات. وعرف أيضاً أهمية وجود التسميات العلمية العالمية في العربية. ومن هنا نجد العناصر الكيماوية وأسماء عدد كبير من العلوم والوحدات القياسية طبقاً للعرف العالمي وبعض المواد بأسمائها العالمية، وكذلك بعض أسماء الأمراض.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

9. نشر المقتطف تقارير علمية عن تقنيات حديثة، منها التلغراف اللاسلكي (116)، المصطلح الأول عالمي دخيل مكوّن من tele بعيد و graph بمعنى الكتابة. والثاني عربي مركب من كلمة "لا" وكلمة سلك ونهاية النسب، وقد استقر هذا النمط التركيبي في مصطلحات حديثة كثيرة.

10. أسماء العلوم قدّمها المقتطف بطريقتين. تناول الجيولوجيا بهذا الاسم العالمي، ولكنه نقل مصطلح مورفولوجيا في سياق علوم الحياة بكلمات عربية: علم بناء الحيوان والنبات (ص 119). وهذا نوع من الشرح لمصطلح أوربي يصف الأشكال ويستخدم هذا المصطلح الأوربي لمفاهيم شتى في تخصصات متعددة.

11. نشر المقتطف عن الإشعاع مستخدماً هذه الكلمة، وكذلك كلمة الراديو Radio باسمه العالمي، ومن كلمة الإشعاع اسم الفاعل المُشع (العلم والعمران، القاهرة 1928م، ص 113 - 111)، أما أنواع الأشعة فكانت على النسق العالمي باستخدام أسماء الحروف اليونانية، مثل أشعة ألفا وأشعة بيتا.

12. نشر المقتطف عن الاشتقاق في المعرب، هناك مصطلحات معربة وجرى الاشتقاق منها، أي تكوين كلمات جديدة من المعرب. وهي قاعدة أجازها مجمع اللغة العربية بعد ذلك. كلمة أيون ion تكون منها بوزن تَفْعَل كلمة تأيّن (95/2) ionizing. المقتطف كان له دور في عدد قليل من المصطلحات العربية التي ترجع إلى كلمتين مع حذف حرف منها، مثل الزمكان Space - time (6/3).

13. نشر أمين المعلوف في المقتطف دراسة مهمة عن تدوين الأصوات الأجنبية بالحروف العربية عنوانها: تعريب الأسماء الأعجمية، ولها أهميتها في توجيه الاهتمام إلى هذا الموضوع¹.

14. إن بعض المصطلحات التي أفاد منها كَتَّاب المقتطف لم يكتب لها الانتشار في بعض

¹ انظر: محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، القاهرة 1993، ص 173.

الأقطار العربية، من ذلك يَحْضُر النباتات وَيَحْمُر الدم (118/2)، وذلك على الرغم من قبول مجمع اللغة العربية للمصطلح الأول (1935). ولكن المصطلحين العالميين للمفهومين استقرا: كلوروفيل، وهُمُوجْلُوبِين¹.

رابعاً: قضايا لغوية

1. كان للصحافة في بداية النهضة العربية الحديثة أثرٌ بعيد في المصطلحات وألفاظ الحضارة الحديثة، وتعددت بطبيعة الحال الوسائل اللغوية بين تغير دلالي واشتقاق وتراكيب واقتراض معجمي. وتاريخ كل كلمة من الكلمات وكل تركيب من التراكيب يمثل جانباً من تاريخ تكون المصطلحات وألفاظ الحضارة في العربية في العصر الحديث. وهذا البحث اللغوي التاريخي أصبح اليوم ممكناً في ضوء التقنيات التي تمكن من عمل قاعدة بيانات لغوية تضم كل كلمات الصحافة العربية بنصوصها، ولكننا نكتفي هنا باتجاهات محددة. لقد عادت إلى الحياة كلمات عربية أصيلة لتحمل دلالات جديدة. بدأت كلمة "صحيفة" وكلمة "جريدة" تأخذان مكان الكلمة المعربة جرنال التي دخلت قبل ذلك بنحو نصف قرن. وبدأت كلمة "علم" تعود إلى معناها القديم لتستوعب كل أنواع المعرفة الدقيقة، ولم تعد مقصورة على علوم الدين كما كان استخدامها المحلي عدة قرون قبيل النهضة الحديثة. كتب الطهطاوي في تقديمه لروضة المدارس مستخدماً كلمة "صحيفة"، وذاكراً "الفوائد العلمية" و"تدوين العلوم"، بل نلاحظ عنده كلمات جديدة أصبحت من رصيد الفصحى المعاصرة مثل كلمة "تحرير" في سياق العمل الصحفي، وتراكيب اصطلاحية مثل "دار الكتب" بوصفها من أهم مؤسسات الثقافة في الدولة الحديثة. المصدر الصناعي بدأ يأخذ مكانه على نحو متزايد، مثل الأسبقية. وفي روضة

¹ الكلمة الإنجليزية chlorophyll والكلمات المناظرة في اللغات الأخرى ترجع إلى اليونانية chloros = أخضر، phyllon = ورقة. أما الكلمة الإنجليزية haemoglobin والكلمات المناظرة في اللغات الأخرى فترجع إلى اليونانية haima = دم، واللاتينية globus = كرة، انظر: Pocket medical Weekly, p. 296, Popper, N. Dictionary, Great Britain, 1973, p. 223.

المدارس كلماتٌ دخيلةٌ استقرت في لغة الصحافة، منها كلمات إمبراطور *imperator* وتليسكوب *telescope* وميكروسكوب ¹*microscope*.

عرفت الصحافة غير الحكومية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ثم في القرن العشرين أعداداً متزايدة من القراء، ومن ثم كان لها أثرٌ كبير في استقرار مصطلحات علمية وألفاظ حضارية عند جمهور كان أول الأمر بالمئات ثم زاد إلى الآلاف ثم أصبح بالملايين. لقد استقرت في كتابات مجلة الهلال منذ عامها الأول مصطلحات سياسية كثيرة بمعناها الجديد، من ذلك كلمة دولة وكلمة سفير وكلمة المحافظين في وصف أحد الأحزاب البريطانية، وتكونت أيضاً تراكيب مثل الشرق الأقصى، والمؤتمر الدولي، والسكة الحديدية، الولايات المتحدة الأمريكية (بدلاً من الاستخدام القديم في بدايات النهضة: *Etats unis*). ونجد أيضاً تراكيب مثل رئيس الجمهورية، جمعية أدبية، مجلة علمية، رواية تاريخية. كان لمجلة الهلال دورها - أيضاً - في استخدام كلمات دخيلة مستقرة في الاستخدام الشعبي والاستخدام الرسمي آنذاك مثل كلمة "بوسطة" *Posta*.

2. كان الوعي بقضية المصطلحات وألفاظ الحضارة واضحاً. تضمنت واجبات المجمع اللغوي المقترح - في عدد من المجالات - بحث الاصطلاحات الصناعية والعلمية والإدارية والسياسية وألفاظ الحضارة المادية وغيرها. وفي الوقت نفسه ناقشت مجلة الأستاذ قضية اللغة العربية، وطالبت القائمين بأمر الأمم الشرقية أن يحولوا بين اللغة وموتها بإحداث جمعية هدفها "وضع الاصطلاحات الطبية والكيمائية والهندسية". وإلى جانب ذلك كانت مجلة الهلال من الدوريات التي دعت إلى إنشاء الجامعة، كانت التسمية أول الأمر طويلة وغير محددة: "مدرسة كلية علمية"، أو "مدرسة كلية مصرية". وكتبت دوريات أخرى في تلك السنوات عن أهمية

¹ السابقة *micro* تدل على الصغر والسابقة *tele* تدل على البعد. والكلمتان مما دخل الاستخدام العام في لغات كثيرة في العالم كله. انظر: محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، القاهرة 1993، ص: 125.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

إنشاء "مدرسة جامعة"، و"اختصر هذا التركيب إلى كلمة "جامعة"، واستقرت هذه الكلمة في دوريات قبل قيام الجامعة المصرية في عهدا الخاص غير الحكومي (1908).

3. كان دور المجلات الثقافية في تنمية اللغة العربية واعياً وهادفاً. اهتمت مجلة الزهور لأنطون الجميل منذ 1910 بقضية ألفاظ الحضارة. ونشرت اقتراحات بكلمات حقق بعضها قبولاً وانتشاراً. من ذلك سيارة بدلاً من أتومبيل¹ automobile. وكلمة طوار بدلاً من ترتوار² وكلمة ممرض بدلاً من تمرجي. وهذه الكلمات أصبحت من الرصيد الجديد للعربية الفصحى في العصر الحديث، وإن استمر استخدام بعض الكلمات الدخيلة في بعض العاميات في البلدان العربية. إن دور مجلات الثقافة العلمية، وفي مقدمتها مجلة المقتطف (من سنة 1896) كان واضحاً في نشر المصطلحات العلمية الأساسية في مجالات الفيزياء والكيمياء والعلوم البيولوجية والطب والهندسة والتعليم والعلوم الاجتماعية والإنسانية، إلى جانب المصطلحات الأساسية للتعبير العلمي. وعلى سبيل المثال نجد في مجلة المقتطف تحديداً لدلالات كلمات مهمة: الدولة، والأمة، والمدارس، والصحافة، والمجتمعات العلمية، والمكاتب مع وعي بأهمية اللغة بهدف التقدم: "اللغة ترتقي بارتقاء الدولة"، "الأمة يجب أن تكون حريصة على لغتها"، مدارسنا الحاضرة قلما تعتمد في تدريسها العلوم على اللغة العربية، بل تُدرّسها باللغة الإنجليزية، وهذه ضربة قاضية بإماتة اللغة وتوقيف نموها". لا بد من البحث "في أسباب ترقّيقها كما هو جار عند الأمم الراقية". وهذه الأفكار واضحة، وتحمل كلمات أصبحت لها أهميتها في حياتنا المعاصرة، كلمة "خزانة" لها تاريخ طويل، وكلمة "كتبخانة" بدأت في الاستخدام في بداية النهضة، ولكن كلمة مكتبة أخذت تستقر شيئاً فشيئاً في القرن العشرين، لا نجعلها اليوم على مكاتب بل مكتبات.

¹ الكلمة الفرنسية automobile مكونة من اليونانية auto = ذاتي اللاتينية mobilis متحرك؛ Baumgartner, p. 60.

² الكلمة الفرنسية trottoir كانت تدل على مسار الخيل ثم على مسار الإنسان؛ Baumgartner, p. 801 – 802.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

هناك مصطلحات وضعت أول الأمر في سياق العلوم، ثم استقرت بعد ذلك في الخطاب الثقافي العام من خلال النشر في المجالات، من ذلك مصطلح "النشوء والارتقاء" (169/1910) (4)، ومصطلح "العلوم الطبيعية" (172) ومكروب Microbe (172)، والمادة البوائية (173) والمادة المقاومة (173) والمصل (173) والتطعيم (173). كانت بعض المصطلحات متراوحة بين الكلمة المعربة والكلمة العربية، وكلاهما نجده في تلك الدوريات، من ذلك كلمة المحاجر جمع المحجر (الصحي) ويقابلها الكورنثينيات جمع كورنثينة (335/1910/8)، وعلم حفظ الصحة¹ Hygiene (354/1910/8). لقد نشرت المقتطف هذه الموضوعات بمصطلحاتها. ولا يعني النشر بالضرورة قبول المجتمع لكل ما ورد في تلك المجلة، فهناك كلمات عربية اقترحت ولم تقبل على المستوى العام، واستقرت الصيغة العالمية بمضي الوقت، من ذلك الوبالة (المالاريا)² Malaria والخناق (الدفتريا)³ diptheria. وهناك كلمات دخيلة استخدمها كتاب المقتطف واستقرت في أكثر الأقطار العربية، من ذلك كلمة ميكروبات، أكسجين، بكتريا، نترات الصودا، راديودم. وهذه الكلمات استقرت في الاستخدام العربي في القرن العشرين، وكانت الدوريات العلمية إلى جانب الكتب المدرسية أوعية تقديمها إلى قاعدة عريضة من أبناء العربية.

5. قدّمت الصحافة العربية ملامح في بنية الكلمات أصبحت طابعاً مميزاً للفصحى المعاصرة. وأكثر هذه الملامح لها أصولٌ قديمة محدودة، ولكن الصحافة وسّعت ذلك وزادت من تطبيقاته. تكونت كلمات معاصرة بوزن فعلة مثل دبّلجة ونمّذجة وبرمجة وأقلّمة، وهذه

¹ الكلمة الانجليزية hygiene والفرنسية hygiene وما يقابلها في اللغات الأوربية، من اليونانية hygiános = صحة السليمة، حفظ الصحة، والمصطلح يعني الوقاية، انظر: Weekly, p. 741.

² مالاريا malaria، من الإيطالية mal + aria وما يقابلها في اللغات الأوربية من اللاتينية بمعنى الهواء الرديء، انظر Weekly, p. 883. Poper, p. 302.

³ دفتريا diptheria، هذا مصطلح كونه العلماء في الإنجليزية واللغات الأخرى، مأخوذ من اليونانية diphtera، بمعنى: جلد أو غشاء Baumgartner, p. 246. Poper, p. 158.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وتلك مشتقة من كلمات معربة ودخيلة، وكان للصحافة دور في نشرها واستقرارها. وهي بوزن أقره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

تعد الصحافة العربية من أهم عناصر استقرار الأنماط الصرفية في العربية المعاصرة، من ذلك جمع المصدر بوصفه نوعاً من الأسماء، من ذلك بوزن انفعال (انقسام/انقسامات، انشقاق/انشقاقات) وبوزن تفعّل (تجمع/تجمعات، تخصص/ تخصصات، توقع/ توقعات) وبوزن تفاعل (تجاوز/ تجاوزات، تنازل: تنازلات، تناقض/ تناقضات) وبوزن استفعال (استعلام/ استعلامات، استفزاز/ استفزازات). ويدخل في الأنماط الصرفية ذات الوظائف النحوية الجديدة استخدام صيغة النسب منصوبة لتؤدي معنى Adverb في اللغات الأوروبية، وذلك مثل: عسكرياً، اقتصادياً، سياسياً، كيميائياً، معدنياً، زراعياً، تلقائياً، عفوية، تربوياً، لغوياً. لغة الصحافة جزء من العربية في العصر الحديث، نجد فيها كلمات كثيرة بصيغة المصدر الصناعي: الاشتراكية، الرأسمالية، العفوية، الانتهازية، المسؤولية، رومانسية، بلدية، مصداقية، هوية، أنانية، بابوية، طائفية، خصوصية، أيديولوجية.

إن قضايا البحث لا تقتصر على الكلمات بصيغة المفرد، نجد في لغة الصحافة العربية الحديثة ملامح في جمع الكلمات الدخيلة: سيناريو Senario سيناريوهات، استوديو Studio استوديوهات، كما نجد فيها كلمات عربية يبدو أنها استقرت بصيغة الجمع لمعنى محدد: تداعيات، وبعضها له صيغة الجمع بدلالة محددة: تعليمات ليست من حيث الدلالة جمعاً لتعليم. وبعضها يستخدم على نحو يشبه صيغة الجمع: كواليس¹. أكثر الكلمات المستخدمة في لغة الصحافة العربية امتداد للعربية في عصورها التاريخية، ومنها نسبة عالية من الكلمات التي طرأ عليها تغير دلالي، ومنها الكلمات المكونة طبقاً للأوزان العربية للمصادر والمشتقات المختلفة. هناك كلمات وتراكيب وصفية متوازية، أدى وجودها إلى ثنائية التركيب الوصفي

¹ الكلمة الفرنسية Coulisse والانجليزية Coullisse بصيغة المفرد (وفي الألمانية die Kullissen تستخدم الكلمة بصيغة الجمع)، وقد جمعت بالطريقة العربية عندما دخلت الاستخدام العربي.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وصيغة الجمع المؤنث، مثل: أحياء عشوائية/عشوائيات، قنوات فضائية/فضائيات. هذه القضايا تتطلب بحثاً معجمياً تاريخياً في ضوء الاستخدام العربي في العصر الحديث.

أما التراكيب السياقية التي أخذت تستقر مع الترجمة من اللغات الأوربية إلى العربية مع انتشار الصحافة فمنها للدلالة على الرجال والنساء: الجنس القوي، والجنس الضعيف (الزهور 347/1910/10). ومنها: وراء البحار، والنقطة الجوهريّة (447)، تحرير صفح (462)، خرق القانون (474)، النظام الاجتماعي (172) السكة الحديدية (48/1910/1)، رجال الصحافة (90/1910/1) اللغات الحية (182/1910/4)، بلاد ما بين النهرين (182/1910/4)، السواد الأعظم (184/1910/4)، غلاء المعيشة (321/1910/8)، تصريحات سياسية (321/1910/8)، مجامع علمية (380/1910/9).

6. المناقشة اللغوية حول المصطلحات العلمية كانت موضع اهتمام قراء المجلات الثقافية في بداية القرن العشرين. نجد في مجلة الزهور مقالاً عن مصطلحات علم الحيوان (389 - 385/1910/9) يبين أهمية استكمال المصطلحات العربية، وذلك بأن "تأخذ عن الأقدمين الألفاظ الاصطلاحية التي وضعوها في هذا المعنى، وأن لا نصلح شيئاً جديداً هو دونه في التأدية والمراد." وهكذا أصبح إحياء المصطلح العربي والمعرب القديم من خلال إعادة استخدامه توجهاً علمياً منشوداً، في هذا الصدد كانت ثمة اقتراحات: بدلاً من الطيور المائية كان الاقتراح بأن يعود الاصطلاح إلى نبات الماء، وبدلاً من الطيور الشاطئية كان الاقتراح بأن يعود الاستخدام إلى شَاهْمُرْك الجمع شَاهْمُرْكَات¹، وبدلاً من آكلة الحبوب نجد الاصطلاح العربي القديم بهائم الطير. ومثل هذا كثير في تلك المقالة النقدية. كانت قضية المصطلحات وألفاظ الحضارة الحديثة تطرح في المجلات الثقافية لجمهور القراء، وذلك قبل قيام المجامع اللغوية الرسمية، وفي بداية الاهتمام المجتمعي بهذا الموضوع. وفي هذا الصدد خصصت مجلة الزهور وكان رئيس تحريرها أنطون الجميل (1887 - 1948) عدة مقالات لموضوع إيجاد

¹ شاهمركات = شاهمرغ = شاه مرغ، مركبة في الفارسية من شاه = ملك + مرغ = طائر.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

بديل في مقابل للكلمات الأجنبية في اللغة العربية.

هناك كلمات كثيرة أخرى ندين بها لجهود نادي دار العلوم، نشرتها أيضاً مجلة الزهور (137/1910/4 - 141)، ومن ذلك كلمة مُدرّج بدلاً من انفيتياترو amphithéatre الإيطالية، وكلمة طلاء بدلاً من بوية boya التركية، وكلمة مرمى بدلاً من جول Goal الإنجليزية، وكلمة بطاقة بدلاً من كارت (e) Cart الأوروبية، وكلمة ملف بدلاً من دوسيه الفرنسية. وتابعت الزهور نشرها لهذه الكلمات (215/1910/5 - 218)، وكان موقعها مترواحاً بين قبول كلمات كما هي وتعديل غيرها. استقر من هذه الكلمات: مستشفى بدلاً من بيمارستان، وبرق ورسالة برقية بدلاً من تلغراف، ولجنة بدلاً من قومسيون، ومقصف بدلاً من بوفيه. وكانت قد اقترحت في مقابل type - writer مطبعة الأراز فكتب قارئ أديب أنه "يفضل تعريبها بآلة كاتبة أو الآلة الكاتبة، الغرض منها أن تقوم مقام القلم في الكتابة". ولا شك أن هذه المناقشات كان لها دور في استقرار بعض المصطلحات وألفاظ الحضارة. ولم يخل الأمر من ردود فعل متنوعة (340/1910/8 - 343). ولكن تاريخ المصطلحات وألفاظ الحضارة في اللغة العربية أثبت استقرار عدد من هذه الكلمات لهذه الدلالات في العصر الحديث، من ذلك كلمة سيّارة بدلاً من أتومبيل، وقطار سريع أو سريع بدلاً من اكسبريس Express، وممرض بدلاً من تمرجي (504 501/1910/10). وهكذا كان دور الصحافة العربية كبيراً في مجال المصطلحات وألفاظ الحضارة.

7. اتضح دور الصحافة منذ بداية النهضة العربية الحديثة في استخدام كلمات وتراكيب

للدلالة على المفاهيم الجديدة:

أ. نظم الدول وأسماء الدول والمدن وألقاب الحكام.

ب. مصطلحات الطباعة والصحافة والنشر.

ج. المصطلحات الأساسية للتعبير العلمي.

د. المصطلحات الدالة على الوطن والمواطنة والسياسة.

هـ. المصطلحات الدالة على الفنون المستحدثة.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

و. المصطلحات الدالة على مفاهيم الفكر الحديث.

ز. المصطلحات الدالة على التقنيات والصناعات.

ح. المصطلحات الدالة على مؤسسات الدولة الحديثة.

وهذا الدور مستمر حتى اليوم، سواء عن طريق التغير الدلالي أو تكوين كلمات عربية جديدة أو تراكيب ثابتة أو تكوين مصطلحات من مكونات عربية ودخيلة أو عن طريق الاقتراض المعجمي.

8. كان للصحافة دور كبير في استخدام مصطلحات وألفاظ حضارية للتعبير عن الحياة المعاصرة:

أ. أكثر هذه الكلمات والتراكيب من مكونات عربية، يتضح ذلك من الأمثلة السابقة.

ب. بعض المفاهيم بدأ التعبير عنها بكلمات دخيلة ثم استقرت لذلك كلمات أو تراكيب عربية، مثل مسرح، نادي، سيارة، محامي، حجر صحي، بريد، لجنة.

ج. الكلمات الدخيلة مستقرة في بعض المجالات، مثل أسماء الأماكن والشعوب وبعض الألقاب والرتب وأسماء كثير من العناصر الكيميائية وأسماء العلوم وبعض المفاهيم الأساسية.

د. دور الصحافة مقصور على الاستخدام اللغوي العام وما به من رصيد أساسي وألفاظ حضارية عامة ومصطلحات دخلت الخطاب الثقافي العام، أما المصطلحات الفنية في المجالات المختلفة فإن لها استخداماً وقضاياها في خارج ذلك الإطار العام.

هـ. اتضحت أهمية الصحافة في بعض الحالات في وضع المصطلحات وألفاظ الحضارة، ولكنها في كل الأحوال تعد العامل الأول إلى جانب التعليم في نشر هذه المصطلحات وألفاظ الحضارة على المستوى العام، وفي تحولها من مستوى التخصص المحدود إلى الاستخدام اللغوي العام عند جمهور القراء.

و. وهذا الدور اتخذ ملامح جديدة بظهور الصحافة العربية غير القطرية والصادرة في الخارج. وفي حالات كثيرة لا يكاد القارئ العربي لهذه الصحف الصادرة في خارج البلدان العربية ينسب مصطلحاً معيناً أو تركيباً سياقياً إلى بلد محدد أو منطقة محددة.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

- ومع هذا كله، فإن بعض الفروق المعجمية المحدودة توجد فيها، وهي اختلافات تعكس واقع الاستخدام في داخل دولة أو منطقة ولا تحمل الصحافة وزرها في أكثر الحالات:
- أ. اختلاف المصطلح الإداري باختلاف الدول: معتقل = موقوف، تفنيش = تمشيط، نفط = بترول، كواد = إطارات، رئيس الوزراء = الوزير الأول.
- ب. اختلاف أساس وضع المصطلح العربي في اللغة الأجنبية المنقول منها: حلف الأطلسي = حلف الأطلنطي = الناتو Nato في الإنجليزية، = أوتان Otan في الفرنسية.
- ج. تعدد نظام تدوين الأرقام بين الأرقام الغبارية والأرقام العربية.
- د. ثنائية الكلمة الأجنبية والكلمة العربية: بنك = مصرف Bank، Banque، أتوبيس، باص، امنيبوس = حافلة Autibus، Bus، Omnibus.
- هـ. اختلاف تدوين الياء النهائية في بعض السياقات: ي = ى.
- و. اختلاف تدوين الهمزة المتوسطة في بعض السياقات: مسئول = مسؤول، شئون = شؤون.
- ز. تعدد بعض التسميات مثل أسماء الشهور: أغسطس = أوت = آب.
- ح. ثنائية تدوين الكلمة المعربة: ديمقراطية = ديمقراطي، وأسماء الأعلام: موزار = موزارت (موتسارت Moazart)، سيول = سيؤول Seoul.
- ط. اختلاف نظام تدوين صوت الجيم المشددة (g) بالحرف العربي: جرام = غرام، كوبنهاجن = كوبنهاغن، برمنجهام = برمنغام، فولكس فاجن جولف = فولكس فاغن غولف Volkswagen Golf، (في المثال الأخير تدوين (w) الألمانية بالفاء في الخط العربي) والأفضل أن يكون برمز كتابي آخر مثل الفاء المثلثة ف - مثلاً). ومن ثنائية صيغ التعريب: الدلافين = الدرافيل¹، سوفينية = سوفياتية، التشيك = تشيخيا، لوس أنجلوس (كما في الأسبانية ثم الإنجليزية Los Angeles) = لوس انجليس، أو لوس انجليس (كما في الفرنسية Los Angeles). وكلها قابل للتفسير بمفاهيم علم اللغة.

¹ الكلمة daulphin أو dauphin في اللغات الأوروبية الحديثة، من اللاتينية delphinus، delphilinus. Baumgartner, p.220.

إن مشكلة التدوين لا تقتصر على لغة الصحافة، ولكنها تتوعدات إقليمية في الدول العربية. وتجعل الكلمة العربية والمعربة في حالات معينة غير موحدة في التدوين، ولكن عصر التقنين والحاسوب وتقنيات المعلومات يجعل توحيد تدوين الكلمة الواحدة مطلباً عملياً لتيسير الإدخال والقراءة الآلية والبحث والإتاحة. ويقلل من هذه المشكلات أنها قليلة، ويستطيع القارئ العربي تجاوزها بدون مشكلات تذكر، ولكن عصر التقنيات المتقدمة يجعل التوحيد الكامل في التدوين أمراً منشوداً.

خامساً: الصحافة وإعداد المعجم العربي الحديث

1. يتضح بالبحث عن كلمات كثيرة مألوفة في الصحافة العربية المعاصرة أنها لا توجد في معاجم عربية، ومن هنا يتضح نقص هذه المعاجم التي اعتمدت - في المقام الأول - على النقل من معاجم قديمة. إنها كلمات جديدة أو كلمات مستخدمة بدلالات معاصرة. وأقرب المعاجم إلى الاستخدام العربي في الصحافة هو معجم هانز فير: معجم اللغة العربية المعاصرة (عربي/ألماني)¹، ثم (عربي/إنجليزي). إن البحث في هذا المعجم له مبرر علمي لأنه لم يعم على الجمع من معاجم سابقة، بل اعتمد في المقام الأول على جمع المداخل العربية من نصوص لغة الصحافة حتى 1945م، وأضاف إليها كلمات من نصوص الأدب العربي الحديث، طباعته من 1949 حتى 1977، وفيها قدر مناسب من المتابعة والتجديد والإضافات. وأعيدت طباعته بعد ذلك عدة مرات في ألمانيا وبيروت، كما ترجمت المقابلات إلى اللغة الإنجليزية. وكان من أدق المعاجم التي اعتمدت عليها مع اللغوي الألماني Götz Schregle وزملاء من مصر عندما أعدنا معجمنا الألماني العربي Deutsch – Arabisches Wörterbuch الذي تم سنة 1972م وطبع أيضاً عدة طباعات في ألمانيا ولبنان. ومع هذا كله، فإن معجم هانز فير

¹ عنوان المعجم Wehr H., Arabisches Wörterbuch für die Schriftsprache der Gegenwart und Supplement, Beirut، هانز فير، معجم اللغة العربية المعاصرة، وملحقه المكمل، عربي - ألماني، بيروت 1977م.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

يمثل زمن تأليفه، ولكنه لا يقدم دائماً متطلبات القارئ سنة 2010م.

2. ومن هنا أهمية النظر في الصحافة العربية المعاصرة من أجل عمل معجم جديد للغة الصحافة العربية المعاصرة، أو لاستكمال معاجم موجودة ومتداولة. يتضح القصور في معجم هانز فير برؤية معاصرة في عدة جوانب لا تقلل من قيمة هذا العمل العظيم للغوي ألماني رفيع القدر وعظيم الإنجاز وواضح الرؤية. ونعطي أمثلة دالة على أهمية متابعة الجديد، لقد اتضح من بحث كلمات مختارة من الصحافة العربية أن قدراً منها لا يوجد في معجم هانز فير في طبعته الرابعة (1976) مع الملحق (1977):

أ. الكلمات العربية الجديدة للتعبير عن المفاهيم الجديدة، مثل عولمة، حوكمة، شفافية.
ب. الكلمات الدخيلة الجديدة والمتداولة في الصحافة المعاصرة، مثل التقنية، التكنولوجيا، انفلونزا.

ج. أهمية ذكر الكلمات وعدم الاكتفاء بوجود المادة اللغوية، ومن هنا أهمية ذكر كلمات مثل: مُلابسات، فضائيات، تعايش، مبتسر، انتكاسة، مستوطنة ج مستوطنات، حرامية، توصيلة، متشدد.

د. أهمية ذكر الكلمات المستخدمة وعدم الاكتفاء بكلمات مماثلة وقرينة، ومن هنا أهمية ذكر كلمات، مثل: سلوكيات، طائفية، تداعيات، توقعات، عشوائيات، تهجير، فعاليات بمعنى أعمال أو جوانب نشاط.

هـ. أهمية ذكر الدلالة أو الدلالات المعاصرة بدقة، وعلى ذلك لا يجوز أن يشرح الاحتكار على أنه التفوق، ولا يجوز الخلط بين الاستثمار والاستغلال. وقد يتطلب الشرح تحديداً لدلالة الكلمة في منظومة ألقاب مهنية للتفرقة بين الاستشاري والإخصائي، وكذلك: مسلسل/مسلسلات بالمعنى الإعلامي، الموالاة بالمعنى السياسي، والتخطيط بالمعنى السياسي وليس مجرد رسم الخطوط، وقِيعَة بمعنى دَسيْسَة، وَسْطِيَّة لا يكتفي في شرحها بأنها الفناء الداخلي للمبنى.

و. أهمية ذكر صيغة الجمع المستخدمة وعدم الاكتفاء بصيغة المفرد، ومن هنا أهمية الكلمات:

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

تجهيزات، تداولات، توقعات، توجيهات، تداعيات، اتصالات.

3. يتضح من الأمثلة السابقة أن هناك كلمات كثيرة جديدة، ولكنها على نسق العربية من حيث البنية الصرفية، وثمة صلة بين المعنى الجديد والمعنى القديم. ومن المفيد تكون تصوّر مجتمعي عام بأن هذه الكلمات صحيحة من حيث البنية والدلالة، ولا تتطلب قراراً مجتمعياً في الألفاظ والأساليب. والأمل أن يتكون رأي لغوي واقعي بالنسبة لكل كلمة متفق عليها ونجدها في الصحافة العربية من دول الخليج إلى المملكة المغربية، سواء أكانت من أصل عربي أو غير عربي، ويكون الجهد منصرفاً إلى تدقيق الدلالة الحديثة وضبط التدوين، لا إلى رفض الكلمة المتفق عليها في الاستخدام العربي الحديث. أما الكلمات الفردية والنادرة وغير المتداولة في الاستخدام العربي العام، فإن دخولها المعجم العام يكون موضع نظر. ومن الممكن بحثها بمنهج علمي بعيد عن الانطباعات في ضوء إمكان عمل قاعدة بيانات معجمية للصحافة العربية المعاصرة، وهنا يظهر مدى انتشار الكلمة أو ندرتها تمهيداً للنظر فيها عند الحاجة إليها.

4. دور الصحافة في تكوين المصطلحات الجديدة وألفاظ الحضارة المعاصرة مستمر في القرن الحادي والعشرين، وعلى نحو واضح يفوق ما كان في الماضي القريب. ويتضح ذلك من الملامح الآتية:

أ. زيادة عدد الصحف بقدر كبير في النصف الثاني من القرن العشرين في الدول العربية كلها وظهور الصحافة العربية العابرة للحدود الوطنية، مع إمكانات توزيعها في اليوم نفسه في الأقطار العربية وغير العربية. لقد أصبح دورها حاسماً في متابعة الجديد من المصطلحات وألفاظ الحضارة على المستوى العربي، ومن هنا أهمية الحرص على المصطلح الواحد بقدر الإمكان والتعبير المفهوم في كل البلدان العربية أو أكثرها، وتجاوز المصطلح المحلي بقدر الإمكان.

ب. زيادة مقالات الرأي في عدد من الصحف العربية، وهنا مجال لكبار الكتاب والمفكرين والصحفيين من أقطار عربية شتى. هذه الظاهرة نجدها في مجالات ثقافية خليجية مثل

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

مجلة "العربي". كما خصصت الصحف اليومية الكبرى مثل الأهرام والأخبار من القاهرة صفحات كاملة لمقالات الرأي في كل يوم. هذه المقالات متنوعة المجالات مما يجعلها تضم مصطلحات وتراكيب حديثة في مجالات السياسة والاقتصاد والعلوم الاجتماعية والفكر والدين والأدب والتعليم والرياضة والسياحة والعلم والتقنية غير ذلك.

ج. استمرار الصحافة في التعبير بكلمات عربية عن مفاهيم معاصرة، ونشر مصطلحات مثل الشفافية والعولمة والحوكمة، تسوية، مظاهرة، إعاره، منظمة. إنها كلمات من مواد عربية وأوزان عربية، ولها دلالاتها المعاصرة ويتطلب بحث تاريخ كل كلمة منها الاعتماد على قاعدة بيانات لمعرفة تاريخ ظهور المصطلح ودلالاته. دور الصحافة واضح في نشر المصطلح واستقراره في الاستخدام العام، على نحو يتجاوز كتب المواد المدرسية المحددة.

د. تنوع المستويات اللغوية العربية في الصحافة، لغة الخبر بما تضمه في حالات كثيرة من ملامح الترجمة والصياغة في وكالات الأنباء، ولغة المقال بما تضمه من مصطلحات وتراكيب أساسية، ولغة الإعلان بما تضمه من أسماء مؤسسات ومنتجات و عناوين وكلمات محلية، واللغة المصاحبة للرسوم الساخرة وما يماثلها وما بها من مكونات محلية وعامية وكلمات مصنوعة ودالة تثير الشعور بالمفارقة والسخرية والضحك. وذلك كله في إطار اللغة العربية، أما الإعلانات المنشورة في الصحف العربية بلغة أجنبية فهذا موضوع يتطلب موقفاً ورأياً عاماً، ولا تقتصر هذه المخالفة على الشركات، بل إن بعض الإعلانات تنشرها الحكومات العربية في داخل البلاد بدون اللغة العربية.

هـ. ارتبط استخدام كلمات مُعرَّبة في سياق الإعلانات التجارية في البداية بالأسماء التجارية، وعلى سبيل المثال أكثر دور السينما في القاهرة تحمل أسماء أوروبية وهكذا تنشر الإعلانات عنها في الصحف، وذلك على العكس من أكثر أسماء المسارح الحالية فهي باللغة العربية أو منسوب إلى أعلام عرب. وفي السنوات الماضية قوي الاتجاه إلى تسمية المنتجات الجديدة بأسماء غير عربية، كما زاد الاتجاه في تسمية بعض أسماء الأماكن بأسماء أجنبية، من ذلك أسماء منتجعات الساحل الشمالي غربي الإسكندرية في مصر،

يندر فيها الاسم العربي، وتنتشر عنها الصحف بأسمائها في الإعلانات وكذلك في الحوادث. ونجد في مجالات أخرى كلمات معربة دخلت مستوى الخطاب الثقافي العام، مثل: استراتيجية، ديموقراطية، دكتوراه، تكنولوجيا، تليفزيون، رادار، أوفست، موساد، كونجرس، يونسكو¹. وهي كلمات لها استخدام في المقالات والأخبار.

5. مشكلة التنوع المحلي في الاستخدام اللغوي، ويظهر ذلك - في المقام الأول - في المصطلحات الإدارية وأسماء المؤسسات والألقاب الوظيفية، وهو تنوع مفهوم في أكثر الحالات. ولكن بعض الكلمات المحلية الواردة في الصحف قد لا تكون مفهومة في خارج دولتها، ومن هنا أهمية العبارة الشارحة في السياق، ومن ذلك كلمة جامعة في تونس وأحد معانيها اتحاد رياضي مثل جامعة كرة القدم، وكلمة مخبزة في المغرب بمعنى مكان بيع الخبز. ومن الثنائيات المحلية: ميدان في مصر وبعض الدول، وساحة في لبنان وفي بعض الدول. ومن التعدد أيضاً المصطلحات الإدارية: محافظ في مصر وبعض الدول، والي في دول أخرى، وعامل في المملكة المغربية، وهذا النوع المصطلحي المحلي سببه النظام الإداري وتسمياته.

6. مشكلة عدم توحيد التدوين بالحروف العربية، ويظهر ذلك في الكلمات ذات الأصول الأوربية. صوت (g) نقل إلى الكاف الفارسية أو الكاف العربية، أو إلى الغين أو إلى القاف المثناة. وأدى هذا إلى تعدد تدوين الاسم الواحد: انكلترا، إنجلترا، انقلترا. ونظراً لكثرة ورود أسماء أعلام الأشخاص وأعلام الأماكن والمؤسسات في الصحف العربية وأهمية توحيد ذلك بخطة متدرجة واضحة فإن توحيد تدوينها يتطلب قواعد بسيطة ومعجماً صغيراً لتدوين أسماء

¹ بعض هذه الكلمات مختصرات أوربية تكونت في الإنجليزية رادار = Radio Detecting and ranging = Radar، يونسكو = United Nations Educational, Scientific and Cultural Organisation UNESCO، وبعضها من أصول غير أوربية، مثل موساد، من المادة (ي س د) في العبرية التي تقابل (و س د) في العربية. ومعنى المصطلح العبري الحديث: مؤسسة المخابرات الإسرائيلية (الأمن الخارجي). وانظر أيضاً: محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، القاهرة 1993، ص 171: 172.

الأعلام بالحروف العربية.

سادساً: آفاق البحث والتطبيق

1. البحث المعجمي في لغة الصحافة له أهميته في تاريخ اللغة العربية، ذلك لأن العربية لغة مستمرة وليست لغة قديمة لمرحلة منتهية. الرصيد الأساسي مستمر، ولكن الجديد كثير، سواء أكان بدلالة جديدة أو بتركيب جديد أو بكلمة جديدة أو باقتراض معجمي جديد. إن الصحافة قدّمت للغة العربية اقتراحات كثيرة، منها ما انتهى بعد حين، ومنها ما استقر وأصبح من الرصيد الجديد في اللغة العربية. وهذا جزء مهم من تاريخ العربية، والبحث المعجمي جانب من البحث اللغوي في لغة الصحافة. إن دور الصحافة كبير على المستوى العام، أما المصطلحات العلمية المتخصصة التي لم تدخل في مجال الاستخدام العام فإن لها مكانها في المطبوعات المتخصصة.

2. توحيد المصطلحات الأساسية وألفاظ الحضارة أمر مفيد، الصحافة العربية من أهم مصادر تعرف الفروق والمشكلات والجزئيات والحلول المناسبة. وهذه المصطلحات وألفاظ الحضارة تستوعب كل المجالات من التعليم والرياضة إلى الإدارة والفنون والتجارة والسياحة وغير ذلك. هذه المصطلحات وألفاظ الحضارة التي ترد في الصحافة تصبح في حالات كثيرة من رصيد الاستخدام العام، ومن هنا أهمية توحيد ما لم يُوحّد منها. الإمكانيات متاحة والصحافة تخاطب الملايين.

3. أهمية بناء قاعدة معلومات لغوية للصحافة العربية، وهذا عمل حاسوبي تكونت فيه خبرات منذ نحو أربعين عاماً في مراكز بحوث للغات أخرى، منها - مثلاً - معهد اللغة الألمانية في مدينة مانهايم. ولكن تطور نظام الطباعة بالحروف العربية ونظم الحاسوب المتوافقة معها جعل من الممكن بناء قاعدة معلومات كبيرة جداً، تتجاوز خيال المجتهدين من صناع البطاقات. إن هذا العمل ممكن بنصوص قوامها ملايين الكلمات، تكون أمام الباحثين وصانعي المعاجم للإفادة منها في سياقاتها اللغوية الكاملة وفي مجالات استخدامها. وقد تم

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

- قدر من هذا العمل في مؤسسة حاسوبية عربية كبيرة، وأن الأوان للإفادة منها.
4. أهمية لغة الصحافة في بناء المعجم العربي الحديث. إن المعجم المؤلف للطلاب ولجمهور المثقفين لا يهدف إلى بيان المعاني الغربية والنادرة، التي توجد في معاجم قديمة، بل هو مرجع لغوي ثقافي، مؤلف ليفيد القارئ والكاتب المعاصر. وهناك كلمات وعبارات متداولة بدلالات جديدة: نقرأ عن "أقطاب الإدارة الأمريكية" ولا علاقة لهم بمعنى قطب في الصوفية أو الكهرباء، إنهم الشخصيات البارزة في عالم السياسة. ويبحث القارئ عن معنى "التَّوَحُّد" بصفته مرضاً يصيب الأطفال، ولا علاقة لذلك بالمجال الديني. إن آلاف الكلمات المستخدمة في الصحافة العربية جديرة بشرح واضح وسهل، لتدخل المعجم العربي المؤلف للإنسان المعاصر.
5. أهمية الوعي الجديد باحترام لغة الصحافة، وأنها ليست مجرد وسيلة عابرة للدعاية السياسية في الموضوعات الجارية أو الإعلان التجاري. إن لها أيضاً دورها الحاسم في التنمية اللغوية والثقافية. ومن هنا أهمية التدريب اللغوي المناسب للإعلاميين بهدف تنمية المهارات اللغوية وتنمية المعرفة العلمية بطبيعة اللغة والمصطلحات وألفاظ الحضارة. وفي الوقت نفسه ينبغي أن يتجاوز الفكر مجرد البحث عن الأخطاء وتصويبها إلى التكوين اللغوي الجاد للإعلاميين، ذلك لأن دورهم لا يقل بحال من الأحوال من حيث المتطلبات والمهام عن دور غيرهم من المتعاملين باللغة في مجالات التعليم.
6. العمل الصحفي ليس مستقلاً من الناحية اللغوية كل الاستقلال عن عمل وكالات الأنباء التي يقوم العاملون فيها بدور كبير في الترجمة والصياغة، وعليهم في حالات كثيرة أن يصنعوا كلمات أو تراكييب جديدة. ومن هنا أهمية الثقافة اللغوية الحديثة للعاملين في وكالات الأنباء وفي المجالات الإعلامية الأخرى. وأكثر الأخطاء اللغوية في الأداء الإعلامي لا يكفي في معالجتها طريقة قل ولا تقل، تنمية المهارات اللغوية عمل متكامل يتطلب تدريباً واهتماماً ومتابعة.
7. الاتجاهات المعاصرة والمستقبلية للنشر الإلكتروني لا تقلل من أهمية الصحافة في التنمية

المعجمية، ولكن ظهور الصحافة الإلكترونية إلى جانب الصحافة الورقية يطرح إمكانات جديدة للمتابعة والبحث وحل مشكلات التطبيق.

8. من المهم في إطار الظروف العالمية والمحلية المعاصرة بناء وعي أعمق بدور الصحافة في تنمية اللغة بالجدید، للتعبير عن المفاهيم المتجددة والصناعات المستحدثة، وذلك الوعي هادف أيضاً إلى استمرار اللغة الوطنية أمام هيمنة لغة العولمة - وهي الإنجليزية - واللغات المحلية. هذا موضوع جدير بالتفكير والتخطيط والتنسيق والتنفيذ¹. إن وحدة المصطلح الجديد في كل أقطار العربية قضية مهمة لبناء المستقبل. ليست البلقنة اللغوية قدراً محتتماً كما يتصور بعض الناس في بعض الدول العربية، بل هناك أمثلة مخالفة في دول أخرى حيث أصبحت فيها جماعات لغوية محلية في النسق اللغوي العام في الدولة. وهذا كله يرتبط بوجود سياسة لغوية في إطار رؤية عامة للمستقبل.

¹ عن اتجاهات التغير المعاصرة في الدول الأوروبية، انظر: Mar-Molinero, Cl, and Stevenson, p., Language Ideologies, Policies and Practices, Language and the future of Europe, Palgrave-Macmilan, United Kingdom, 2006.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

اللغة العربية في الإعلام المقروء

أ.د. محمود أحمد السيد

رئيس التحرير

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف أهمية الإعلام في عالمنا المعاصر وموقع الإعلام العربي فيه، وأهمية الإعلام المقروء، ثم نقف على واقع اللغة العربية في هذا الإعلام المقروء، لنصل أخيراً إلى عدد من المقترحات الرامية إلى الارتقاء بهذا الواقع.

أولاً: أهمية الإعلام في عالمنا المعاصر

ليس ثمة من ينكر أهمية الإعلام في عالمنا المعاصر ودوره الكبير في بناء الأمم والقوميات الكبرى في عالم اليوم، ودوره الكبير في التوعية والمراقبة والتنمية، ومن ثمّ في برمجة عقل الإنسان وعواطفه واتجاهاته، إذ إنه بات من الحقائق الكبرى لعصرنا، ودخل في نسيج الحياة وفي قلب الحراك السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي على مستوى الدول وعلى مستوى العالم بمجمله.

ويتميز الإعلام الحديث بتعدد وتنوعه الهائل، فهناك الفضائيات بأنواعها المختلفة، والشابكة «الإنترنت» بكلّ ما تزخر به، والصحافة الإلكترونية، والصحافة العابرة للحدود وغيرها، وهناك الإعلام المتخصص بالأخبار، أو بالموسيقا والغناء، أو بالقضايا الاجتماعية والترفيهية بأشكالها المختلفة... الخ.

ويتمتع الإعلام الحديث بقدرة فائقة على تعميم أنماط العيش والسلوك والاستهلاك السائدة في البلدان المتقدمة، ولا يقتصر تأثيره على المجال الاقتصادي والمعلوماتي، بل يتعدى ذلك

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

إلى مجالات أخرى أشد خطورة، وهي المجال الثقافي والهوية القومية واللغة الأم. وإذا كان عالمنا المعاصر يتسم بأنه عصر العلم والتقانة والتفجر المعرفي والانتشار الثقافي والمواصلات السريعة والتفجر التقني والمعلوماتي، فإن الغزو الثقافي يشهد مع اشتداد مخاطر الغزو التقني، بعد أن أصبحت التقانة في عالمنا المعاصر مسلحة بأسلحة حديثة فعالة عقب انبثاق ثورة المعلومات والاتصال بصورة خاصة. وفي مقدمتها الاتصالات السلكية واللاسلكية ووكالات الأنباء والصحافة والإذاعة المسموعة والمرئية.

وتجدر الإشارة إلى أن «ثورة المعلومات والاتصالات التي يشهدها عالمنا المعاصر لا تتجلى في تنوع وسائل الاتصال ويسر استخدامها فقط، وإنما تتمثل في هذا الكم الهائل والتنوع الشديد فيما تقدمه من معلومات، وما تفرزه من اتجاهات تؤثر في عقول الناشئة ووجداناتهم وقيمهم»¹.

ولما كان الإعلام بمختلف وسائله يؤثر في عقول الناس واتجاهاتهم ووجداناتهم كان ثمة من يرى أن الإعلام المقروء أشد تأثيراً من الكلمة المسموعة، إذ ورد في المثل الصيني «أسمع فأنسى، أقرأ فأنتذكر»، وهذا ما يدفع بنا إلى الموازنة بين الكلمتين المسموعة والمقروءة عبر وسائل الإعلام.

ثانياً: أهمية الإعلام المقروء

ليس ثمة اختلاف جوهري بين البشر أكثر من الاختلاف بين «من يستطيعون القراءة والكتابة، ومن لا يعرفون ذلك، فالأخرون لديهم العادات وليس القوانين، والأساليب وليس العلم، والدين وليس الأحوال الفقهية»².

والواقع أن البشرية مدينة لهؤلاء الذين اخترعوا الأبجدية، وعلموا العالم الكتابة، ولولا

¹ الدكتور محمود أحمد السيد، في الإعلام التربوي، مطبعة العجلوني، دمشق 2001 ص38.

² ف. ماسجروف، التربية والإنتربولوجيا، الثقافات الأخرى والعلم، اليونسكو 1992 ص17.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الكتابة لظلت البشرية تعيش في العصر الحجري، ولولاها لكان الظلام أهلك ظلمة، ولكانت مخاوفنا أشد خطراً، فالكتاب بالضرورة نشاط إنساني، والقدرة على القراءة والكتابة تمنحنا أملاً عظيماً وفرصة أكبر في إدراك كنه الحياة وصنعها.

ويمكننا أن نتصور دور الكلمة المكتوبة في حياتنا إن أصبحنا في يوم من الأيام، وإذا المواد المكتوبة قد اختفت من أماننا، فلا صحف ولا مجلات ولا مراجع ولا سجلات ولا نشرات ولا مطويات ولا إعلانات ولا موسوعات فماذا يحدث لنا؟ ماذا نعلم في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا؟ وكيف نطلع على ما يجري من حولنا من مناشط فكرية؟ وكيف يتسنى لنا معرفة النشاط الإنساني في المجتمعات الأخرى؟

لاشك أننا سنرد إلى حياة بدائية قريبة من تلك التي كان عليها أجدادنا القدماء قبل آلاف السنين، ولقد كان مصيباً رسول حمزاتوف عندما يقول: «إن تاريخ العالم كمصير أي إنسان يجب أن نقسمه إلى قسمين: قبل ظهور الكتاب وبعد ظهوره، الحقبة الأولى ليل، والثانية نهار ساطع، الحقبة الأولى واد ضيق مظلم، والثانية سهل واسع أو قمة جبل.

وفي عالمنا المعاصر انتشرت الكلمة المكتوبة انتشاراً واسعاً، وليس ثمة مكان في هذا العالم لم تصل إليه الكلمة المكتوبة فهي في السماوات، وهي متناثرة فوق بقاع الأرض كافة وفي قاع المحيطات، بل إن هناك كلمات مطبوعة فوق قمة «أفريست» وها هو ذا «بولا» مؤلف كتاب «المرجع في جهود محو الأمية من منظور القاعدة الميدانية»¹ الصادر عن اليونسكو يقول: لقد شاهدت بعيني كلمات مكتوبة وسط صحراء «كلهاري»، كما أن الكاتب القاص الفرنسي «جول فرن» يشير إلى وجود الكلمات في باطن الكرة الأرضية وذلك في إحدى قصص الخيال العلمي التي ألفها.

وقراءة الكلمات المكتوبة تكون الرجل الكامل، والتشاور يجعله رجلاً مستعداً، والكتابة

¹ بولا، المرجع في جهود محو الأمية من منظور القاعدة الميدانية - اليونسكو، ترجمة صالح عزب، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، دمشق 1998.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

تجعله دقيقاً على حد تعبير «فرانسيس بيكون». أما «فيكتور هوغو» فقد قال: «إن الإنسان الذي يستطيع القراءة هو إنسان كتبت له النجاة»، فهو يرى ببصيرته الفذة أن القراءة بمعناها الواسع ليست قراءة الكلمات بهدف التعرف بالذات، وبالمجتمع وتاريخه فقط، بل إنها تعني كذلك قراءة العالم وقراءة الآخرين - جميع الآخرين - بغية الالتحام معهم في إطار المعرفة والاحترام والمحبة، كما أنها تعني في نهاية المطاف القراءة من أجل النجاة من الاضطهاد والتبعية والجوع. إن عبارة «هوغو» تشمل كل شيء: التربية والثقافة والتنمية¹.

وعندما سئل «فولتير» عن سيقود الجنس البشري؟ أجاب: «الذين يعرفون كيف يقرؤون ويكتبون».

وربط «توماس جيفرسون» الرئيس الأمريكي الثالث بين القراءة والحرية قائلاً: «إن الذين يقرؤون هم الأحرار فقط، ذلك أن القراءة تطرد الجهل والخرافة معاً، وهما من ألد أعداء الحرية»².

ولقد كانت فاتحة الرسالة الإسلامية كما هو معروف لدينا جميعاً «اقرأ باسم ربك الذي خلق» لأن القراءة سبيل الإنسان لفهم الكون والنفس والمجتمع والحياة.

ولو رحنا نوازن بين الكلمة المسموعة والكلمة المقروءة لوجدنا أن الكلمة المطبوعة من أئمن ممتلكات الإنسان، وخير ما أنتجته الحضارة الإنسانية للعالم، والمكتبة هي الذاكرة الوحيدة المستمرة للفكر الإنساني كما يقول شوبنهاور. ومن ناحية أخرى نجد أن الثقافة المسموعة والمرئية عبر الإذاعة والتلفزة والقنوات الفضائية لا تغني عن الثقافة المكتوبة، لأن درجات الحرية في القراءة أكثر منها في الكلمة المسموعة والمرئية، إذ إن الوسائل المسموعة لا تتيح للسامع اختيار المسموع أو الشاهد كما هي الحال في القراءة، لأن الاختيار يقوم به سواه، وإذا

¹ فريدريك مايور، تقرير الدورة الثالثة والأربعين من المؤتمر الدولي للتربية، جنيف، أيلول 1992 ص6 من الملحق رقم 4.

² الدكتور محمود أحمد السيد، تعليم اللغة العربية بين الواقع والطموح، دار طلاس، دمشق 1989 ص149.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

كان ثمة حرية فإنها محدودة، على حين أن حرية القارئ أوسع دائرة، فهو يختار بحريته ورغبته ما يشاء، كتاباً أو صحيفة أو مجلة، كما يختار ما يشاء من صحف ومجلات في هذا الميدان من ميادين المعرفة أو في غيرها، كما أن اختيار المقروء يحقق للقارئ تنوع المعرفة وتعددتها في ضوء ميوله واهتماماته وحاجاته.

يضاف إلى ذلك كله ميزة اقتناء المادة المكتوبة خلافاً للكلام المسموع الذي لا يمكن الرجوع إليه بعد بثه إلا إذا كان مسجلاً على شريط، ومع ذلك تبقى هذه التسجيلات دون مستوى القراءة من حيث العمق والامتداد، فضلاً عن أن المادة المكتوبة تزود القارئ في سطور قليلة بعدد من الفكر والصور والأخيلة والثروة اللفظية والقوالب اللغوية، وتتيح له بسهولة التعمق في تمثل المقروء وإدراك مرامييه القريبة والبعيدة، خلافاً للكلام المسموع الذي يتعرض للنسيان أكثر من المقروء كما سبقت الإشارة، وما يزال أحدنا يتذكر قصة أو رواية أو قصيدة شعرية قرأها في مراحل حياته الأولى أكثر مما يتذكر فيلماً شاهده قبل خمس سنوات أو أقل.

وتؤثر الكلمة المطبوعة في عقول الناس وعواطفهم وسلوكهم وأفعالهم، وهي تخلو من الصوت، مما يجعل لها ميزة مساعدة القارئ على تحديد سرعته وإعادة قراءته والتمهل والتوقف كما يريد، وتتيح له اتخاذ الوضعية التي تناسبه في أثناء القراءة واختيار الوقت اللازم لقراءته.

ومن الملاحظ أن قراءة الأخبار عبر المنافذ الإلكترونية واللاسلكية سيصبح أكثر شيوعاً من قراءة الصحف المطبوعة، وستكتسب الصيغة الرقمية للصحف الأهمية ذاتها التي تنتم بها الصيغة المطبوعة لها، إن في عدد القراء أو في حجم العوائد، وها هي ذي الأجهزة المحمولة بمنزلة البوابة التي توصل حاملها إلى عالم وسائل الإعلام، وستحل محل المجلات المطبوعة، وسيحصل على ما يريد من أخبار من خلالها، ومن مجموعة واسعة من المصادر، إذ يضم المحتوى مزيجاً من النصوص والصور الثابتة والتسجيلات المرئية والمسموعة

والبرامج التفاعلية¹.

وتجدر الإشارة إلى أن دفء العواطف الإنسانية التي تقدمها القراءة في الكتب والصحف والمجلات المطبوعة، وتلمس نبض الكاتب ومشاعره الإنسانية ومكابدته ومعاناته من خلال كتاباته تبقى أموراً تختص بها القراءة في الأعم الأغلب.

ثالثاً: واقع اللغة العربية في الإعلام المقروء

إذا رحنا نتعرف واقع اللغة العربية في الإعلام المقروء في الصحف والمجلات والإعلانات والمطويات وعلى الشبكة (الإنترنت) فإننا نلاحظ أن هذا الواقع يشكو الفاقة من ناحية، إن من حيث العدد أو المضمون، كما يشكو التلوث اللغوي من ناحية أخرى، إن في الأخطاء اللغوية أو في استخدام العامية أو في استخدام الكلمات الأجنبية مع توفر البديل العربي لها، أو في كتابة الرسائل والتعليقات على مواقع الشبكة بالحرف اللاتيني، أو باستخدام رموز كتابية تتأى عنها العربية، وفيما يلي وقفة على كل من النقاط السابقة:

1. الفاقة من حيث العدد: تشير الإحصاءات إلى أن في الوطن العربي نحواً من 520 صحيفة يومية وأسبوعية، وهو يوازي تقريباً عدد المطبوعات في دولة نامية مثل باكستان التي يصل عدد الصحف اليومية فيها إلى 195 صحيفة، وعدد الصحف الأسبوعية إلى 356 صحيفة.

ويوجد في الوطن العربي نحو 62 مجلة مخصصة للأطفال منها ما بين 10 إلى 12 مجلة فقط تحمل صفة عربية أي توزع عبر أقطار الوطن العربي، والبقية محلية التوزيع. وهذا العدد أقل من نصف عدد المجلات المخصصة للأطفال في دولة صغيرة مثل الدانمارك التي لا يزيد عدد سكانها على خمسة ملايين نسمة، حيث يصل عدد المجلات المخصصة للأطفال منها إلى نحو 180 مجلة

¹ أحمد جلفار، تعزيز الإعلام العربي عبر الإنترنت، بحث في كتاب الإعلام العربي في عصر المعلومات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة الأولى - أبو ظبي 2006 ص 205.

أسبوعية وشهرية.

ولم تقتصر الشكوى على ضالة نسبة ما ينشر من صحف ومجلات على الصعيد القومي، وإنما جاوزت ذلك إلى ضالة ما ينشر على الشابكة (الإنترنت) باللغة العربية، إذ تدل الإحصاءات على أن لغة المحتوى هي الإنجليزية أولاً ونصيبها 67% في حين أن نسبة المحتوى الرقمي بالعربية 1.5%، وهذا يدل على حجم التقصير الكبير الذي يعزل نحواً من 80% من أبناء الأمة العربية عن دخول هذه المدارات الموفرة بالمعرفة في حدودها الكونية، كما أن عدد المستخدمين العرب للشابكة أقل من 2%، مع أن عدد الناطقين بالعربية يصل إلى 5% من سكان العالم¹.

2. الفاقة من حيث مضمون الثقافة الجادة: أسهمت ثورة الاتصال والمعلومات في إحداث تحول على المشهد الإعلامي العربي في العقدين الأخيرين، فنشأ ما يسمى «إعلام الموجة الجديدة» المتمثل في القنوات الفضائية العربية والصحف والمجلات الإلكترونية والمواقع الإخبارية على الشابكة (الإنترنت).

بيد أن تقرير التنمية الإنسانية العربية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي عام 2003 أشار إلى ضعف البيئة الإعلامية المحفزة إلى اكتساب المعرفة في المجتمعات العربية، والدليل على ذلك ندرة البرامج التربوية والثقافية والتعليمية، الهادفة والجادة في الغالب، على شاشات القنوات الفضائية العربية على سبيل المثال، بل إن المحتوى الإعلامي العربي متخم بأشكال التسلية الغثة والرخيصة التي يتعاطم فيها الإمتاع الحسي على حساب اكتساب المعرفة وتنمية العقل، وهو ما يؤدي إلى تبعات خطيرة على عقل المستقبل العربي وقيمه².

وتدل الملاحظة على أن الإعلام المرئي أشد فقراً من الإعلام المطبوع في الضوابط الأخلاقية

¹ الدكتور منصور فرح، اللغة العربية على الإنترنت/منظور إقليمي، المؤتمر الوطني الأول لصناعة المحتوى الرقمي العربي بدمشق - حزيران 2009.

² أحمد جلفار، تعزيز الإعلام العربي عبر الإنترنت، ص12.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

والمهنية والصدقية نتيجة للسرعة التي يتميز بها الأول في ملاحقة الأحداث، ولكن ثمة من يلاحظ أن الثقافة الجادة تتراجع إلى موقع هامشي جداً في الإعلام العربي المقروء والمسموع والمرئي، ولا يكفي أن تصدر بعض الصحف ملاحق ثقافة، أو أن تخصص بعض المجلات صفحات للمنتج الثقافي.

وها هم أولاء شبابنا العرب يعرفون أدق التفاصيل عن الفنانين والرياضيين العرب ونشاطاتهم، ولا يعرفون شيئاً عن العلماء والباحثين العرب الذين لا ترحب بهم أكثر وسائل الإعلام العربية على حد تعبير الدكتور علي فخرو.

ويزداد الأمر تفاقمًا عندما يركز الإعلام العربي على قضايا دينية هامشية وعلى قضايا غيبية لا تمت بصلة إلى عقلانية القرآن وصرامة منهجه في بناء الإنسان المتوازن والمتكامل والمتطور من جميع الوجوه جسمياً وعقلياً وعاطفياً واجتماعياً وجمالياً وإنسانياً.

ويرى بعضهم أن «ثمة ثنائيات عديدة تتحكم في الإعلام العربي، وتتحرك به صعوداً وهبوطاً، فقد يحصل الإعلام على قدر أكبر من الحرية فنقل الهيمنة الحكومية، ولكنه يصبح أقل اهتماماً بالثقافة الرفيعة، وقد يحقق مستوى أعلى من المهنية، ولكن على حساب الحقيقة، فيصبح التلاعب أكثر ذكاءً وأشد خطراً على الوعي الفكري والسياسي للمواطن، وقد يتاح مجال أوسع للقطاع الخاص في الحيز الإعلامي، ولكن الرسالة الإعلامية تتجه نحو الطابع التجاري الاستهلاكي الرخيص»¹.

وإذا وقفنا على الإعلام المقروء في الوطن العربي في الصحف والمجلات والمطويات والإعلانات وعلى الشائكة، فإننا نلاحظ أن «التوسع على مستوى الصحافة المطبوعة يحدث في الصحف الشعبية الأكثر استعداداً لمخاطبة الغرائز الجنسية والمنحطة ثقافياً مثل تلك التي تركز على التحريض العلني على الشخصيات ومحاولة اغتيالها معنوياً، والشائعات والصور

¹ الدكتور محمد السيد سعيد، الاتجاهات والقوى الجديدة في فضاء الإعلام العربي، بحث في كتاب الإعلام العربي في عصر المعلومات، ص 45.

الخليعة والأخبار غير المحققة عن فضائح فساد وتحلل أخلاقي وسرقات، وغير ذلك من أمور يفترض أنها تجد هوى عند كثير من الفئات الشعبية ذات الوعي والتعليم المنخفض، ووصل حال بعضها إلى حد التحريض على الفتن الطائفية والعنف والتشهير بكل الوسائل»¹.

ومن الملاحظ أن «معظم الاهتمامات في المجالات الموجهة إلى المرأة منصب على فنون الزخرفة (الديكور) والطبخ وآخر صحاحات الموضة وأدوات التجميل والطلاء البهية وأخبار الفنانين والفنانات والمطربين والمطربات.. الخ دون أي توجه لمناقشة بعض القضايا والمشكلات الجادة والحادة التي تعيشها المرأة العربية، بدءاً من حقها في التعليم، مروراً بحقوقها المدنية الأخرى ووصولاً إلى حقوقها في المشاركة السياسية»².

أما المادة الإعلامية على الشبكة «الإنترنت» فإننا نلاحظ أنها تحمل بذور قوة تحديثية في الوطن العربي، فمن الممكن أن تفيد في توفير المصادر التعليمية النادرة، وتوفير نماذج ووسائل للترفيه، وتستخدم الشبكة وسيلة اتصال بين الناس الذين تفصلهم الجغرافيا والسياسة والثقافة والجنوسة Gender.

وإذا كان الإعلام الإلكتروني يقدم قدراً كبيراً من المعلومات، إذ إن الشبكة يعتمد عليها في إجراء البحوث حالياً فإن هذا الإعلام قد أسىء استخدامه، إذ إن الجماعات الإرهابية تستغل الشبكة على أنها وسيلة إعلامية لبث أفكار التطرف ومشاهد القتل والصراعات الطائفية فضلاً عن الإباحة الجنسية وعدم وجود ضوابط تحكم الإعلام العربي.

3. التلوث اللغوي: ويتجلى هذا التلوث في:

أ. الأخطاء اللغوية والنحوية: طالما ظننا أن الإعلام المقروء في الصحف والمجلات والإعلانات واللافتات يكون في منأى عن الأخطاء اللغوية والنحوية مادام ثمة مدققون لغويون في تلك الصحف والمجلات وغيرها، ولكن خاب ظننا عندما أخذنا عينة من

¹ المرجع السابق ص55.

² الدكتور علي الشعبي، دور وسائل الإعلام بين التنقيف والترفيه، ص171.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

المواد الواردة في عدد من الصحف والمجلات المحلية الصادرة في الجمهورية العربية السورية، إذ وجدنا فيها من الأخطاء اللغوية غير الشائعة، وإنما ما يتعلق بالأساسيات، العدد الذي لم يكن ليخطر على بالنا، وما هي ذي نماذج من هذه الأخطاء:

العدد 10673 من جريدة البعث: ورد تحت عنوان «الطريق إلى دمشق»: من الجدير أيضاً التوجه إلى الساحل حيث تتواجد مدن مثل طرطوس التي يمكن أن تكون القاعدة للانطلاق منها لزيارة قلعة الحصن أحد القلاع العائدة للقرون الوسطى شرق المتوسط.

• وورد تحت عنوان «يوميات»:

فما نحن في آخر الأمر إلا مواطنين
لا تزيد عن ثلاث ساعات

وبعض هذه الأخطاء لغوي شائع مثل «تتواجد» و«زاد عن»، وبعضها نحوي مثل «ما نحن إلا مواطنين وصوابها مواطنون، وأحد القلاع وصوابها إحدى القلاع».

العدد 27 من مجلة الثقافة الأسبوعية - السنة الحادية والأربعون: ورد تحت عنوان «أديب عزت في رحاب الله»: حقاً كان الأديب ودوداً لكل أصدقاءه ومعارفه، وصعدت روحه إلى بارئها عن خمسة وخمسين سنة، وداعاً أبو الفتوح.

• وورد تحت مقالة عنوانها «في ذكرى ميسلون»:

يجهل كيفية البناء للمستقبل معتمداً على دروس الماضي متلافياً أخطاؤه.

كانت البلاد والشعب العربي واقع في بلبلة فكرية.

كان هناك جواباً.

وأربعة طائرات.

52 قتيلاً و200 جريحاً

• وورد في مقالة عنوانها «إحياء ذكرى»:

كان شعر عمر بديهي وارتجالي

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

لم يحتذى كلام من كان قبله

فيذكر محاسن الأخلاق ومساوئها

• وورد تحت عنوان كيف تكسب الأصدقاء؟

كيف تنتقد الآخرون؟

• وتحت «الإعلانات»:

تكرر الخطأ في تمام الساعة الثانية عشر أربع مرات

العدد 242 من مجلة «سالب موجب» الصادرة يوم السبت في 2010/2/13

ورد في الصفحة السادسة تحت «جرائم الشرف»:

- إن الكثير من الناس يبادرون إلى الأخذ بالشرف بطريقتهم الخاصة لغسل العار بشكل منافي للأخلاق والقوانين وجميع الشرائع السماوية.

- حيث اتفق الطرفين

• وورد في الصفحة السابعة:

وما تحمله من مآسى

لم تزده سوى همأ

تبادر إلى مسمع أبا دريد

ليحال الاثنين

كان وقع الأقدام عائداً

وورد في الصفحة العاشرة:

في أثناء إعطاءه محاضرة

لشتمه أبو الفقر

• وورد في الصفحة الحادية عشرة:

لماذا لا تطلبي منا أن نحلم إلا في القمة

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

هو الصوت الذي لم يعد أحد معنى به

ونظراً إلى كون الرقم غريب

وورد في الصفحة الخامسة عشرة:

حين نرى في نهارنا شيء غير طبيعي

إن الله في خلقه شؤون

وورد في الصفحة السادسة عشرة:

28 يوم من العطاء

في كل عشرين ليتر

ويبدو من إنعام النظر في هذه الأخطاء أن ثمة غياباً للمدقق اللغوي، وأن ثمة تفلتاً من مسؤولية الكلمة وفنوراً في الإحساس بالمسؤولية تجاه اللغة القومية.

ب. استخدام العامية: كان يظن أن العامية تستخدم في الإعلام المسموع وليس في الإعلام المقروء، وأن استخدام العامية في الكلمة المكتوبة خط أحمر لا يجوز تجاوزه، إلا أننا لاحظنا أن ثمة استخداماً للعامية في بعض الصحف والمجلات، وبعضها يتسم بالرزانة في معالجة الموضوعات التي ينشرها، فمجلة «طبيبك» هي مجلة مرموقة في ميدانها، ولكننا لا نجد أي مسوغ لنشرها شعراً في العامية عنوانه «آه يا حبيبي» على النحو التالي:

وبتمنى عيش بقربك

ضايح.. تايه.. وملبك

بضحكك ما بتضحك

بلكي ببيستوي بلحك

أنا شمسك وقمرك

وهيدي غاية لا تترك

آه يا حبيبي شو بحبك

بس يا حبيبي ليشك هيك

ما فيني داوي جراحك

بلحي استوى، وعما استنى

راسي بحطو على صدرك

بدك ترضي كل الناس

ولا نجد أي مسوغ لنشر جريدة «تشرين» وهي جريدة مرموقة في ميدانها أيضاً بيتين من

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الشعر بالعامية في أحد أعدادها:

قالت مشبيك سكرّ عليك الطريق وصار في كرم الهوى غصنك عتيق
قلتها كل ما يبس عود الحطب بيصير عندو قابلية تلهريق

وإذا كان من أهداف الإعلام المقروء الارتقاء بأذواق العامة إلى جمال الفصيحة ودقتها في التعبير ونساعة الأسلوب فإن في نشره العامية هبوطاً بالذوق العام، وأين هذا الهبوط بالذوق العام من قول الشريف الرضي:؟

أقول وقد أرسلت أول نظرة ولم أر من أهوى قريباً إلى جنبي
لئن كنت أخليت المكان الذي أرى فهبهاش أن يخلو مكانك من قلبي
وكننت أظن الشوق للبعد وحده ولم أدر أن الشوق للبعد والقرب
خلا منك طرفي وامتلا منك خاطري كأنك من عيني نقلت إلى قلبي

ج. استخدام الكلمات الأجنبية مكان العربية: ثمة شعور بالانبهار أمام الثقافة الأجنبية، وإنك لو اجد نفراً من أبناء الأمة يستخدم الكلمات الأجنبية على الرغم من توفر البديل العربي لها، ولكنه يأنف من استعماله، وها هو ذا مدير تحرير مجلة سالب موجب يقول في إحدى مقالاته: «فجأة تفقد الرجل موبايله متزراً بنسيانه، ثم تناول الموباييل: ونسأل مادام البديل العربي متوفراً إذ إن هناك: الهاتف المحمول، والهاتف الجوال، والهاتف النقال، والخلوي، وكلها أبدال عن الكلمة الأجنبية، فلماذا يستخدم الكلمة الأجنبية ولا يستخدم الكلمة العربية؟

وهذا ما نعانیه في استخدام اللغة العربية في البيئة على واجهات المحال التجارية والمنشآت السياحية والخدمية، إذ إن نفراً من أصحاب المحال التجارية يعارض التسمية العربية ويصر على استخدام التسمية الأجنبية، ففي حملة التمكين للغة العربية تنفيذاً لبنود خطة العمل الوطنية السورية

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

لتمكين اللغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها¹، والتي وضعت بناءً على القرار الجمهوري ذي الرقم 4 لعام 2007، طلب إلى أصحاب المحال التجارية الذين يستخدمون التسميات الأجنبية على واجهة محالهم أن يعملوا على تعريبها، وإذا صاحب محل (Cute) يكتب «كيوت» بالحروف العربية ويبقي اللفظ الأجنبي قائلاً: «إن الاسم الأجنبي أكثر موسيقية وهو اسم محبب، وكل الزبائن اعتادوا فلن يعرفوا المحل إذا أصبح اسم (لطيف) مكانه».

ويقول مدير محل (Radiant Man): «إنني دفعت مبلغاً مالياً لحماية الملكية بهذا الاسم، وسأدفع مبلغاً آخر لحماية الاسم الجديد في حال الترجمة للعربية «الرجل المشرق»، لذا آثرت أن أكتب على اللوحة (ريدينت مان)، والإبقاء على الاسم الأجنبي كونه سلساً وجميلاً أكثر من العربي». ويعلل صاحب محل (فيولاسيكريت) سبب اختياره للاسم الأجنبي قائلاً: «إنه اسم موسيقي ولطيف ويجذب الزبائن، ولن يبدو حلواً ويجذب الزبائن بالدرجة نفسها إذا وضعت (سرفيولا) في ترجمته إلى العربية».

ويوافقه على رأيه مدير محل (إليغانس) الذي يرى اسم المحل الحالي جذاباً للزبائن أكثر مما لو كان بالعربية (الأناقة)، ومدير محل «Virgin» الذي قال «إنني اخترت الاسم الأجنبي منذ سنوات تيمناً ببرجي الفلكي «العذراء»، وأفضل التسمية الأجنبية كونها أجمل من العربية».

وثمة آلاف النماذج على نطاق الساحة القومية تدل على سوء استخدام الثنائية اللغوية إن في الإعلانات أو في الصحف أو على واجهات المحال التجارية والأماكن العامة، ففي شوارع القاهرة كما يقول الزميل الدكتور أحمد درويش، فروع لمحل بيع ملابس المحجبات، ومعنى هذا أن زبائنه بالدرجة الأولى من المنتميات إلى المحافظة على التقاليد الإسلامية ومن بينها اللغة بطبيعة الحال، والمحل من ناحية ثانية ليس فرعاً لمؤسسة دولية تحمل اسماً تجارياً أجنبياً تتطلب بعض الضرورات التمسك به وكتابتها بين الكلمات العربية التي تحمل اسم المحل واسمه الذي اختاره له

¹ الدكتور محمود السيد رئيس لجنة التمكين للغة العربية، خطة العمل الوطنية للتمكين للغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها، الطبعة الثانية، دار هارون الرشيد لنشر العلم والمعرفة، دمشق 1430 هـ 2009م.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

صاحبه هو «السلام»، ولكن الثنائية اللغوية تحققت في التركيبة العجيبة التي تصدرت في النهاية واجهة المحل فأصبح اسمه «السلام شوننج سنتر لماليس المحجبات» حاملاً معه كل التناقضات، وكل ما ينزع عن اللغة جانباً كبيراً من هويتها وانتمائها حتى لدى أشد الناس ادعاء بالتمسك بتقاليدها¹.

وإذا ما انتقلنا إلى الشبكة «الإنترنت» فإن جل ما يبعث به من رسائل الكترونية قد كتب بلغة هجينة ركيكة الأسلوب، وبالعامية المبتذلة أو باللغة الإنجليزية، وأحياناً بلغة فصيحة زاهرة بالأخطاء اللغوية، وأحياناً بلغة فصيحة أو عامية ولكن بحروف لاتينية!

رابعاً: من سبل الارتقاء بواقع العربية في الإعلام المقروء

ثمة سبل متعددة يمكن اتباعها للارتقاء بواقع الإعلام المقروء، ومن هذه السبل تنمية الإحساس العالي بمسؤولية الكلمة الفصيحة صحة وسلامة ومضموناً، والمراجعة اللغوية الدقيقة لما ينشر في الصحف والمجلات والإعلانات، ووضع تشريعات ناظمة، والتنسيق بين جميع الجهات المعنية بالإعلام من جهة وبينها وبين المنظمات والوزارات والاتحادات والنقابات والجمعيات... الخ من جهة أخرى بغية العمل على تنقية البيئة اللغوية من التلوث، إضافة إلى إقامة دورات تدريبية للعاملين في مجالات الإعلام المقروء لتبصيرهم بالأخطاء الصارخة والشائعة وكيفية معالجتها، والتشدد في انتقاء العاملين في الإعلام المقروء على أساس الجدارة والكفاءة. وفيما يلي تبيان لكل من المقترحات السابقة.

- تنمية الإحساس العالي بمسؤولية الكلمة الفصيحة: إذ إن لتنمية الإحساس العالي بمسؤولية الكلمة علاقة وثيقة بالشعور بالانتماء إلى الأمة ولغتها القومية، وإن الواجب القومي يدعونا إلى الحرص على سلامة اللغة من جهة لعلاقة هذه السلامة بالمعنى، والحرص على التمسك بالكلمة

¹ الدكتور أحمد درويش، التحديات اللغوية العامة للعربية المعاصرة، الوثيقة الإقليمية لمناهج تعليم وتعلم اللغة العربية، مبادرة الجمعية العربية لضمان الجودة في التعليم، دار الشروق 2009.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الفصيحة من جهة أخرى، نظراً إلى أن الفصيحة عامل توحيد بين أبناء الأمة، وهي لغة القرآن الكريم الذي نزل به الروح الأمين على قلب الرسول العربي الكريم ﷺ آية لنبوته وتأييداً لدعوته ودستوراً لأمنته.

وإذا كان الحرص على الغذاء الفكري الذي يقدمه حملة الأقلام للناس أمانة في أعناقهم من حيث استناده إلى ثروة خلقية، فإن الحرص على دقته اللغوية وسلامته من اللحن والخطأ لا يقل عن سمو المعنى وغنى الزاد الفكري نظراً إلى الارتباط الوثيق بينهما.

ولما كان الله قد أقسم بالقلم في قرآنه الكريم دلالة على سمو الأمانة المنوطة به فإن على حملة الأقلام أن يقدروا المسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقهم في التحكم بالغذاء الفكري للناس، وأن في أعناقهم أمانة الوفاء لرسالتهم، وأن عليهم أن يكونوا أهلاً لحمل هذه الأمانة.

- **المراجعة اللغوية الدقيقة لما ينشر:** إن مسؤولية الكلمة تستلزم الحرص على سلامة اللغة وصحتها، وهذا يتطلب توفر المدققين اللغويين في الإعلام المقروء حتى يضطلعوا بدورهم في المراجعة اللغوية بكل عناية واهتمام وشعور عال بالمسؤولية.

- **وضع تشريعات ناظمة:** إذا كان ثمة فتور في الانتماء، وثمة تقلت من معايير اللغة وقواعدها، كان وضع تشريعات ناظمة تضع حداً للاعتداء على حدود اللغة من الأهمية بمكان، ذلك لأن اللغة حدوداً كحدود الأرض للوطن لا يجوز أن تترك مباحة لكل دخيل من أي باب جاء، وعلى حملة الأقلام، لا بل على أبناء الأمة كافة، مسؤولية حماية حدود اللغة العربية التي هي الوطن الروحي لأمتنا العربية.

- **إقامة دورات تدريبية للعاملين في مجال الإعلام المقروء:** وتهدف هذه الدورات إلى تنصير هؤلاء العاملين بالأخطاء الشائعة وكيفية معالجتها، وإكسابهم المهارات اللغوية الأساسية في القواعد النحوية والإملائية، على أن يعد إتقان المهارات اللغوية عاملاً أساسياً في الترقية ومنح المكافآت المادية والمعنوية.

كما تهدف هذه الدورات إلى تزويد العاملين في مجال الإعلام المقروء بأساليب الكتابة العلمية والدقة في اختيار الألفاظ الدالة والمعبرة عن المعاني، وتهدف إلى إكسابهم مهارات القراءة الناقدة

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

في عصر اختلطت فيه الأوراق، واختلت فيه المعايير، واضطربت فيه المفاهيم.

- انتقاء العاملين في الإعلام المقروء على أساس الجدارة والكفاية: انطلاقاً من الإحساس العميق بمسؤولية الكلمة، وحرصاً من القائمين على أجهزة الإعلام المقروء على سمعة مؤسساتهم وصحة اللغة التي يستخدمونها ودقتها وسلامتها، كان لا بدّ من انتقاء العاملين في الإعلام المقروء صحفاً ومجلات ونشرات وإعلانات.. الخ على أساس الجدارة والكفاية، لأن فاقده الشيء لا يعطيه.

ومن هنا كان إخضاع المتقدمين للعمل في هذه المؤسسات الإعلامية إلى لاختبارات ومقابلات موضوعية يختار في ضوءها ذوو الكفايات العالية المتميزة أمراً لازماً تستدعيه المصلحة الوطنية والقومية وطبيعة العصر التي لا تقيم وزناً إلا للأذكاء المتفوقين والمبدعين.

- التنسيق بين جميع أجهزة الإعلام والمنظمات والاتحادات والنقابات: ذلك لأن التنسيق بين هذه الجهات كافة والإعلام يؤدي إلى تحقيق الأهداف إذا ما كان ثمة تخطيط لغوي، يضطلع كل طرف بدوره في تنفيذ الخطة اللغوية الرامية إلى النهوض باللغة العربية والتمكين لها، أما ما نلاحظه على صعيد الساحة القومية فهو غياب هذا التنسيق، وغياب الخطة اللغوية، وثمة مؤسسات تعليمية تعمل جاهدة على ملء القربة من فوق، فتحدث مؤسسات أخرى في القربة ما استطاعت من تقوب، أولئك يبنون السفينة أو يحاولون بناءها، وهؤلاء يخرقون أطرافاً منها دون أن يجدوا من يأخذ على أيديهم. ويعود الجهد العربي الضائع على نحو ما يبدو في كثير من المساحات الأخرى حقيقة ماثلة، ويوشك أن ينتهي المرء إلى أن كثيراً مما تقوله الصحافة وكثيراً مما تذيعه الإذاعة وكثرة فاحشة مما يقوله المسرح إنما هو نقيض الذي تقيمه المؤسسة التعليمية إذا أحسنا الظن أن هذه المؤسسة تقوم بدورها في التمكين للغة العربية.

- العمل على زيادة عدد الصحف والمجلات المطبوعة: على أن يقوم القطاع الخاص والجمعيات بدورها في هذا المجال إرضاء للميول، واستجابة للحاجات المعرفية.

- السعي الحثيث إلى زيادة نسبة المحتوى الرقمي العربي على الشبكة «الإنترنت».

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

- تعزيز الحفاظ على الحرف العربي في الصحف المهاجرة: في الدول الأوربية وفي الأمريكيتين ربطاً لأبناء الجاليات العربية بلغتهم وقضايا أمتهم.

الهوية اللغوية في الإعلام العربي

د. أحمد بن محمد الضبيب

المملكة العربية السعودية

إن الحديث عن الهوية، مفهومها وأنواعها، وأطوارها حديث فلسفي واجتماعي، خاض فيه الباحثون من الدارسين للسلوك الإنساني كثيراً، وتناولوه من جوانب مختلفة. وهو موضوع مازال يثير كثيراً من التساؤلات والنقاش، ويمتد الحديث فيه بلا انقطاع.

وفي ظل العولمة وانهيار السدود وفتح الحدود، والقفز على الحواجز بين الشعوب والثقافات، وتدفق الأعداد الهائلة من البشر على مناطق لم يكن لهم بها عهد، ولم يكن لها بهم عهد، أصبح الحديث عن الهوية بجوانبها المختلفة، من ثقافية وقومية ووطنية، مثيراً ومتصاعداً.

ومن أوضح ذلك ما قامت به الحكومة الفرنسية برئاسة ساركوزي من إحداث وزارة خاصة بمسمى وزارة الهجرة والهوية الوطنية، لأول مرة في تاريخ فرنسا، ولعل من أهم أنشطة هذه الوزارة الجديدة إطلاقها استفتاء حول الهوية الوطنية الفرنسية، على موقع خاص في الشبكة، يتضمن سؤالاً مثيراً للجدل هو: ما معنى أن تكون فرنسياً؟ وقد شمل النقاش في هذا الموضوع، ساحات الفكر ووسائل الإعلام، وتعدى ذلك إلى حلقات الساسة، ونقاشات البرلمان.

لقد أطلقت هذه المبادرة منذ الخامس والعشرين من نوفمبر من العام الماضي (2009) واستمر الاستفتاء حتى الرابع من فبراير 2010م.

فما هي الهوية؟ ومن أين اشتقت؟ وكيف فهم المصطلح؟ ثم ما ارتباط اللغة بهذا المصطلح

وما علاقة الإعلام بذلك؟

في تراثنا العربي الإسلامي تناول مصطلح الهوية الفلاسفة والمتصوفة، والمفسرون وهو لفظ مصوغ من النسبة إلى ضمير الغيبة (هو). وقد عرفه الجرجاني (ت سنة 816 هـ): "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق" (التعريفات ص 229).

أما أبو البقاء الكفوي (ت سنة 1094هـ/1683م) فقد عرف هذا المصطلح بقوله: "لفظ الهوية فيما بينهم يطلق على معان ثلاثة: التشخيص، والشخص نفسه، والوجود الخارجي، قال بعضهم ما به الشيء هو باعتبار تحققه يسمى حقيقة ذاتاً، وباعتبار تشخصه يسمى هوية، وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية،" وقد يسمى ما به الشيء هو ماهية إذا كان كلياً كماهية الإنسان، وهوية إذا كان جزئياً كحقيقة زيد، وحقيقة إذا لم يعتبر كليته وجزئيته، فالهويتان متلازمتان صدقاً، والماهية بالاعتبار الثاني أخص من الأول، والحقيقة بالعكس. وقال بعضهم: الأمر المتعقل من حيث أنه مقول في جواب ما هو يسمى ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث حمل اللوازم عليه يسمى ذاتاً. ثم الأحق باسم الهوية منه كان وجود ذاته من نفسها، وهو المسمى بواجب الوجود، المستلزم للقدم والبقاء" (الكليات ص 961).

أما الهوية باعتبارها مجموعة السمات التي يتصف بها فئة من الناس فلنا نجدها لدى الأسلاف - حسب علمنا - لكن مفهوم الهوية عندهم انصب على صفة الفرد متأثرين بذلك بدراسات المتكلمين والمتصوفة عن الذات الإلهية. وعلى كل حال فإن هذا المصطلح ينطبق على الهوية الفردية وهي قسم من أقسام الهوية.

تتشكل الهوية من خلال دوائر، تتسع كلما اتسعت الدائرة التي تنتمي إليها. فهناك هوية الفرد، الذي يتمتع بميزات جوهرية تميزه عن غيره. وهناك الهوية الجمعية التي تندرج من الأسرة، إلى القبيلة، إلى الشعب، إلى الأمة إلى الإنسان مقابل المخلوقات الأخرى.

وهكذا فإن الهوية كلما ضاقت دائرتها كانت محدودة بفئة من الناس لا تتعدها، وكانت في

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

هذه الحال منغلقة على نفسها، وقد تتسع وهي تحمل جرثومة الانغلاق، فتجد نفسها تعيش عصرية محضة، كما نجد في التجارب الإنسانية المختلفة، التي قامت على تفضيل عرق على عرق، ومن نماذجها النازية واليهودية، والتعصب القبلي، أو المذهبي، أو الإقليمي وغيرها.

وكلما اتسعت حدود الهوية استوعبت الأعراق جميعاً، والسلوك الإنساني عامة، كما في الهوية الإسلامية التي لا ترى فضلاً لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فنحن إذن نعيش ضمن هويات مختلفة يمكن أن نلخصها بثلاثة أنماط كبيرة.

- الهوية الفردية: (وهي تميز الشخص عن الأفراد الآخرين)
- الهوية الجمعية البشرية: (التي تميز التجمعات البشرية بعضها عن بعض)
- الهوية الإنسانية: (وهي التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات كالنبات والحيوان والجماد).

وما يهمنا في هذا المقام هو الهوية الجمعية البشرية، التي تتمايز المجتمعات البشرية بها بعضها عن بعض.

فماذا عن الأمة العربية؟

إن الناظر في التجمع البشري الذي يعيش في الوطن العربي المعاصر يجد أنه يمثل تجمعاً تتبدى فيه العديد من السمات، التي تجعله متماسك الهوية أمام الهويات الأخرى، فسمات الهوية فيه تنبع من اللغة المشتركة، والثقافة العربية الإسلامية السائدة بين سكانه، والتي لا تخص المسلمين منهم وإنما تشمل غير المسلمين، فهؤلاء وإن كانت ديانتهم غير إسلامية فإن ثقافتهم العامة تتجلى في الإحساس بالارتباط بالتراث العربي الإسلامي، واللغة، والعادات والتقاليد، وهم بذلك لا يختلفون إلا قليلاً جداً عن الكثرة الكاثرة من المسلمين. (عرض التلفاز قبل أيام صوراً لأقدم معبد يهودي في القاهرة، وكان من ضمن زخرفاته زخارف إسلامية ومنقوشات تحمل أسماء الخلفاء الراشدين).

إن السمة الأبرز التي تشمل الجميع في هذا التجمع البشري هي اللغة. فهي الركيزة

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الأساسية لثقافة الأمة، وهي لسان هذه الأمة، ومستودع تراثها وثقافتها، وهي الملمح الأبرز الذي يفرق بين الهوية العربية وغيرها.

لقد كانت اللغة، بوصفها علامة بارزة على الهوية، مثار بعض الجدل بين الدارسين. ففي حين يرى بعضهم أن اللغة مكون حاسم من مكونات الهوية، يرى آخرون أنها ليست كذلك. ونحن في علاجنا لهذه القضية لا نريد أن نتكلم عن اللغة من خلال تجارب تجمعات بشرية أخرى غير الأمة العربية لسببين: الأول: أن الوقت قد لا يتسع لذلك.

والثاني: أننا نؤمن أن ظروف كل تجمع بشري تختلف في التكوين، والتمازج، والنمو عن ظروف التجمع الآخر، وإن كان هناك من السنن الكونية والمظاهر العامة ما يمكن أن يوحد بين بعض التجارب مع بعض آخر. ونحن ندرك أن من الدارسين من يرى أن موضوع مكونات الهوية هو موضوع ميتافيزيقي ثابت وقار، ومنهم من يرى أنه بالعكس موضوع تاريخي متطور بتغير الظروف والعصور والأحوال، ولكل من الفريقين أدلته واستنتاجاته.

لكن علاقة الأمة العربية بلغتها هي علاقة فريدة بين الأمم، فليس هناك أمة من الأمم تحتفظ بكتاب مقدس تتلى آياته آناء الليل وأطراف النهار باللغة الأصلية التي نزل بها. وليس هنالك أمة من الأمم تستطيع بقليل من الجهد فهم آيات هذا الكتاب، أو فهم نصوص شعرية تعود إلى أكثر من 1500 سنة مثل الأمة العربية.

الإنجليز - الآن - لا يكادون يفهمون شكسبير، وما يفصلهم عنه سوى ما يقارب 350 عاماً. على حين نفهم نحن امرأ القيس والنابغة وعنترة وطرفة بن العبد، ويفصلنا عنهم ما يقارب 1500 سنة، ونفهم المتنبي والمعري والشريف الرضي، وبيننا وبينهم أكثر من ألف عام. ونكتب بلغة أقرب ما تكون إلى قواعد لغة الأسلاف، وننطق بالألفاظ من الناحية الصوتية نطقاً مشابهاً لما كانوا يفعلون. ولم تختلف دلالات الألفاظ لدينا عما كان لديهم إلا بحدٍ محدود

مقارنة بما يحدث عند الأمم الأخرى.

هذه الخصائص للغة العربية تجعلها هي عنوان هوية هذه الأمة العربية، التي ميّزتها عن الأمم الأخرى. صحيح أن العادات والتقاليد، والقيم وأنواع السلوك الاجتماعي كافة قد تغيرت كثيراً أو قليلاً عما كان عند أسلافنا، تارة بفعل الانفتاح على الثقافات الأخرى أو بفعل كونها قد أدت أغراضها، واستغنى العرب المحدثون عنها، واستبدلوا بها عادات وتقاليد وقيماً جديدة، وهذا أمر طبيعي في حيوات الأمم، لكن اللغة العربية بقيت على حالها منذ القدم، حارسة لتراث العرب، ناطقة بلسانهم، مستوعبة جميع حاجاتهم. لذلك نقول إن اللغة العربية متميزة - في هذا الدور - عن اللغات الأخرى ومميزة للهوية العربية.

وإذا اتفقنا على أن العروبة في الهوية المعاصرة ليست عرقاً وإنما هي ثقافة وبالأخص لغة، فكل من كانت العربية لغته كانت هويته عربية، وكان نتاجه عربياً، فإن تراثنا على مر العصور سوف يعبر عن هذه الهوية ويكون ممثلاً لها.

ولقد حاول بعض الباحثين المحدثين أن يثبت أن اللغة ليست حاسمة في موضوع الهوية، فقد يكتب الكاتب ذو الأصول العربية أدباً بلغة أجنبية ويعد هذا الأدب أدباً عربياً، كما حدث للأدب المغربي، الذي كتبه كتاب كبار من أمثال الطاهر بن جلون، وكاتب ياسين، وعبد اللطيف اللعبي، أو غير المغاربة من أمثال اللبناني أمين معلوف، والسعودي أحمد أبودهمان. فقد كتب هؤلاء مستمدين من البيئات العربية التي عاشوا فيها في بلدانهم، وعرضوها في روايات كتبت بالفرنسية، وتلقفها القراء الفرنسيون بشغف، بل قد منحت بعضها جوائز سنوية، كرواية ليلة القدر للطاهر بن جلون. التي حازت جائزة الجونكور 1987م، وجائزة الصداقة العربية الفرنسية التي تلقاها أمين المعلوف عن روايته "ليون الأفريقي".

لقد استدل هؤلاء الباحثون بهذه الروايات وأمثالها على أن الهوية تتمثل في الهموم والأفكار أكثر مما تتمثل في اللغة. والواقع أن الأدب الذي كتبه هؤلاء هو أدب ينتمي إلى الأدب الفرنكفوني، ويعرض للقارئ الفرنسي مشاهد وصوراً من مجتمعات عربية تتفق وتطالع هذا

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

القارئ، والصور النمطية التي يكتنزها عن الأوضاع في البلاد العربية. فمعظم ما كتب، إن لم يكن كله، متميز بالغرائية أو الإكزوتية، التي تصيب الغربي بالدهشة، وتجعله متطوعاً لما يقرأ بعامل المفارقة لما لا يألفه، من عادات أو تقاليد، أو مفاهيم تسود في البيئات التي تصورها هذه الروايات. فهي أشبه بأحاديث الرحالة الفرنسيين عن هذه البيئات، والفارق الوحيد أن كاتبها ينتمي بهويته الوطنية إلى البيئات التي يكتب لها، مستخدماً مفردات هويته الثقافية لإدهاش الآخر. ولذلك فهي روايات فرنسية، كتبت لقارئ فرنسي، ولا يمكن أن تعد جزءاً من الأدب العربي.

وهنا يجب أن نفرق بين الهوية الوطنية والهوية الثقافية، فالهوية الوطنية يمكن أن تمنح بقرار حكومي يعطي الجنسية لشخص ما، ليكون مواطناً في هذه الدولة، وهي هوية متغيرة يمكن أن يتنازل عنها الإنسان أو يستبدل بها غيرها.

أما الهوية الثقافية فهي هوية قارة، مستديمة، تشكل ملامح الشخص وقسماته، وتؤثر في قناعاته الشخصية وأفكاره، وهي لذلك لا تخضع لقرار حكومي، وإنما تتطلب سمات عامة، قد لا تتوفر في كل من يحمل جنسية دولة من الدول.

اللغة إذن عامل مهم وحاسم، وفي حالة اللغة العربية هي عامل ثابت من ثوابت الهوية العربية. ولا يمكن أن يكون العربي ذا هوية عربية إذا لم تكن لغته التي يتحدث بها ويكتب لغة عربية.

إذا قررنا هذه الحقيقة، وجب علينا أن ننظر إلى هويتنا العربية من خلال هذه اللغة، فكما تماسكت لغتنا، وأخذت نصيبتها من التعبير عن حاجاتنا اليومية، والاجتماعية والعلمية، والتربوية، كانت هويتنا العربية متماسكة، وأصبحت شخصيتنا متميزة، وإذا أصاب لغتنا الوهن، وأبعدت عن المفاصل المؤثرة في المجتمع، كانت شخصيتنا مهزوزة، وهويتنا منقوصة.

فما هو حال لغتنا العربية في هذا العصر؟

إن القول بأن لغتنا الفصحى تعاني هذه الأيام من عدوان الغريب وتجاهل القريب أمر واضح لكل ذي عينين. فالهجمة الشرسة التي تنفذ على اللغة العربية من قبل الغريب، الذي يجد مصلحة في تفريق شملنا، وإذهاب ريحنا، والتلاعب بمقدراتنا، تبدو واضحة منذ احتل الاستعمار بعض بلداننا العربية، واستطاع أن يبدل اللسان العربي إلى لسان غريب، وأن يصبغ الإنسان العربي بصبغة أجنبية، في كلامه، وفكره، وأن يلحقه بثقافته لا على مبدأ المساواة والندية، وإنما على مبدأ التبعية والموالاة. وإذا كان الاستعمار قد نجح في مسح بعض الألسنة والأفكار، كما في بعض بلدان المغرب العربي، فقد أنشأ الاستعمار الفرنسي طبقة فرانكفونية، تقدس الأجنبي ولغته وفكره، وتحقر كل ما هو عربي، أو يمت إلى الثقافة العربية بصلة. فإن بعض أبناء العروبة في تلك الأقطار المغاربية ما زالوا على تمسكهم بثقافتهم ولغتهم العربية، مدافعين عن الهوية العربية الإسلامية السائدة في تلك البلدان.

وفي المشرق العربي أنشأ الاستعمار الإنجليزي المدارس الأجنبية، التي تحارب العربية من أجل تحويل السنة الصغار إلى الرطانة الأجنبية، وإضعاف الارتباط بالثقافة العربية الإسلامية، وتخريج أجيال لا تعرف إلا لغة الأجنبي وثقافته، وكوّن من مخرجات هذه المدارس نخباً تحكم البلدان، وتتحكم في مفاصلها الحيوية، وتقود الأمة نحو تنفيذ مآرب الأجنبي وسياساته.

كان هذا في زمن الاستعمار، وكان المظنون أن البلاد العربية إذا نالت استقلالها فسوف تصون هذا الاستقلال باستقلال الهوية، وعلى رأس ذلك استقلال القرار، واستقلال الفكر، والانطلاق منهما إلى تنمية الذات، من خلال إمكانات الثقافة المحلية السائدة، وفي مقدمتها اللغة، ومن خلال التعامل القائم على الندية مع الثقافات الأخرى، دون ذوبان في هذه الثقافات أو تقليد أعمى لها، لكن الواقع أن النبت الذي رعاه الاستعمار قد استأسد زمن الاستقلال، وأضيف إلى ذلك الضعف الذي أصيب به الفرد العربي نتيجة إحباطات عديدة أفقدته الثقة بالنفس، وجعلته مستسلماً للواقع البائس.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

ثم جاءت الهجمة الشرسة الأخرى، عندما حل عصر العولمة، الذي اكتسح الثقافات المتعددة، بفعل الانفتاح على ثقافة واحدة قوية مؤثرة، أخذت تصوغ الناس من خلال روافدها المتدفقة، عبر وسائل سياسية وإعلامية واقتصادية جبارة، واجهها الفرد العربي مواجهة الأزل، فلم يعد لديه من بد للاستسلام.

لقد تغلبت هذه الثقافة على حياة الناس، وشاركتهم أنماط الحياة والسلوك، وتدخلت في ترتيب لقمة العيش لكل منهم، وأوهمتهم أنها السبيل إلى التقدم والنجاح. وبناء على ذلك انقلبت أسواقنا إلى بيئات ناطقة باللغة الإنكليزية، وكذلك مستشفياتنا، واكتملت الحلقات بالهجوم على التعليم وتعليمه، لتعطى الدروس باللغة الأجنبية، ظناً بأن الحاجز بيننا وبين التقدم يكمن في اللغة، فإذا تحولنا إليها سرعان ما نكون كالقوم إنتاجاً، واختراعاً، وتقدماً. ونسينا أن أي نهضة لا تقوم إلا على ركائز اللغة الأم، التي تجعل العلم سائغاً ممتزجاً بمشاعر المتعلم وجوارحه، سهلاً في استيعابه والتعبير عنه. وأن لغتنا فيها من الإمكانيات التعبيرية عن كل علم ما يفوق اللغات الأخرى التي هي أعقد من لغتنا.

وإذا أردنا المقارنة بين موقف العرب من لغتهم وموقف الأمم المتقدمة من لغاتها تأخذنا الدهشة ويستولي علينا العجب، ذلك أننا نجد موقف العرب من هذه اللغة الجميلة لا يتفق وما تحرص عليه الأمم من ترقية لغاتها، والتحمس لها وجعلها مفتاح نهضتها، وقديماً قال ستندال: "اللغة مفتاح عبقرية الأمة".

لقد واجهت اليابان أعظم كارثة استعمارية من خلال إلقاء القنابل النووية عليها، واستسلامها بشروط مذلة للمنتصر الأمريكي، لكنها، وفي حضيض الهزيمة، لم تتنازل عن ثقافتها، وتراثها، ولغتها على وجه الخصوص، فلم تقلب التعليم إلى لغة الغالب، ولم تسلم له مقاليدها التربوية، بل أسست نظاماً تعليمياً متطوراً، قائماً على اللغة اليابانية والمثل اليابانية.

وإذا قارنا هذه اللغة اليابانية بلغتنا العربية نجد البون الشاسع في صعوبة اليابانية ويسر العربية. فاليابانية كما يقول موقع ويكيبيديا على الشبكة: كانت رموزها قبل الحرب العالمية

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الثانية أكثر من 4000 رمز، لكن الولايات المتحدة التي أخفقت في رومنة اللغة اليابانية (أي كتابتها بأحرف رومانية) أجبرت اليابانيين على تقليص عدد الرموز إلى ما يفوق الألفين بقليل. في اليابانية هناك حروف لكتابة الألفاظ اليابانية وحروف أخرى لكتابة الألفاظ الأجنبية. ومع ذلك أخذ اليابانيون العلم باللغة اليابانية ووطنوا التقنية بلغتهم، وأصبحوا مثلاً ساطعاً في التقدم. وأصبحت اليابانية كاليابان لغة من أهم لغات العالم.

والآن يتحدث الناس عن الصين ويذهلون من سرعة تقدمها باعتبارها اقتصاداً عالمياً يسير بسرعة فائقة نحو الصدارة. فكيف أدار الصينيون تعليمهم باللغة الصينية، وهي لغة من أعقد لغات البشر؟ يكفي أن تعلم أنها تحتوي على أكثر من 60,000 رمز. وأن التلميذ لا يستطيع قراءة الجريدة إلا بعد أن يحفظ ما بين 5000 - 6000 رمز، أما إذا أراد أن يقرأ في التراث الصيني، أو أن يبدع في الكتابة، أو يكون ذا اختصاص معين فعليه أن يحصل على أضعاف ذلك، ومع ما في ذلك من مشقة لم يحول الصينيون تعليمهم لا في المراحل الدنيا ولا المراحل العليا إلى اللغة الأجنبية.

إن التعليم هو الثغرة الأولى التي ينفذ منها عوامل تحطيم الهوية العربية، بمسح الأجيال مسخاً لغوياً، بحيث تنفصل عن دينها وتراثها وقيمها، وترتبط بالأجنبي قلباً وقالباً.

والثغرة الثانية التي تنذر بمسح الهوية هي التلاعب بلغة هذا الجيل، عبر وسائل الإعلام الحديثة، التي تنهمر على الإنسان العربي من كل حذب وصوب. فالإذاعات المعاصرة الموجهة في معظمها إلى الشباب تتحدث إليهم بلغة هجينة، هي مزيج من عاميات البلدان العربية المختلفة، مع خلط ذلك بقدر كبير من مفردات اللغات الأجنبية وتعبيرها. وهذا الأمر يؤذن بانحسار العربية الفصيحة الراقية، ليحل محلها خليط مشوش من العاميات والاستعمالات الأجنبية.

والغريب أن القائمين على برامج هذه الإذاعات المرئية والمسوعة يتبارون فيما بينهم لحشر الكلمات الأجنبية، على وجه الخصوص، في المحادثات أثناء الحوار أو التقديم بدعوى

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الاتساق مع روح العصر، ومجازاة النشء فيما يتلفظ به من لغة هجينة. ويكاد المتابع أن يفغر فاه وهو يستمع إلى المتحاورين بهذه العربية الغريبة، فلا يستطيع فهم المراد لكثرة ما يقدم أثناء الحديث من عبارات مغرقة في المحلية، أو كلمات أجنبية لها مقابل في العربية الفصيحة، أو كلمات صيغت أو نُحتت بصورة مغايرة لمنطق العربية.

إن هذه البرامج التلفزية والإذاعية الهابطة لغوياً توشك أن تشكل عادات الناس اللغوية، فبسببها هجر الشبان والشابات كثيراً من الاستعمالات العربية الأصيلة، التي تعبر عن دواخل النفوس أو مشاعرهما، ولعل من أبرزها عبارات الملاطفة العربية، كعبارات الشكر والترحيب والوداع والاستحسان، فهذه كلها توشك أن تختفي من معجم النشء الحديث وتحل محلها مقابلات إنجليزية. وكأن النطق بكلمة شكراً، أو أهلاً وسهلاً، أو طيب ونعم، أو حسناً، أو إلى اللقاء، أو غير ذلك من ألفاظنا المحببة يعدُّ علامة على التخلف، ولا يكون الإنسان في ذهن مستعملها متقدماً إلا إذا لاق كلمة أجنبية في مثل هذه المواقف.

هذا على مستوى العامة، أما الخاصة من المثقفين فإن أداءهم في وسائل الإعلام لا يخدم اللغة، ذلك أن المثقف يدير حوارَه ونقاشه في معظم الأحيان باللهجة العامية، التي ينتمي إليها. وحتى أولئك الذين يديرون حواراتهم بما يسمى باللغة الوسطى أو اللغة الثالثة، التي هي وسط بين العامية والفصيحة، فإنهم في الغالب يغلبون العامية، دون نظر إلى قواعد الفصحى، فتجد أكثرهم يميل إلى التسكين دائماً، أو يبني المثنى وجموع التكسير على الياء والنون في جميع الأحوال.

صحيح أن لغة الإعلام هي لغة تبليغية، لكنها - في حالة المثقفين - فقدت سحر اللغة الفصحى، التي تحمل ألفاظها فخامة وعمقاً وحلاوة وثراء يستمتع به المتلقي إلى جانب وصول الرسالة الإعلامية إليه. فالتبليغ لا يتنافى مع حسن اختيار الألفاظ والتراكيب، والإبداع من خلالها.

لست أنسى كيف كنا نتحلق أيام الصبا حول المذياع لنستمع إلى حديث الدكتور طه حسين

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الأسبوعي من إذاعة القاهرة. لقد كان الأسلوب يجذبنا إلى جانب الموضوع. أما الآن فإن حديث المثقفين في الغالب، وأخص منهم الأدباء، حديث مغسول، لا يكاد يختلف عن حديث المهندس أو العامل لأنهم جميعاً يمتحون من منبع واحد، هو المنبع الضحل للعامة. أو المخزون المحدود للثقافة الوافدة، مع ضالة الرصيد اللغوي، وضعف البناء التركيبي. ولا يكاد المثقفون يتميزون عن الفئات الأخرى في المجتمع إلا ببعض المصطلحات التي تدخل في تضاعيف كلامهم.

إن الأمم التي تحترم لغاتها - بوصف ذلك جزءاً من احترام ذاتها - لا تحشو وسائل إعلامها بالساقط والريء، وإنما تحرص على الارتقاء بلغة العامة. وهي لا تُعرض المواطن في وسائلها الإعلامية من إذاعة وصحافة وتلفزة وإعلان لهجين القول أو ساقطه، أو الكلمات والألفاظ الأجنبية، وإنما تختار له الجيد، وتحثه على التمسك بلغته الأم. ففي حين يتعرض الطفل العربي إلى خليط مشوش من اللهجات المحلية في مصر وبلاد الشام والمغرب والخليج العربي، نجد هذه الوسائل في البلاد الأخرى تخاطب الطفل بلغة قومية موحدة هي اللغة الأم.

وفي الوقت الذي نجد فيه وسائل إعلامنا تتباهى بإذاعة المسلسلات والأفلام الأجنبية بلغاتها الأصلية نجد تلك الدول المتقدمة تقدم هذه الأفلام والمسلسلات الأجنبية ناطقة باللغة القومية الراقية، عن طريق الدبلجة، وليس الترجمة النصية المكتوبة. أما العرب فعندما بدؤوا بدبلجة الأفلام والمسلسلات، الأجنبية وبرامج الأطفال فإنهم ساروا في الطريق الخطأ وذلك بقلب نصوص هذه المواد إلى اللهجات المحلية، بدلاً من الفصحى اللغة الواحدة الموحدة، التي لا يشك أحد في أنه قادر على متابعة نصوصها السهلة المعاصرة.

إن ذكرى البرنامج الخالد الذكر "افتح يا سمسم" ما زالت تلحُّ علينا. وتجعلنا نقضي العجب من سوء التخطيط في وسائل الإعلام العربية، فقد أدرك الجميع كم كان ذلك البرنامج ذا أثر واضح في أطفال الوطن العربي من الخليج إلى المحيط، وكم كان جذاباً بلغته الفصيحة السهلة. فأغنى لغة الأطفال، وكسر الحاجز بينهم وبين الفصحى، وجعلهم أكثر إقبالاً على القراءة،

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وقدرة على التحدث بالفصحى السهلة، وكم كان راقياً فيما يبثه بين أطفالنا من قيم نبيلة، وممارسات جادة. والغريب أن العرب، بقضهم وقضيضهم، لم يستطيعوا إنتاج برنامج مشابه يعوض ذلك البرنامج الذي احتجب بعد الغزو العراقي للكويت. لقد استبدل بذلك البرنامج برامج باللهجات العامية لبعض البلاد العربية تنطق بلغة سوقية رديئة وترسّخ ممارسات شائنة. وما زال أطفالنا يتلقون تلك البرامج والألعاب الإلكترونية القائمة على العنف والانفلات الأخلاقي، ومشاهد القتل والتدمير. فهل هذه رسالة الإعلام المعاصر؟ وكيف السبيل إلى إصدار ميثاق شرف عربي بين الدول العربية، يضع الضوابط لما يعرض على أنظار أطفالنا من برامج هادفة تُعلي من شأن اللغة الفصحى، وتشدُّ الطفل إليها، وترسم له طرق القيم السامية والأهداف النبيلة؟

إن غياب التخطيط اللغوي لدى العرب أدى بهم إلى هذه الفوضى اللغوية العارمة في وسائل الإعلام وفي غيرها من مناحي الحياة. إنها فوضى ناتجة عن ضياع البوصلة عند هذه الأمة، فهي أمة لا تدري أين تتجه، ولا كيف تتصرف. أمة مرتبكة حضارياً، تسير دون رؤية واضحة تحدد لها مسارات التقدم والنهوض، ومن أهم هذه المسارات المسار اللغوي، الذي نعتقد أن لا نهضة ممكنة دون أن تكون اللغة قاطرتها الحقيقية.

بين الفصحى والعامية في الإعلام

أ. د. علي أحمد محمد بابكر
رئيس مجمع اللغة العربية السوداني

للإعلام دور بارز وأهمية بالغة في الحياة، وذلك لأثره في بناء المجتمع، ولربطه بين الأجيال بوصله بين ماضي الأمم وحاضرها، وتحكمه في العلاقات بين الدول، وهو من أهم منجزات الحضارة. ولم يكن الوطن العربي بعيداً عن ذلك فقد كان له نصيبه الوافر وحظه الكبير من هذا التطور الإعلامي الكبير فدخلت وسائله المختلفة كل بيت وخاطبت كل فرد فوجد فيما تقدمه ما يلئم تفكيره ويسد حاجاته إلى المعرفة، ومن ثم تأثر المجتمع بأسره بهذه الوسائل. وقد أحدثت وسائل الإعلام ثورة معرفية كبيرة في القرن الماضي، كان للغة منها النصيب الأوفى والسهم الكبير، وذلك من خلال الصحف والإذاعة والتلفزة، حيث شهدت اللغة نمواً وازدهاراً ظهر في تطور أساليبها ورفدها بمفردات مصطلحات تيسر انتشارها باستعمالها في كل ميادين الحياة. كما كان للإعلام أثره الذي لا ينكر في ذبوع اللغة وانتشارها ووصولها إلى آفاق بعيدة من العالم على نحو عظيم، وهذه محمودة، لكن لها وجه آخر هو أن هذه اللغة المنتشرة إنما هي لغة الإعلام بما فيها من ضعف وتنازل عن بعض خصائص الفصحى في كثير من الأحيان.

وقد تنوعت أجهزة الاتصال الإعلامي ما بين صحف ومذيعات وتلفاز وشبكة معلومات، وهي ذات نفوذ واسع بلغ أثره أن ظهر في تغيير قيم المجتمعات ومبادئها وسلوكها وثقافتها وقبل ذلك كله لغتها، كما عملت على إعادة تشكيل هويتها الحضارية، ومن ثم كان لها الأثر الكبير في اللغة العربية، فقد ترقى وتتطور وقد تتحد وتندى، وكلما ارتقت لغة الإعلام

ارتقت معها لغة المجتمع وبتراجعها تتراجع.

على وسائل الإعلام أن تميز بين ثوابت اللغة العربية الفصحى المتمثلة في نحوها وصرفها، وبين ما هو متجدد في جانب المفردات والدلالات، وقد اتخذ الإعلام لنفسه لغة تمثل مستوى من مستويات الفصحى قادرة على مخاطبة الجمهور من متعلمين وأمينين على السواء، وهذه هي رسالة الإعلام، أعني توصيل رسالته بلغة راقية تسمو على الابتذال، وفي الوقت نفسه تكون سهلة التداول قريبة المعاني، جامعة بين فصاحة العبارة وسهولتها في آن، فهي توازن بين مستوى اللغة والإيفاء برسالة الإعلام، لكن هذه السهولة والبساطة تجاوزت حدّها في كثير من الأحيان فزلّت وعثرت. وكما هو معروف فإنه كلما نزلنا في سلم التطور الحضاري للمجتمعات وجدنا فروقاً شاسعة بين المستويين الأدبي والعلمي للغة. وقد دخلت اللغة العربية هذا العصر الذي شهد هذا الانفجار المدوي في عالم الإعلام وهي تعاني ضعفاً عاماً فسهل على وسائل الإعلام النيل منها، صاحب ذلك ضعف عام للأمة العربية فلم تنهض للدفاع عن لغتها والأخذ بيدها للوقوف في وجه الخطر الإعلامي الداهم فنال منها ما نال.

اللغة هي الوسيلة الأساسية في العلاقات الإنسانية، من حيث التّواصل والتّعبير عن الأفكار والمعاني، ومن ثمّ هي الوسيلة التي تتواصل بها وسائل الإعلام مع متلقيها، وتضاف الصورة إلى اللغة في بعض الوسائل لكن تظل اللغة هي أداة التواصل الأولى، لذا فإنها تتأثر تأثراً كبيراً بالإعلام فقد ترقى به وقد تنحدر. وهي في الحالتين ستنتشر وتنتيع في أوساط المتلقين. وكلما ارتقت لغة الإعلام ارتقت لغة المجتمع، ومن هنا يظهر تأثير الإعلام في اللغة، ومن ثمّ نال البحث في اللغة المستعملة في الإعلام جهداً كبيراً من الدارسين في هذا المجال، في محاولة منهم إيجاد صورة مثلى من التعبير لتوصيل الرسالة الإعلامية. وكثير من الباحثين تناولوا أمر لغة الإعلام وهم يُشيرون إلى أنّ هنالك لغة خاصة بالإعلام تسمو على اللغة العامية المستخدمة في الحياة اليومية، وفي الوقت ذاته هي دون اللغة الأدبية الرفيعة، فكأنهم بذلك يُشيرون إلى أنّ اللغة الإعلامية فصيحة في تركيبها ومفرداتها، لكنّها بسيطة في معانيها، بحيث تكون مفهومة لمتلقيها بسهولة ويسر، ومراعية في ذلك مستويات المتلقين المتباينة.

وقد أخذت هذه الجهود مسارات عديدة، فمن يرى ضرورة أن يكون الخطاب وسائل الإعلام بالعربية الفصحى، ومن رأى أن يكون الخطاب بالعاميات المحلية، وهذا الأمر أثار خلافاً كبيراً وجدلاً واسعاً بين الفريقين، ونقف هنا وقفة قصيرة عند الفصحى والعامية.

بين الفصحى والعامية

سادت اللغة العربية الفصحى سيادة مطلقة خلال القرون الأولى التي تلت بلوغها أعلى درجات الفصاحة والبيان، وتتوج ذلك بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فقد ذهب كثير من العلماء إلى أن اللغة العربية نضجت وبلغت أوج فصاحتها قبل نزول القرآن مباشرة، وكان العرب مهيين لتقبل القرآن الكريم وهو في هذه الدرجة الرفيعة من الفصاحة والبلاغة، لذلك كان القرآن حجة عليهم وتحذاهم بأن يأتوا بمثله. والشعر العربي الجاهلي دليل واضح على بلوغ العرب ما ذهبنا إليه من أمر الفصاحة، وسارت على هذا النهج من الفصاحة خطب الخلفاء وأهل الحكم ممن جاء بعدهم.

وصاحب ذلك أيضاً لغة الأدب والكتابة العلمية، فأنتجت الحضارة العربية مصنفات عديدة في شتى ضروب المعرفة، وكانت العربية هي لغة الشعر والأدب بكل فنونه، كما هي لغة العلم التجريبي والعلم النظري، فيها كتب النحاة واللغويون والفقهاء والمفسرون والمحدثون، كما دون بها الأطباء وأهل الفلك والرياضيات ومن إليهم من أهل العلوم التجريبية. قال الزمخشري في مقدمته للمفصل "... والذي يقضي منه العجب حال أولئك - يعني الذين يغضون من مكانة العربية - في قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم، وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافقاره إلى العربية بئس لا يدفع ومكتشف لا يتقنع. ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائله مبنياً على علم الإعراب، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين، والاستظهار في مآخذ النصوص بأقويلهم والتشبث بأهداب تفاسيرهم وتأويلهم، وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم وبه تقطر

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

في القراطيس أقلامهم، وبه تسطر الصكوك والسجلات حكاهم، فهم ملتبسون بالعربية أية ما سلخوا غير منفكين منها أينما وجهوا كلَّ عليها أينما ساروا¹.

وكانت تسابير هذه اللُّغة الفصحى لغة أخرى للحديث اليومي، أو بعبارة أخرى يمكن القول إنَّ اللُّغة العربية عرفت منذ القدم مستويات مختلفة من الفصاحة، ولم يكن العربي حتى في عهده الأول ملماً بكل مفرداتها ولا معانيها، دليلنا إلى ذلك تأليف الكثير من الشروح والحواشي التي تبين المتون وتشرح الغريب، والغريب نفسه على مراتب، فما قد يكون غريباً على أحد قد يكون مألوفاً لدى آخر وهكذا... وهذا يُردُّ في جزء منه إلى تنوع اللهجات العربية، لكن تفاوت المستويات اللغوية كان واضحاً فيه. ثم تلا ذلك ظهور اللحن وبُعد الناس عن الفصاحة الذي يرد إجمالاً إلى اتساع الرقعة الإسلامية بانتشار الإسلام وتوسّع دولته في غير البلاد العربيّة، وانتقال غير العرب للإقامة في الدول العربيّة، أو انتقال العرب إلى الدول غير العربيّة في حدود الدولة الإسلاميّة، فتعلّمت المجموعة الأولى اللُّغة العربيّة مع احتفاظها ببعض عاداتها في النطق والأداء، وتأثرت المجموعة الثانية بلغات من أقامت بينهم من غير العرب، فأدخلت بعض المفردات والأساليب إلى لغتها العربيّة. وقد نتج عن هذا الاختلاط تزاوج بين العرب وغيرهم، فنشأت الأجيال التالية بين أب عربي وأم غير عربيّة - في الغالب - أو العكس.

أما العامية فهي لغة محدودة جهة ووقتاً ولا تصلح لحفظ علم ولا تراث، وهي غير قادرة على الاستمرار على وتيرة واحدة لما تتصف به من عجز ناتج من نواح شتى، منها عدم الإبانة، وقد عرفت بأنها لغة تخلو من الإعراب ويضطرب فيها تكوين الجمل وتحديد وظائف الكلمات مع إخلال واضح بمخارج الحروف، كما قد تخالط فيها الألفاظ الأعجميّة العربيّة كما هو حادث اليوم، فالعامية إذن تخالف الفصحى من وجوه:

الأول: على مستوى إخراج الصوت اللغوي، فقد تغيرت مخارج كثير من الحروف العربية في العاميات العربية على تفاوت في ذلك وتباين، فالحرف الواحد تعددت مخارجه بتعدد

¹ الفصل ص 30.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

العاميات العربية وفقاً لعادات النطق في كل بلد عربي. ومثال ذلك الضاد الذي اختلف مخرجه جداً بين العامية والفصحى كما قد اختلف مخرجه بين قطر وآخر، ومنه أيضاً الثاء التي تحولت إلى سين والذال إلى زاي والقاف إلى غين أو همزة وهكذا.

الثاني: على مستوى الألفاظ، فقد اختلفت مفردات فصيحة كثيرة واستبدل بها ألفاظ موعلة في المحلية، وهذا ما باعد الشقة بين الأقطار العربية. غير أن هذا الأمر سار الآن في مصلحة الفصحى وذلك بعد أن انتشر التعليم فعم فئات المجتمع وصارت اللغة العامية المتداولة الآن متأثرة بما يتلقاه الطلاب في دور العلم فصارت مفرداتها أقرب إلى الفصحى بما دخلها من مصطلحات الحضارة وغيرها، فإذن صار المتحدثون في القطر الواحد على اختلاف أعمارهم يتداولون عامية موحدة إلى درجة ما، وهي في مجملها قريبة إلى الفصحى أكثر من ذي قبل، ولذا يمكن أن تكون مفهومة للمتحدثين بالعاميات الأخرى.

الثالث: على مستوى الإعراب، فقد اختلفت علامات الإعراب من العامية تماماً وهذا هو أوضح الفروق وأبينها بين الفصحى والعامية، حيث إن العامية حتى في احتفاظها بالمفردات الفصيحة لم تحافظ على علامات الإعراب، والإعراب سمة مهمة من سمات الفصحى وبه تكتسب بيانها، قال ابن جني متحدثاً عن النحو: "هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره... ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها"¹.

ويقول الزمخشري: "... هذا وإن الإعراب "أجدى من تقاريق العصا" وآثاره الحسنة عديدة الحصى ومن لم يتق الله في تربيته فاجترأ على تعاطي تأويله وهو غير معرب فقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء"².

¹ الخصائص ص 88.

² المفصل ص 31.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وقال ابن خلدون في مقدمته: "إن كلام العرب واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة"¹.

والإعراب سمة ملازمة للعربية منذ القدم فلم يُنطق بها غير معربة أصلاً وإن لم تُعرف اصطلاح علامات الإعراب لأنها لم تكن في حاجة لذلك فهي لغة سليقة وفطرة، قال السيوطي عن الكلام العربي "هكذا نطقت به معرباً"².

وقد عرفت العربية دائماً مستويات متعددة من حيث الفصاحة، وكان هناك ما يمكن أن يسمى لغة للتعامل اليومي ولغة أدبية رفيعة لا يتقنها كل أحد ولا يتعاطاها كل متحدث، وكان الحاكم في ذلك هو الغرض من الاستخدام اللغوي. والدليل على ذلك حاجة الناس الدائمة إلى المعاجم اللغوية، ودليل آخر على ذلك هو الأمثال العربية التي احتوت كثيراً من العبارات التي تخالف الإعراب، وهي تروى على وجهها باعتبارها أدباً شعبياً لا ينبغي التدخل فيه وتقويم عوجه وإصلاح لحنه. وبعض الأشعار أيضاً تحرّرت إلى حدٍّ ما عن الحفاظ على مستوى اللغة الفصحى، قال ابن خلدون في مقدمته متحدثاً عن نشأة الزجل "ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً واستحدثوا فناً سموه بالزجل"³ ثم يورد ابن خلدون نماذج لابن قزمان وأبي الحسن الإشبيلي وغيرهم تبدو فيها المسحة العامية واضحة.

وقد وجدت لهجات عربية كثيرة متباينة تبايناً واضحاً من حيث الفصاحة. قال أبو عمرو بن العلاء "أفصح العرب عليا هو أزن وسفلى تميم"، وقال أبو نصر الفارابي "كانت قریش أجود

¹ مقدمة ابن خلدون ص 700.

² الأشباه والنظائر 106/1.

³ المقدمة ص 761 - 762 وابن قزمان هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان الأصغر توفي عام 555 هـ بقرطبة. أما أبو الحسن فهو محمد بن الفضل المتوفى سنة 627 هـ.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس¹.

وكانت العرب تقرر لقريش بذلك من قديم فقد جعلوا لغتها حاكمة على ما سواها. قال ابن جني "حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عننة تميم، وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن... وتثلثة بهراء².

ثم توج ذلك الإقرار بنزول القرآن الكريم بلغة قريش. غير أن هذا لا يعني أن ما سواها باد واندثر، بل بقيت هذه اللغات ببقاء متحدثيها وانتقلت معهم في هجراتهم، ولم يُخطأ من تكلم بها. وقد ظل أثرها واضحاً في بعض العاميات الموجودة الآن. وقد تباينت الآثار الأدبية في المستوى اللغوي، فالشعر مثلاً اختلفت لغته بحسب الأغراض فما يصلح لغرض لا يوافق غيره، فلغة الفخر تتسم بالجزالة والفخامة، على حين يصلح للغزل الألفاظ السهلة اللينة، ولغة الخطب والرسائل غير لغة الشعر، وكلاهما مخالف لما سواهما من نثر أدبي وكل ذلك في مجموعه مخالف للغة الحديث اليومي.

غير أنّ اليون لم يكن شاسعاً والهوة لم تكن سحيقة بين العربية الفصحى وبين غيرها، وقد تنبه العلماء منذ القدم لأمر تدني مستويات الفصاحة في اللغة، وميل الناس إلى التحلل من الإعراب، وتجوّزهم في استحداث بعض العبارات والتراكيب، فأفردوا التأليف ووضعوا التصانيف، الغرض منها تقويم السنة الناس وردهم إلى الجادة، في محاولة لاحتواء العامية التي وسّعت رقعتها على حساب الفصحى، وهذا أمر قديم منذ أن كتب الكسائي "ت 189هـ" ما تلحن فيه العامة، وكتب ابن السكيت "ت 224هـ" إصلاح المنطق، وكتب أبو بكر الزبيدي "ت

¹ المزهر 23/1.

² الخصائص ص 299، والمقصود بعنة تميم هو قولهم عن في موضع أن وتثلثة بهراء كسرهم أوائل تعلمون وتعملون ونحوها وكشكشة ربيعة وصلهم شين مع كاف المؤنث مثل إنكش ويكون هذا في الوقف فإذا وصلت أسقطت الشين. وكسكسة هوازن إضافة سين بعد الضمير الكاف في الوقف دون الوصل مثل منكس وعنكس.

379هـ" لحن العوام، وبينهم كثيرون، كما أفرد غيرهم أبواباً في تصانيفهم للحديث عن الفصح والأفصح والعامي، من أمثال السيوطي في المزهري، وسار الأمر على ذلك إلى زمان الناس هذا حيث شاعت معاجم العامي، وقل ولا تقل، والأخطاء الشائعة.

وقد زادت المسافة بين الفصحى والعامية بالفصل بين الدول العربية، فصار لكل دولة عاميتها الخاصة بها، بل نجد عاميات متعددة في القطر الواحد تكاد لا تفهم من غير أهلها، وكما هو معلوم فإن السير نحو الفصحى هو سير نحو قومية الأمة ووحدة ثقافتها وقوتها، على حين أن السير نحو العامية هو النقيض، فوحدة اللغة وحدة الأمة ولا وحدة في العامية. وعلى وسائل الإعلام إدراك هذه الحقيقة، ومن ثمّ السعي إلى تزويد العامية في الفصحى لا العكس.

الحديث حول العامية يقود دائماً للحديث عن الدعوة إلى فرضها لغة للعلم والثقافة، وهذا لن نخوض فيه، لأنه لا ينبغي أن يقول به عاقل، لأنّ العلم شريف رفيع ولا ينبغي أن يحط من شأنه بربطه بالعامية، فالشقة بعيدة بينهما، وإذا أصبح العلم بالعامية فلن يفهمه أحد، وقد ظلت العربية لغة العلم والمعرفة حتى رزح الوطن العربي تحت وطأة الاحتلال الذي عمل على فرض لغته في كل شيء فتأخرت العربية، لكنها ظلت تحتفظ بعوامل قوتها لتسيطر من جديد.

العربية والإعلام

حينما ظهرت وسائل الإعلام في الوطن العربي من صحف وإذاعة وتلفزة لم يكن التعليم منتشراً كما هو الآن، ومع ذلك ظلت هذه الوسائل تؤدي دورها وتوصل رسالتها مازجة بين اللغة العربية الفصحى والعامية، وهي تخاطب مجتمعاً أكثره من غير المتعلمين فالأمية كانت نسبتها أكبر مما هي عليه الآن، وقد تصدى ذوو الغيرة من أهل اللغة منذ الوهلة الأولى للأخطار التي يمكن أن تتهدد اللغة الفصحى خاصة في الصحف، فتعالت صيحاتهم داعية إلى الحرص على سلامة اللغة وعدم المساس بثوابتها، وكان لتلك الجهود أثر طيب في المحافظة على اللغة وتلافي هذه الأخطار وصدّها. ومما سهل مهمتهم تلك أن سطوة الإعلام لم تبلغ ما بلغته الآن ولم تنتشر وسائله بهذه الوتيرة السريعة المتلاحقة. أما الآن فقد بلغ انتشار وسائل

الإعلام ما بلغ ورافق ذلك تدنٍّ واضح في المستوى اللغوي للمتلقين بمستوياتهم المختلفة مما صعب مهمة المنادين بالإصلاح وضاعف جهودهم، لاسيما أن هذه الجهود تقتصر إلى التنسيق بين أصحابها سواء أكانوا مؤسسات أو أفراداً، وكان من نتائج ضعف الرقابة أن استخدم الإعلام لغةً تُمزج بين الفصحى والعامية انتشرت على نحو واسع داخل الأقطار العربية وخارجها، فوصلت إلى كل بقعة وصلها الإعلام العربي. وهذه وإن كانت مزية في نفسها إذ أتاحت وصول العربية إلى أصقاع لم يكن يطمح أن تصل إليها قط بهذه السهولة إلا أن هذا الانتشار شابهته شائبة الاختلاط الذي حدث بين الفصحى والعامية. لذلك فنحن مطالبون اليوم بالمحافظة على رقعة انتشار العربية مع العمل في الوقت ذاته على تنقية هذه اللغة المنتشرة مما لحقها من شوائب.

كان من نتائج هذا الانفجار الإعلامي الهائل أن ظهرت الدعوات المنادية لاستخدام العاميات في أجهزة الإعلام وذلك بحجة أن ليس من الضروري أن يقدم الإعلام رسالته بلغة رفيعة ليست هي في الواقع لغة المتلقين، لكن هذه حجة واهية إذ من أخص مهام الإعلام العمل على الرقي بالمجتمع والتعبير عنه، وهذا لا يكون بلغة عامية مبتذلة وإنما ينبغي الأخذ بيد المجتمع والارتقاء به ثقافياً ورفع وعيه على كل صعيد، وتدريبه على التعبير عن نفسه بلغة ترقى به لا تحط منه.

هذا بالطبع إذ أخذنا بحسُن نيات أصحاب هذه الدعوة ومثيلاتها، إذ بعض هذه الدعوات ليس لها غرض إلا محاربة اللغة الفصحى، باعتبارها من أهم مقومات الشخصية العربية وهي من أهم معززات الانتماء العربي، إذ ماذا يبقى من هذا الانتماء إذا تحدّث كل قطر بعاميته فيتأكد الشتات وتتمق الفرقة ويسود التباعد، وحتى بين الإقليم الواحد والقطر الواحد يتفرّق النَّاس شذر مذر، فتضيع اللغة وبضياعتها تضعيع الرسالة الإعلامية.

تستطيع وسائل الإعلام أن تسدي إلى العربية معروفاً كبيراً وذلك بتقريبها بين الفصحى والعامية، بأن تيسر فهم الفصحى لغير المتعلمين وتدخل في العربية ألفاظ الحضارة بعد

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

إجرائها مجرى المفردات الفصيحة وانتظامها في سلكها.

ولاستخدام الفصحى في الإعلام فوائد جمة لو فطن لها المشتغلون به لعلمو أنهم إنما فاتهم خير كثير باستبدالهم العامية بالفصحى، ومن ذلك:

1. الارتفاع بمستوى الإعلام بارتباطه بالفصحى وهي لغة راقية في مفرداتها وتعبيراتها ومعانيها، وما يرتبط بها يرتقي برقيها، فاللغة تدل على مستوى متحدثها علواً وهبوطاً وهذا واضح حتى في العامية فلها مستويات متعددة منها ما يأنف المثقف والمتحضر التعامل معه في حين أنها لغة لبعض فئات مجتمعه. ولما كان الإعلام هو واجهة الدول والمعبر عنها والناطق باسمها كان مستواه مؤشراً على مستواها رقياً وانحداراً، ومن ثمَّ به تقاس، وبه تصنف.

وهذا يحقق انتشاراً واسعاً للإعلام، وهذا الأمر فطن له القائمون على الإذاعات الأجنبية الموجهة إلى البلاد العربية فجعلوا اللغة العربية الفصحى هي وسيلتهم الوحيدة للاتصال بالجمهور العربي، فقد أثبتت بعض الإحصائيات أن اللغة العربية تحتل المكان الثالث بين اللغات المستخدمة في الإذاعات العالمية، من بين هذه الإذاعات هيئة الإذاعة البريطانية العريقة التي بدأ بثها منذ 1936م وبرامجها على مستوى جيد من حيث اللغة والمحتوى وظلت تستقطب خيار المذيعين من كل الأقطار العربية فقدموا برامج متخصصة في اللغة والأدب إضافة إلى أدائهم المتميز في الأخبار والبرامج الأخرى.

2. إسهام الإعلام في الحفاظ على الشخصية العربية، فاللغة من أهم مقومات الانتماء أو ما صار يعبر عنه الآن بالهوية الثقافية والقومية، وهي يمكن أن تعبر عن أمة واحدة ذات هدف وتوجه مشترك، أما استخدام العاميات في الإعلام فإنه يشير إلى فرقة وتمزق يذهب بما بقي من عوامل الوحدة والانتماء، ويؤدي إلى الفرقة ويشي بالضعف وسهولة التنازل عن كل ما يخدم أمر تعزيز الهوية، إذ بالتنازل عن الفصحى فتَح الأبواب مشرعة أمام اللغات الأجنبية لاسيما أن الواقع صار مهياً لقبولها، فالغرض من استخدام العامية في كثير من الأحيان إنما

هو تمهيد لأن يُستبدل بالعربية لغةً أجنبية في العلم والثقافة ومن ثمَّ في الإعلام. كما أن استخدام العامية يؤدي إلى الفصل بين حاضر الأمة وماضيها وتراثها العلمي والحضاري، فقد استطاع العرب تمثل حضارات الأمم القديمة وأضافوا إليها من إبداعهم وعبقريتهم الشيء الكثير مما كان له أثر بالغ في الحضارة الإنسانية فصاروا بذلك مشاركين حقيقيين فيها، وصارت علومهم وثقافتهم ركيزة مهمة وقوية للتقدم الإنساني في العصور الوسطى، ودرست مؤلفاتهم في أعرق الجامعات وكانت نواة لكثير من العلوم الحديثة، وما يقال عن العلوم التجريبية يقال عن تراث العرب الأدبي من شعر ونثر فقد كان لهما الأثر البالغ والبصمة الواضحة على الآداب العالمية. فتعامل الإعلام العربي باللغة الفصحى يمتد نطاقه ويتعدى نفعه رقعة الوطن العربي فيشمل العالم أجمع، فالعالم لن يستفيد شيئاً مما نقدم له من أعمال درامية وقصص وما إليها بلغة عامية، وإنما هو في حاجة إلى علمنا وفكرنا وفننا السامي المؤدَّى بلغة راقية تقف ندّاً للآداب العالمية بل تتفوق عليها.

3. النهوض بالرسالة الأولى للإعلام وهي الرقي بمستوى المتلقين من خلال ما يقدم لهم، فلو كان ذلك باللغة العامية لم يضاف الإعلام جديداً إذ إنها لغة حديثهم اليومي لكن النجاح كل النجاح في أن يأخذ الإعلام بأيدي هؤلاء المتلقين إلى آفاق لغوية جديدة، وهذا أمر ميسور لما للإعلام من أثر بالغ يمكن الاستفادة منه في رفع المستوى العلمي والثقافي الذي لا يكون إلا برفع المستوى اللغوي. والارتباط بين الإعلام والفنون واضح وكبير فإذا توحدت لغة الفنون كان ذلك سبيلاً لتوحيد الشعوب. وقد ثبت تأثر الصغار بما يتلقونه وتقليد ذلك ومحاكاته حتى يصير لهم عادة وديننا، وأنت ترى تقليد هؤلاء الصغار لأبطال الرسوم المتحركة عربية كانت أم مترجمة بطلاقة فائقة ولغة معربة سليمة أسهمت إسهاماً كبيراً في تقويم ألسنتهم، وهم وإن كانوا في كثير من الأحيان يرددون ما يسمعون من دون إدراك لمعانيه إلا أن لذلك فائدة جلية تتجلى في تقويم السنة هؤلاء الصغار وتجويد مخارج الحروف لديهم وتعويدهم الأداء السليم، وفوق هذا وذاك وضعهم في محيط اللغة وبيئتها بحيث يتعايشون معها ويألفونها فيحبونها. وهناك جانب آخر تضطلع به هذه القنوات وهو إجراء البرامج الحوارية

باللغة الفصحى، وفي برامج المسابقات أيضاً حتى إن التشجيع فيها يكون باللغة الفصحى وهكذا تضع الطفل في محيط اللغة فلا يحس بغربة تجاهها فيدرك أنه كما يمكن أن يتعلم باللغة الفصحى فإنه كذلك يمكنه أن يلعب بها ويتسلى ويمارس هواياته.

غير أن بعض القنوات تتحو منحى مغايراً وذلك بإنتاجها برامج باللغة العامية في الرسوم المتحركة وغيرها من برامج الأطفال، وذهبت إلى أبعد من ذلك وهو ترجمتها للبرامج الأجنبية خاصة الرسوم المتحركة بالعامية، وفي ذلك ما فيه لأن الأطفال مجبولون على حبهم لهذه الرسوم، ولذا لن ينصرفوا عنها بحجة عدم فهمها بل يصبرون عليها حتى يفهموها وفي هذا خطر ماحق وشر كبير، إذ بدل أن يقتصر الطفل على عاميته سيتقن عامية غيره من الدول العربية مترجمة هذه الرسوم، ومن ثمّ يستطيع التواصل مع أهلها فلا حاجة حينئذ لاستخدام الفصحى في هذا التواصل.

كانت الأعمال الدرامية الأجنبية تؤدّى الأصوات فيها بعد ترجمتها باللغة الفصحى، وكان لها جمهور كبير وهي تمتد لمئات الحلقات مثل الأعمال المكسيكية التي تحظى بنسبة عالية من الإقبال، لكن ابتدعت بعض القنوات الفضائية الآن بدعة أداء الأصوات في هذه الأعمال بالعامية، وفي هذا خسارة كبيرة لأن المتابعين لهذه الأعمال أكثرهم من ضعيفي الصلة باللغة الفصحى فكانت هذه فرصة لربطهم بها، وهذا لا يعني موافقتنا على مضمون هذه الأعمال سواء أكانت للأطفال أو للكبار لكن الحديث هنا يتعلق فقط باللغة وما يمكن أن تفيده هذه الأعمال في هذا المجال. ولم تبق إلا الأعمال الدرامية والبرامج التي نترجم كتابتها ويكون ذلك باللغة العربية الفصحى، ونرجو ألا تحذو حذو سابقتها فتضع ترجمتها باللغة العامية، وهذه الترجمة على ما عليها من مأخذ تظل رابطاً بين المتلقي وبين الفصحى، ويكفي ما تفعله رسائل التواصل التي تظهر على الأشرطة الإعلانية التي تخدش الحياء اللغوي والأخلاقي معاً، وهذه أحسنت بعض القنوات الدينية إذ استغلت هذه الرسائل في بث الأدعية والأحاديث والأقوال المأثورة ويمكن أن تتخذ القنوات الأخرى ذلك وسيلة لبث الأشعار الجزلة والحكم والأمثال العربية وما إليها مما فيه طرافة تجذب المشاهد ويجد فيه عوضاً عما سواه فيقبل عليه

ويكون له حافزاً إلى البحث في الكتب والمراجع التي تقتبس منه هذه المواد.

4. من فوائد استخدام الفصحى في الإعلام استخدامها في الإعلانات التجارية التي تبثها وسائل الإعلام فيؤدي هذا إلى تحقيق انتشار أوسع لهذه الإعلانات ومن ثم تحقيق توزيع أكبر للسلعة أو الخدمة المعلن عنها، فالإعلان بالعامية فيه حصر وتضييق لنطاق انتشار الإعلان، ومن ثمّ توزيع المعلن عنه في نطاق من يفهمون اللغة المعلن بها فقط، وهذا إذا صلح في زمان مضى فلن يصلح الآن حيث صار العالم كله مستهدفاً بهذه الإعلانات في ظل العولمة الاقتصادية والشركات عابرة البحار، ففي الإعلان بالفصحى فائدتان: الأولى اقتصادية والثانية لغوية، إذ يحقق المعلن عنه رواجاً كبيراً بسبب أن الفصحى مفهومة لدى فئة أكبر من العامية وتكتسب اللغة وسيلة فعالة من وسائل انتشارها لما للاقتصاد من مكانة مهمة عالمياً.

لكن الواقع غير ذلك، حيث نجد كثيراً من القنوات تبث الآلاف من الإعلانات بالعامية بل أحياناً العامية الموهلة في المحلية، والعجيب في الأمر أن بعض المعلنين يستعين بعامية غيره لإنتاج إعلاناته وفي هذا نشر لهذه العامية وفي وطن غير وطنها، وبهذا تكتسب العامية أرضاً أخرى وتتوسع عل حساب الفصحى، أما كان الأجدر بهؤلاء استخدام الفصحى وهي لغتهم بدلاً عن الاستعانة بعامية غيرهم فهم في ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار. وهناك كثير من الإعلانات باللغة العربية الفصحى وهي سهلة قريبة للمستهلكين ولم نعرف منتجاً لم يحقق رواجاً بحجة أن لغة الإعلان عنه كانت العربية الفصحى، كما لم يكن الإعلان بالعامية سبباً لرواج ما يعلن عنه بها.

أنواع البرامج في الإذاعة والتلفزة

تتعدد برامج الإذاعة والتلفزة ما بين الأخبار والحوار بأشكاله المتعددة والبرامج العلمية والدينية والثقافية والسياسية والفنية. وكل نوع من هذه البرامج تتعدد أنواعه بحسب الفئة المستقبلية، ومن ثمّ ينبغي مراعاة اللغة التي توصل بها الرسالة الإعلامية حتى تحقق غايتها.

أجمعت وسائل الإعلام على أداء برامج بعينها باللغة الفصحى من ذلك نشرات الأخبار وما يلحق بها من تحاليل وتقارير إخبارية ورسائل مراسلين في تغطيتهم للأحداث المختلفة أياً كان نوعها، تستوي في ذلك الأخبار السياسية والرياضية والجوية والعلمية والفنية وما إليها، والأخبار بأنواعها تهم قطاعاً واسعاً من المتلقين وهم ينتظرونها انتظاراً ولم نسمع قط بمن لم يفهم لغة الأخبار أو فاتته شيء منها بسبب لغتها. ولما تعرف وسائل الإعلام من أهمية الأخبار في حياة الناس فإنها تؤدّيها باللغة الفصحى كسباً لمساحة واسعة من المتابعة والاهتمام. ومتابعة الأخبار تجمع بين مستويات مختلفة من البشر وهي من أخص اهتمامات القادة والمتقنين وصناع القرار وكبار الأكاديميين وأهل العلم ولو لم تؤد بلغة تحترمهم وتحترم عقولهم لانصرفوا عنها. أضف إلى ذلك أن هذه الأخبار أينما كان حدوثها فإنها تهم قطاعاً واسعاً من المتلقين حول العالم، فلو أُدّيت بالعامية لفات كثيرين إدراكها والإمساك بها. وأدائها بالعامية ربما أوقع في لبس وخط في فهمها كما يحدث كثيراً عند الترجمة من لغة إلى أخرى فإذا لم يكن المترجم مالكاً لزمam اللغتين معاً فربما تقع أخطاء كبيرة تؤدي إلى سوء فهم وإلى خلافات بين الناس.

وهكذا الحال بالنسبة للبرامج الدينية فنسبة أدائها بالفصحى أكثر بكثير من أدائها بالعامية، وربما يعزى ذلك في مجمله لارتباط الفصحى بالدين فهي وعاءه ووسيلته، لذلك تعتمد وسائل الإعلام اللغة الفصحى سواء في تقديم برامجها أو في الإجابة عن الأسئلة التي تردّها من المتابعين من فئات مختلفة من حيث الثقافة والمستوى العلمي من كل أنحاء العالم، ولم نسمع شخصاً من هؤلاء المستفتين والسائلين قال إنه لم يفهم الجواب عن سؤاله لأنه بالفصحى، وهذه القنوات كثيراً ما تخصص أوقاتاً لسماع آراء مشاهديها ومستمعيها فيما تقدم من برامج لكن لم يذكر أحد قط إنه لم يفهم ما يقدم لأنه باللغة الفصحى بل لم يقترح أحد أن تقدم هذه البرامج باللغة العامية، وهذه البرامج من أكثر البرامج التي تضم بين متابعيها أخطأ شتى وأنواعاً متباينة من الناس. وكما هو معروف فإن أكثر القائمين على أمر هذه البرامج يعتبرون من حملة العلم القادرين على مخاطبة الناس بلغة عربية فصحة بليغة ويستشهدون بالآيات

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

والأحاديث وأقوال السلف. وبعض هذه البرامج أو قل جُلُّ هذه البرامج يقدمها العلماء والدعاة والأكاديميون المشهورون بالعلم والإمساك بناصية اللغة.

والحال كذلك في بعض برامج الحوار سواء كانت سياسية أم علمية أم ثقافية فإن مقدميها وضيوهم غالباً ما يميلون إلى التحدث بالفصحى.

أما البرامج الثقافية الأخرى فتتوزع بين الفصحى والعامية، غير أن الغالب فيها هو استخدام العامية في الربط بين الفقرات والفصحى في تقديم المعلومة، وهكذا يظهر الخلط بينهما واضحاً، وهذا أيضاً يمكن استغلاله بأخذ هذه البرامج نحو الفصحى الصرف بشيء من التدرج حتى يعتاد ذلك القارئون عليها فيقبلونها ويتقبلها المتلقون. وكثير من البرامج الجماهيرية من هذا النوع، وفيها تواصل مباشر بين المقدم والمتلقي فلو تحدث المقدم بالفصحى لوجد المتلقي يسايره في ذلك ثم تصير لهم عادة ودينا.

أما البرامج الفنية وبرامج التراث الشعبي ونحوها فإنها تقدم بلغة عامية وقد تكون من العامية الموعلة في المحلية التي لا يكاد يفهمها إلا أهلها، لكن هذه البرامج حيزها ضيق ومساحتها محدودة وإنما الطامة الكبرى في الأغاني والأعمال الدرامية التي تحتل وقتاً كبيراً من ساعات البث، بل بعض القنوات والمحطات إنما أنشئت لهذا الغرض خاصة، وهذه يصعب الإصلاح فيها ولكن كل شيء ممكن في ظل وجود خطة محكمة ومنفذين يؤمنون بقضيتهم ويصبرون عليها ولا يتعجلون النتائج.

ونقول عن الأغاني والأعمال الدرامية أنه يمكن أن يندب لها خيار الكتاب والروائيين ممن يجيدون العربية وفي الوقت ذاته يقدمون مادة جاذبة نصاً ومحتوى بحيث تجذب المتلقين وتصرفهم عما سواها على ألا يكون ذلك في الأعمال الدينية والتاريخية فقط، والناس يرددون الأغاني ويلتفون حول الأعمال الدرامية التي تكون بغير عاميتهم وهم لا يفهمونها لكن ذلك لا يكون عاملاً لصرفهم عنها وذلك لتعلقهم بالقصة، ولذا فإن هذا الأمر ممكن إذا كانت هذه الأعمال باللغة الفصحى، وهذا أمر مجرب إذ ظل صدى كثير من الأعمال الدرامية عالماً

بالأذهان مدةً طويلة وهي باللغة الفصحى وذلك لجودة القصة وحسن الأداء.

الصحافة

تمثل الصحافة صنفاً من الأصناف المقروءة من وسائل الإعلام، وهو يركز على جانب واحد وهو الكتابة فالخطأ فيه يتعلق بالجوانب النحوية والإملائية والأسلوبية حيث إن جانب الأداء الصوتي مفقود هنا.

تعد الصحافة أول ما ظهر من وسائل الإعلام ودورها كبير في نشر الوعي والتواصل بين الشعوب، وقد زادت أهميتها الآن وصار دورها أشد تأثيراً بعد ظهور الصحف الإلكترونية حيث صارت الصحيفة تقرأ لحظة صدورها في كل العالم من خلال نسختها الإلكترونية على الشبكة، والصحافة أكثر وسائل الإعلام اعتماداً على اللغة فكان حرياً بها المحافظة على اللغة بل العمل على تطويرها والرقى بها حتى تنهض بوظيفتها في ترقية المجتمع والنهوض به والقيام بدور فاعل تجاه لغته، وهي أقل وسائل الإعلام زللاً في الجانب اللغوي، إلا أن ذلك لا يبعدها عن هذه العثرات المتمثلة في شيوع اللحن والأخطاء من نحوية وإملائية وأسلوبية تصدمك حتى في عناوينها البارزة فتصدك عن قراءتها، أو حشو مقالاتها بها فتتفرك من متابعتها وما ذاك إلا لأن بعض القائمين على أمرها يفوتهم خطر ما يقعون فيه من أخطاء ومدى تأثير ذلك في القراء، إضافة إلى أن بعضهم من ذوي المستويات العلمية العادية. وقد يكون خطأ بعض هؤلاء ناشئاً عن ظنهم أن لغة الإعلام ليست مقيدة بالأخذ بالقواعد النحوية والصرفية والإملائية وأن قصارها توصيل الخبر وإفهامه للقارئ بأي وسيلة كانت وهي في ذلك تخطئ خطأ فادحاً بتنازلها عن دورها المهم في الرقي بهذا القارئ وتعليمه التعبير السليم وفي ذلك احترام لعقله ووعيه.

ثم إن هذا الصحف في كثير من الأحيان تحاكي النماذج المترجمة فتتورط في كثير من الأحيان في مزالق لغوية ناشئة عن اختلاف التعبير بين العربية وغيرها من اللغات، من أمثلة ذلك عود الضمير على متأخر لفظاً، وهذا الأمر شاع وذاع في الصحافة العربية، ومثله كثير

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

فما يصلح في لغة لا يصلح في سواها. كما أن الكثير من هذه الصحف لا تجديد فيها ولا ابتكار فأنت تقرأ الخبر بصيغة واحدة في كل الصحف اليومية لا يشذ منها شاذ، وفي ظني أن هذه الصحف تتبع نماذج بعينها في صياغة الخبر حتى إن قراءة صحيفة واحدة تغنيك عما سواها لعلمك أنك غير واجد فيها جديداً يمكن أن يضيف إليك مفيداً، وهذا ما كان يمكن أن تستغله الصحف فتتميز بالتفرد في الحبكة والصياغة وحسن الأداء اللغوي باستخدام ألفاظ صحيحة من غير المألوف في لغة الصحافة، فنكسب قراء جددًا فيكتب لها الذبوع في زمن كثرت فيه الصحف وزاد عددها زيادةً كبيرة، فإذا المنافسة كبيرة بين هذه الصحف وهي في حاجة ماسة إلى وسائل الترويج وهذه وسيلة مهمة من وسائله كان يمكن أن تتلقفها هذه الصحف وتأخذ بها فتستفيد وتفيد.

أما الملفات الثقافية والأدبية بالصحف فتراها تعج بالعامي من شعر وقصة وما إليها من أجناس أدبية، وما كتب بالفصحى قد يتصدى له من لا يملكون ناصية اللغة فتأتي اختياراتهم وفقاً لذلك فلا يسهمون في الارتقاء بالذوق الأدبي واللغوي للقراء، وقد ابتدعت بعض الصحف تخصيص صفحات بكمالها لنشر القصائد العامية والرفع من شأن منشئها وإفراد المجال لهم لسرد سيرهم وتجاربهم الشعرية، فانتشر هذا النوع من الأدب على حساب آداب الفصحى وصار هو المثل للناشئة والمعبر عن المجتمع، كما أسهم إسهاماً بالغاً في الفرقة بين الأمة العربية، فمن ذا الذي يفهم شعراً محلياً يحمل مفاهيم محلية وبلغة محلية حتى في داخل الوطن العربي فما بالك بغيره، فمثل هذا الأدب بعيد كل البعد عن الإقليمية فضلاً عن العالمية. ونحن هنا لا نقول بمحاربة الأدب الشعبي جملة لكن لا ينبغي أن يعطى حجماً أكبر منه فيسود على حساب الأدب باللغة الفصحى ويصير عنواناً للأمة ومعبراً عنها. وهذا أيضاً يدعونا إلى دعوة كبار الكتاب من صحفيين وأدباء وشعراء إلى اقتحام عالم الصحافة بكل فنونه والكتابة كل في مجاله ولا تترك الساحة من غير منافسة. وعلى وزارت الثقافة والإعلام في الدول العربية أن تنشئ صحفاً ومجلات ينتدب لها خيرة الكتاب في كل مجال، وأن تكون للجامعات الأدبية المنتشرة في الوطن العربي إصدارات للأدب الفصيح، وأن تكون للجامعات إضافة إلى

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

مجالاتها العلمية المحكمة مجلات أخرى توازي هذه الصحف والمجلات الموجودة في الساحة لأن هذه إن وجدت فستشجع الكثير من الكتاب والشعراء والأدباء الذين يأنفون من التعامل مع ما هو موجود من صحف ومجلات، فيجزمون عن النشر ومن ثمّ يمكن أن تشكل مثل هذه الإصدارات ملاذاً أدبياً للكتاب والقراء معاً. فنحن نرى اليوم عزوف كثيرين عن قراءة الصحف والمجلات لأنهم يرون فيها مضيعة لوقتهم وعدم إشباع لعقولهم فيعرضون عنها من غير أن يجدوا بديلاً.

أضف إلى ما سبق من استخدام العامية في الصحافة شيوع الإعلانات التجارية بالعامية في هذه الصحف وما سبق قوله عن أن هذا الأمر لم يعد مجدياً بالنسبة للمعلن عنه يمكن تكراره هنا، إذا لم تعد الصحف محلية كما كان الحال في السابق، فما صلح في زمان سبق لن يصلح الآن في وقت صارت الصحيفة تقرأ في مشارق الأرض ومغاربها في آن واحد فكيف يعلن عن سلعة بلهجة قطر بعينه فلا يدري مواطن قطر آخر ما الذي يدعى لشرائه، فضلاً عن المتحدثين بالعربية من غير العرب.

وبعض الصحف لم يكفها كل ما فعلت في اللغة فأضافت لها ظاهرة أخرى وهي استخدام الألفاظ الأجنبية جنباً إلى جنب مع الألفاظ العربية فخرجت لغة غريبة تعبر عن معنى شائه، وليس هذا في جانب المصطلح حينما لا يكون من استخدامه بد في ظل عدم وجود المقابل العربي وإنما في الألفاظ والتراكيب أيضاً.

الشابكة (الإنترنت)

بظهور الشابكة اكتسب الإعلام أرضاً جديدة وتوسع انتشاره بسرعة لم تكن متوقعة ومن ثمّ لم يكن محسوباً حسابها عند كثير من الأمم ونحن منهم بالطبع فجرفتنا أولاً من حيث إننا متلقون لها ولسنا مشاركين في صنع هذه النقانة ولكننا مستهلكون لها بنهم لا يعرف التروي ولا يعرف الانتقاء أو السيطرة اللغوية عليها، فإضافة للمشكلة المزمنة التي نعانيتها وهي قلة الموجود على الشابكة من المحتوى باللغة العربية فهناك مشكلة أن هذا الموجود بالعربية إنما

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

هو بلغة لا يرضى عنها كثير من أهل اللغة، وهنا ينبغي أن نميز بين أنواع عدة مما هو موجود على الشابكة، وهو إما مواقع أدبية أو دينية وثقافية وهذه في مجملها جيدة اللغة والمحتوى سواء أكانت باسم مؤسسات وهيئات أو باسم أشخاص وهي تتلج الصدر وتبرز صورة طيبة عن العرب ولغتهم، وإما منتديات تتنوع ما بين ما هو جيد وبين ما هو رديء وهذا هو الغالب في المنتديات إذ كثير منها ينشئها شباب لا همّ لهم سوى الترفية والتسلية ولا معرفة ولا ثقافة لديهم تجعل اللغة من بين همومهم فهم ينشرون كل هذا بالعامية، وهذا لعمر ك أمر مناف لأهداف الشابكة نفسها إذ المرجو منها أن تكون أداة تواصل بين الأمم والشعوب بل كان المقصود منها أن تجعل العالم قرية فكيف إذن تجعل من العالم قرية ناطقة بعامية إحدى الدول.

اكتسبت الشابكة جمهوراً عريضاً أكثره من الشباب وهم ينفقون أمامها الساعات الطوال وتأثيرها فيهم كبير جداً يمكن أن يستغل في وضع برامج تعليم اللغة العربية الفصحى عليها وينبغي أن تكون هذه البرامج مصممة تصميماً جيداً بحيث تكون جاذبة للعرب وغيرهم، كما يمكن أن توضع عليها كنوز التراث العربي من شعر وأدب وغيره، وهذا يحتاج أيضاً إلى أن يفتح هذه الشابكة العلماء والأكاديميون وأن تزال الأمية التقنية من بين كل فئات الشعوب العربية. وكما هو معروف فإن الشباب اليوم على معرفة فائقة وإلمام كبير بكل تقنيات هذه الشابكة فهم إنما يحتاجون فقط لمن يوجه معارفهم هذه للاستفادة منها في خدمة اللغة وهذا يدعونا للقول بضرورة استقطاب مجامع اللغة العربية وأقسام اللغة العربية ومراكز البحث العلمي لهؤلاء الشباب للاستفادة من خبراتهم هذه وفي هذا ربط لهم باللغة وتقوية انتمائهم إليها ومن ثم يحملون همها وينفلقون عنها فيقبلون على خدمتها بقناعة.

كما أنه لا بد من إنشاء منتديات باللغة العربية تنافس تلك الموجودة على الشابكة باللغة العامية فما كان مخصصاً للشعر العامي توضع إزاءه منتديات للشعر الفصيح، وما كان للتسلية والتفكه يوضع مثله وقوامه الطرائف والحكم والأمثال باللغة الفصحى وهكذا.

نحن أمام تحد كبير في مجتمع العولمة الذي استغل الشبكة استغلالاً واسعاً، فعلينا أن ندخل فيها دخول الواعي المحصن بإرثه الحضاري والثقافي والعلمي وأن نسهم فيها إسهاماً كبيراً وأن ندعم البحث العلمي بسخاء حتى نكون مساهمين في التقنية وغير مستهلكين فنستطيع أن نفرض وجودنا فيها ولا تقتصر على التلقي عن غيرنا، فنحن أمة جذورها ضاربة في التاريخ عرفت بفضلها الكبير وإسهامها الواضح على كل ضروب العلوم وينبغي أن نعود للإمساك بأزمة هذه العلوم من جديد فنأخذ بيد البشرية إلى آفاق أوسع وأرحب، كل ذلك بثقة وأمل.

وكذلك الحال بالنسبة لوسائل الإعلام الأخرى حيث ينبغي التعامل معها بروح الائق بنفسه القادر على التقويم ومن ثم التغيير وتقديم البديل الصالح في كل مجال فنحن أمة عرفت بتحديثها الصعاب وتغلبها عليها مهما بلغ مداها، ومن هنا نورد جملة من التوصيات علها تسهم فيما نرمي إليها.

التوصيات

1. النظر إلى المستقبل بأمل وعدم اليأس من الإصلاح وبث الثقة في النفوس واستنهاض الهمم وتكاتف الجهود العربية وأولها الحكومات العربية التي عليها دور كبير لا بد أن تقوم به في هذا الشأن، فكثر من جوانب الإصلاح يقتضي إصدار قرار سياسي فيه، ومنها ما يحتاج إلى إنفاق كبير، وتنسيق دقيق بين الدول حتى لا تنتشت الجهود وتذهب سدى.
2. إنشاء قنوات عربية مشتركة تبث كل برامجها باللغة الفصحى مع عناية خاصة بمحتوى هذه البرامج وطريقة تقديمها مع توفير أعلى مستوى من الإمكانيات التقنية لها حتى تكتسب ثقة المشاهدين فيقبلون عليها.
3. التيسير الدائم بالأخطار التي تتهدد الأمة باستخدام العامية وإحلالها محل الفصحى والربط الدائم بين الحفاظ على اللغة والحفاظ على بقاء الأمة وهويتها الفكرية والثقافية. والنظر إلى اللغة باعتبارها مقوماً مهماً من مقومات الهوية الحضارية للأمة.
4. توجيه الاهتمام إلى كليات وأقسام الإعلام بالجامعات والنظر في مناهجها ومراجعتها

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

والوقوف على مناهج اللغة العربية ولغة التدريس بها في المناهج الأخرى حتى يتخرج طالب الإعلام مسلحاً بلغة رصينة تؤهله للقيام برسالته من حيث الأداء ومن حيث حمل الأمانة في نشر اللغة الفصيحة.

5. التدقيق في اختيار المذيعين والعاملين في إعداد البرامج وكل العاملين في مجال الإعلام ووضع معايير لغوية ومهنية عالية لهم. مع الاهتمام بطريقة الإلقاء لأن في المحافظة عليه محافظة على جانب مهم من جوانب جمال اللغة وجاذبيتها ولما يؤديه الإلقاء من وظيفة كبيرة في الجانب الدلالي.

6. التقليل من البرامج التي تبث بالعامية في مختلف وسائل الإعلام العربية والتبصير بخطر استخدام العاميات وأن هذا الخطر أول مظاهره يؤثر في هذه الوسائل نفسها وهو تدني نسبة المشاهدة لهذه البرامج فما عادت هذه الوسائل موجهة للداخل فقط بعد ثورة الاتصالات وانتشار البث الإذاعي والتلفزيوني.

7. التبصير بأهمية استخدام الفصحى في وسائل الإعلام في أمر الوحدة العربية والهوية، إذ اللغة من أهم مقوماتها. وأن العربية الفصحى هي سبيل إعلامنا إلى العالمية.

8. توجيه اهتمام خاص للقائمين على أمر إعلام الطفل من حيث الاختيار واستمرار التدريب، مع دعم برامج الأطفال المقدمة باللغة الفصحى وذلك بالإنتاج العربي للرسوم الكرتونية وغيرها من البرامج، لأن ذلك يكون قريباً من الطفل لأنه من واقعه وبيئته فيقبل عليه وينقبله، ولذلك فائدة أخرى هي المحتوى الأخلاقي والقيمي لهذه الأعمال الذي يناسب الطفل العربي، ثم دعم المترجم من هذه الأعمال بمختلف أشكالها باختيار المترجم الجيد والعمل على الحد من البرامج المقدمة بالعامية والمترجمة إليها. مع التركيز على تنمية السليقة اللغوية للطفل والتثاقف الفني لكل الأجناس الأدبية. واستغلال ميل الأطفال إلى تقليد ما يتلقون من أجهزة الإعلام في زيادة ذخيرتهم اللغوية وحسن أدائهم. مع إبعادهم عن كل ما يسخر من اللغة الفصحى ويستجهن الكلام بها. وضرورة التنسيق بين المؤسسات التعليمية الخاصة بالطفل وأجهزة الإعلام الموجهة له. إضافة إلى التزام اللغة الفصحى في الإعلانات

الموجهة للطفل في مأكله ومشربه ولعبه.

9. الرقابة الدقيقة على كل ما يكتب في الصحف وتعيين مدققين لغويين من المتمكنين من ناصية اللغة، ويطبق ذلك أيضاً على وسائل الإعلام الأخرى من إذاعة وتلفزة.

10. الاستفادة من الوسائل التقنية لخدمة اللغة يتمثل ذلك في إقامة مواقع إلكترونية للمجامع اللغوية والعلمية ومراكز البحوث المختلفة على أن تحوي هذه المواقع صفحات عن الأخطاء الشائعة وتصحيحها وتشر عليها القرارات اللغوية للمجامع وما يستجد في أمر المصطلحات لأن ذلك يقرب المسافة بين جهود هذه المجامع والمراكز.

11. العناية بالبرامج الثقافية وزيادة ما يقدم فيها من شعر فصيح وقصص وأمثال من التراث العربي وإقامة المسابقات في ذلك لأن مثل هذه الأشياء تجذب المشاهدين فيقبلون عليها وتساعدهم بعد في تقبل كل ما يلقي عليهم باللغة الفصحى.

12. الاهتمام بالدراما المقدمة في وسائل الإعلام وتشجيع التأليف باللغة الفصحى على أن يصاحب ذلك اهتمام بالقصة والأداء والجانب الفني والتقني، مع ضرورة أن تتخذ الدول تدابير حول ترجمة الأعمال الأجنبية ومحاكاتها باللغة الفصحى لا العامية.

13. مضاعفة الجهود المبذولة في مجال محاربة الأخطاء الشائعة في وسائل الإعلام المختلفة، وجعل وسائل الإعلام شريكاً في هذه الجهود حتى لا تحس أنها مفروضة عليها فرفضاً فترفضها وإنما ينبغي الإحساس بأن المسؤولية مشتركة والهدف واحد فيؤاد الخطأ في مهده فلا يذيع وينتشر، مع ضرورة التريث والتروي والنظر في الوجوه المختلفة للفظة أو التعبير عند الحكم بخطئه حتى تكتسب هذه الأحكام ثقة أهل الإعلام فيأخذون بها وحتى لا تكون هناك بلبلية لغوية لدى المتلقين.

14. إعادة النظر في خريطة البرامج في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية عامة بحيث يركز فيها على البرامج اللغوية بوجه عام على تنوع فيها واهتمام بمضمونها وطريقة تقديمها، على أن يخصص شيء من هذه البرامج للحديث عن علاقة العامية بالفصحى وبيان الألفاظ والتراكيب الفصيحة في العاميات.

اللغة العربية والإعلام العربي الإشكاليات... والتحديات

د. عبد العزيز المقالح

أستاذ الأدب والنقد الحديث في كلية الآداب

جامعة صنعاء - اليمن

رؤية عامة لمصادر الإشكالية

كثيرة هي الإشكاليات التي تعاني منها اللغة العربية، وأهمها وأخطرها، تلك التي نشأت عن الإعلام بوسائله المختلفة؛ المقروء منها والمسموع والمرئي.

وأزعم أن جوهر المسألة في الخلل القائم بين اللغة العربية والإعلام يعود إلى إشكاليات ثلاث: الأولى: لغوية، والثانية: قومية وسياسية، والثالثة والأخيرة: تعود إلى الانبهار بلغة الآخر. وتتمثل الإشكالية الأولى - وهي الأبرز - في الازدواجية القائمة بين الفصحى والعامية. أما الإشكالية الثانية فلا تخص قطراً عربياً بعينه، بل كل الأقطار، وتنبذ في الموقف غير الإيجابي للأنظمة العربية من وضع اللغة، وما تتعرض له من انتهاك تقوم به وسائل الإعلام الرسمية والخاصة، برغم كل ما تضمنته دساتير الأقطار العربية من أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، وبرغم أن هناك إجماعاً تاماً بين الباحثين في التكوين التاريخي للأمم على أهمية العنصر الأساس في هذا التكوين، وهو اللغة بوصفها أداة الوعي ومظهر الإحساس بالهوية، ليس من خلال وحدة التفاهم فحسب؛ وإنما من خلال ما تنتجه هذه اللغة من علوم وآداب، تعزز مفهوم الهوية والانتماء، وترفع من شأن اللغة ذاتها، وتجعل حفظها مرتبطاً بحفظ آثارها، وما أبدعه شعراؤها وأدباؤها ومفكروها وعلمائها عبر العصور.

فإنها لهذا أحوج ما تكون إلى عناية فائقة من جهات عديدة، وفي مقدمتها الإعلام بإمكاناته اللامحدودة. لأن القضية تبدو خارج نطاق اجتهادات المجامع والمؤسسات المعنية باللغة، وحلها يأتي بقرارات ملزمة من الأنظمة الحاكمة، أسوة بغيرها من الأنظمة التي تجعل من اللغة شأنًا قومياً مهماً. أما الإشكالية الثالثة، فتتجلى في التقليد والانبهار بالآخر الأوربي تحديداً، وفي إقحام بعض مفردات اللغات الأجنبية في الأحاديث الإذاعية والتلفزية والكتابة الصحفية، وهي مفردات تتكاثر وتتزايد في هذه الوسائل يوماً بعد يوم، وعماماً بعد عام؛ تعبيراً عن الضعف تجاه الآخر وعن عدم احترام اللغة والعروبة.

ولهذا نجد أن الخطر لم يعد قادماً من استخدام الإعلام للمفردات العامية فحسب؛ وإنما في إقحامه لبعض المفردات الأجنبية، لا لسبب وجيه يدعو لذلك، أو لعجز في العربية عن التوصيل الدقيق للمعنى المراد إيصاله. ولا أدري ما الطرافة أو الهدف في أن يكون العنوان للموضوع الرئيس في مجلة عربية مصورة محترمة على هذا النحو المهيمن للغة العربية (نعم we can)¹. كم عدد القراء يا ترى الذين يقرؤون اللغة الإنجليزية حتى لا يفاجئهم أو يصدمهم الكاتب المحترم بمثل هذا العنوان الغريب. وكثيرة هي العجائب المخجلة في دنيا الإعلام العربي في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ هذه الأمة التعيسة، التي تضافرت عليها الخطوب، ودخلت في طور جديد من الصراع مع أعدائها وأبنائها على حد سواء.

وإذا كان الشعر العربي، وما رافقه من آداب ومعارف فكرية وفلسفية، قد أسهم إلى حد بعيد في إرساء قواعد هذه اللغة واحتفظ لها بالبقاء، فإن القرآن الكريم قد كان هو الفاعل الأساس في حماية اللغة العربية من الاندثار في أشد العصور انحطاطاً وبعداً عن النهوض السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

ولما كان للغة - أية لغة - كل هذه الأهمية، أولتها الشعوب بالغ اهتمامها، وأنشأت المدارس والجامعات والمعاهد لتعليمها والارتقاء بها، وعندما ظهرت وسائل الإعلام الحديثة

¹ مجلة المصور: العدد (4452)، فبراير 2010م، ص 3.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

بدءاً بالصحف ثم الإذاعة والتلفزة، اتسع هذا الاهتمام باللغة، وبدأت دول عديدة باستخدام بعض هذه الوسائل كالإذاعة والتلفزة في ترسيخ القناعة لدى شعوبها، بأهمية لغاتها وضرورة تعليمها للآخرين. ومن يتابع واقع هاتين الوسيطتين لدى الدول المتقدمة، يدرك أن فكرة نشر اللغات عن طريقهما لم يعد وفقاً على اللغتين الإنجليزية والفرنسية - كما كان عليه الحال قبل نصف قرن - وإنما امتدَّ إلى الألمانية والصينية واليابانية، وغيرها من لغات الدول ذات التقدم العلمي والاقتصادي.

والسؤال الأهم هو: أين نحن من هذا الذي حدث ويحدث في العالم؟ وأين مكان لغتنا، وهي من أقدم اللغات في العالم وأهمها، وموروثها أكثر احتشاداً بالعلوم والمعارف؟ ولغة هذا شأنها لا ينقصها لتكون واحدة من اللغات العالمية ذات الحضور في المجتمعات الإنسانية سوى قدر من العناية الرسمية والشعبية، والاستفادة من تجارب الآخرين في هذا المجال، الذي يُعدّ مركزياً وجوهرياً، وعلامة من علامات تطور الشعوب ونهوضها في زمن التنوّع، وتمثّل الثقافات، ودحر المفهوم العدواني للعولمة، الذي بدأ يجتاح كثيراً من الشعوب في عالم اليوم، وما ينطوي عليه هذا المفهوم من تغليب لغة على أخرى، وثقافة على ثقافة، ولأهداف لم تعد خافية ولا مستترة عن المجتمعات البشرية، ومنها تلك الشعوب التي تعاني لغاتها من الضمور ومحدودية المفردات والتداول.

ولا يخالجنى شك في أن اللهجات ستبقى حتى وإن انتهت الأمية وانحسرت نهائياً في الوطن العربي، لكن بقاء هذا المستوى من اللهجات لا ينبغي، بل لا يجوز أن يتحول إلى أداة تعبير في وسائل الإعلام، لما في ذلك من خطر تحول هذه اللهجات نفسها مع مرور الزمن إلى لغات خاصة للأقطار العربية. وإذا سلّمنا بوجود خلاقات تقوم بين حين وآخر بين نظام سياسي عربي ونظام آخر، أو ظهور اختلافات مذهبية داخل هذا القطر أو ذاك، فإن ذلك لا يعني الانتقال من اللغة الجامعة للمشاعر، والشاهد على المعنى الكبير للهوية القومية، كما لا يدفع ذلك إلى التخلي عن لغة الآباء والأجداد، ولغة الكتابة الإبداعية نظراً لفقر اللهجات، واستحالة أن يكتب بها المبدعون أعمالاً ترقى إلى المستوى القادر على اجتياز حدود منطقة

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

اللهجة وساحة التحدث بها. وهذا ما تؤكد الأبحاث العلمية، وتؤكد تجارب المبدعين العرب الذين أكدوا إخفاقهم في كتابة نصوص إبداعية بالعامية ذات قيمة جمالية خالدة!

وما أكثر الأبحاث التي أثبتت أن العامية، ليست في التحليل العلمي سوى لغة بدائية، أنتجها الواقع البدائي قبل أن يتطور الإنسان وتتطور معه وسائل التعبير وتأخذ مداها الأوسع في مجال الفكر التجريدي والإبداعي! والوقوف على تلك اللهجة البدائية - مع احترامنا العميق لما أنجزته لدى بعض المبدعين العرب قديماً وحديثاً - وبعد انحسار البدائية بكل محمولاتها القبلية والمناطقية، يعدّ ضرباً من التمسك بالأطلال، لا الوقوف عندها، وفيما يبذله البعض من حرص على استمرار محاولة التعبير بها، في ذلك كله الكثير من التناقض والمفارقة. ولا أريد أن أعود إلى مجمل الصراع الذي دار - على سبيل المثال - في مصر بين أنصار الفصحى والعامية. والذي تتحدد خلاصته في مقولتين إحداهما تنادي بالارتقاء بمستوى الشعب إلى فهم ما يكتب ويقال بالفصحى، والأخرى تنادي بالنزول إلى مستوى الجمهور والتحدث أو حتى الكتابة له بلهجته، علماً بأنه لا توجد في اللغات العالمية الكبرى كتابات باللهجات، مع استحالة نجاح لهجة فقيرة كانت تصور العوالم البدائية بفقرها وجمودها، أو أن تكون قادرة على الارتقاء إلى المستوى الحضاري بكل تعقيداته وإنجازاته وأسراره.

لقد ظهر في الوطن العربي من أنصار العامية من يدافع عنها إلى حد التطرف والغلو، ووصل الحال ببعض، وتنفيذاً لمطامع الاستعماريين الأوائل والجدد، إلى التبشير بلغة منفصلة لكل قطر عربي، تقوم على لهجاتها المحلية، علماً بأن في كل قطر عشرات اللهجات! وهناك صنف آخر من الناس حسن الظن، يرى في العامية الوسيلة الممكنة للتواصل مع الشعب الأمي (الجاهل)، وكأن هذا الشعب محكوم إلى الأبد بأن يظل أمياً وجاهلاً، وكأن التوسع في التعليم لن يلغي الأمية أو يعالج الخلل القائم بين الطبقات الاجتماعية وما يصاحبه من فوارق لغوية ومعاشية. وأكرر القول: إننا مع الفن البديع الذي تم إنجازه باللهجة العامية، لكننا ومن منطلق الحرص على وحدة الأمة ووحدة لغتها وثقافتها، لا يمكن أن نكون مع استخدام العامية في وسائل الإعلام، ولا مع استمرارية النظر إلى الشعب بعين الشك في قدرته على التطور

وقراءة الآداب الأكثر أهمية ونفعاً وإمتاعاً. ويلاحظ أنه لم يعد هناك في الأقطار العربية من المبدعين من يكتب قصصاً بالعامية، كما أن الروايات التي كانت تظهر مطعمة بالعامية اختفت، وتخلّى المبدعون عن الازدواجية اللغوية التي أثبت الواقع فشلها، وأثبت كذلك أن الأمي الذي لا يجيد قراءة الكلمات بالفصحى، هو نفسه الذي لا يجيد قراءة الكلمات العامية في الأعمال الإبداعية الحقيقية. وفي الإبداع، كما في الفكر والفن، ليس المقصود إيصال المعنى وحده إلى القارئ أو المشاهد أو المستمع، وإنما كيف يصل هذا المعنى وبأي مستوى من اللغة، وإذا كنا قادرين على إيصال المعنى بلغة فصحي واضحة وسهلة فلماذا نهرب إلى العامية بتركيبتها ومفرداتها الهابطة؟

ولما كان الموضوع الرئيس في هذا البحث يتمحور حول علاقة الإعلام باللغة، فإن النظرة الموضوعية إلى الإعلام العربي تستدعي التفريق بين مستويين اثنين من هذا الإعلام أحدهما مكتوب، والآخر منطوق. والمكتوب منه يتمثل بالصحف والمجلات الإعلامية الأسبوعية منها والشهرية إذا ما استثنينا بعض مواقع الشبكة (الإنترنت)، كما يتبدى الإعلام المنطوق في الإذاعتين المسموعة والمرئية. تحتفظ اللغة العربية في الإعلام المكتوب إلى حد ما بمستواها الإعرابي والتركيبى، في حين أن الإعلام المنطوق في عدد من الإذاعات المسموعة والمرئية لا يراعي هذه المعاني. ومن المؤسف أن الإذاعات والتلفزات الناطقة باللغة العربية في الدول الأجنبية تبدو أكثر التزاماً بقواعد اللغة العربية، ولا يرتكب المذيعون والمذيعات في هذه الوسائل الإعلامية أخطاء زملائهم في الوسائل الإعلامية العربية، ولا يستخدمون التعبيرات العامية باللهجات المحلية التي شاعت في الآونة الأخيرة، ووجدت طريقها إلى المقابلات، أو بالأصح الثثرات الإذاعية والتلفزية. ولا ننسى أن الإعلان قد أدى دوراً مدمراً في هذا المجال؛ اعتقاداً من المستثمرين له أن الكلمة لن تصل إلى المستهلك إلا إذا كانت عامية وهابطة.

ولا مناص من الإشارة إلى الأغاني الهابطة والتمثيلات التي راج سوقها في الإذاعات والقنوات الفضائية، بوصفها - من وجهة نظر إعلامية سائدة - وسيلة فعالة للتواصل مع

الجمهور، وهو ما يدعيه أيضاً أنصار هذا المستوى من اللهجات المحلية جداً، وعلى نحو أخص لهجات المحافظات مثلاً، وبدأنا وكأننا نعترف بهذا المستوى الهابط كأمر واقع لا يمكن تجاهله أو التغلب عليه بين يوم وليلة، وإن هذه التجاوزات لا تمنع القول بأن ظهور وسائل الاتصال الحديثة، قد شكّل أملاً كبيراً في الانتصار لما يسمى باللغة الوسطى، التي تقارب ما بين الفصحى والعامية، وتوحد الأمة الواحدة في اعتماد مستوى لغوي فصيح وقريب من الفهم العام، مع النفاذ الإعلامي قومي يسعى إلى التخلص التدريجي من سيطرة العاميات ونفوذ اللهجات التي تعمل على شق الصف العربي الواحد، والإساءة إلى اللغة الأم.

وتقتضي الإشارة هنا، إلى أن اللغة الأم تفرض علينا الدخول في حوار لا نريد له أن يطول، وذلك من خلال إيجاز الاختلاف الذي استغرق كثيراً من الحبر والورق، وطال معه الجدل بين من يرون أن اللهجات هي الأصل وأن الفصحى ما هي إلا المستوى المتقدم والمفصّل من تلك اللهجات، ومن يرون عكس ذلك، أي إن الفصحى هي الأصل، واللهجات تفرعت عنها، لأن هذه اللهجات ما تزال في أغلبها فصيحة التكوين مع تحريفات بسيطة في نطق المفردات واستبعاد تام ونهائي للقواعد النحوية والصرفية.

ولست من هؤلاء الذين يذهبون إلى القول: "بأن اللهجات العامية تفرعت عن الفصحى متأثرة بها، وإن كانت أحياناً تشويهاً وتحريفاً، فالكلمة الفصيحة "رَجَلٌ" تستخدم في العامية راجل، ورجّال، وريّال، وعبرة "من أين" تصبح: منين، ومن وين وهكذا"¹.

وإذا كنت أتفق مع صاحب هذا الرأي في شيء مما ذهب إليه، فهو أن العاميات الحديثة، هي وحدها التي نشأت متأثرة بالفصحى أو متفرعة عنها، وهي نشأة متأخرة، أما النشأة الأولى للعاميات أو بالأصح للهجات العربية القديمة، فقد كانت هي الأصل ثم تطورت عنها اللغة الفصحى، وكانت تلك اللهجات في الأساس لغة بدائية تكوّنت عبر قرون طويلة بعد أن انتهى عصر الإشارات، وبدأ الإنسان مرحلة جديدة، هي مرحلة النطق والإبداع وتلتها مرحلة تحول

¹ محمد السموري: مجلة جنور، العدد (28)، 2009، ص 91.

اللغة إلى أداة للمعرفة على أيدي المفكرين والشعراء والخطباء، وجاء القرآن الكريم ليمثل قمة التعبير الذي كانت قد وصلت إليه الفصحى في عصر النزول. لكنها - أي اللغة - قد شهدت في عصور الانحطاط، انتكاسات جعلت الفصحى تتعايش إلى جوار اللهجات العامية إلى اليوم. والإشارة السابقة من الباحث تتناقض مع ما أورده في اقتباس عن الراغب الأصفهاني يقول فيه: "العامية هي اللحن في القول وحرف الكلام عن سننه الجاري إما بإزالة الإعراب أو التصحيف"¹.

وأصل الآن إلى رأي مماثل لرأي الراغب الأصفهاني للعلامة محمود محمد شاكر، يرى فيه أن اللهجات العربية طائفة، وهي متفرعة من أصل أو أصول قديمة في سلائق الشعوب، وهي متفرعة عن اللغة الأم. ويرى هذا الباحث المتمكن من التراث أنه: "لابد من دراسة اللهجات العامية العربية كلها دراسة تبويب وتقسيم وفهم، ولابد من رد كل طارئ على هذه اللهجات إلى الأصول القديمة التي لا تزال باقية متوارثة في سلائق الشعوب التي تنطق بالعربية إلى يوم الناس هذا، وأن نجعل أكبر همنا أن ننتهي إلى معرفة هذه السلائق المشتركة بين العرب على اختلافهم، فإذا وقعنا على ذلك وعرفناه تمام المعرفة، نيسر لنا أن ننمي هذه السلائق وأن نعلمها العربية على هدي من قوانينها الثابتة، وبذلك تجري العربية يسيرة على الألسنة، وتصير في مندوحة عن الخضوع للقوانين التي جعلت اللغة العربية تنتشعب في ميادين من المحادثة إلى لهجات متباينة"².

وإذا كانت اللغة - كما جاء في كتاب الخصائص "لابن جني" - هي: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، والقوم هنا هم الأمة، فإن لكل لغة قواعد وقوانين لا يمكن تجاهلها أو العبور فوقها، وإلا فإن الإشارات وحدها كانت كافية للتعبير عن الأغراض اليومية. وما بين أيدينا من قواعد وقوانين تخص العربية ما هو إلا صفة ما اتفق عليه علماء هذه اللغة

¹ المرجع نفسه: ص 90.

² محمود محمد شاكر: مجلة الكتاب، السنة الأولى، الجزء الثامن، يونيو 1941م، ص 314.

والحريصون على ارتقائها واستيعابها لكل ما يخطر وما لا يخطر على بال من أفكار وقيم روحية وأخلاقية وإبداعات خيالية، ومعرفة هذه القواعد شرط يلزم به أبنائها. ومثل هذه القواعد ليست خاصة باللغة العربية وحدها، وإنما هي في كل اللغات، ومنها الصعب المعقد، وما يبدو أقل صعوبة وتعقيداً، لكنها جميعاً لا تقوم ولا تحيا إلا على قواعد ثابتة تحفظ لها كيائها وأساليب تعبيرها وقدرتها على الانتقال من عصر إلى عصر، مع تجاوزات خفيفة يفرضها التطور، وتستدعيها الحاجة إلى التعبير عن مستجدات الحياة.

وسائل اتصال أم وسائل انفصال؟

لا حدود لتأثير الإعلام ووسائله المختلفة في اللغة العربية سلباً وإيجاباً، لا سيما الإذاعة المرئية (التلفزة) التي تجمع بين الصوت والصورة، فقد أظهرت الدراسات والبحوث الميدانية التي أجريت في مجال أهمية وسائل الاتصال الجماهيري ومدى تأثيرها في عملية التنقيف والتربية والتعليم: "أن الإنسان يتعلم 83% من خلال حاسة البصر، و11% من خلال حاسة السمع، ويتذكر 20% مما يسمع، و50% مما يسمعه ويراه. وهذه النتائج العلمية تؤكد الاختلاف على تأثير وسائل الإعلام، فالتلفزة، وسيلة لبث الرسالة الإعلامية، أكثر تأثيراً في الجماهير من الصحافة والإذاعة، لأنها تخاطب العين والأذن بالصورة والصوت، والصحافة أشد تأثيراً من المذياع، لأنها تخاطب العين بالصورة والشكل"¹.

لكنني أعود فأكرر القول، بأن هذه الوسائل في تقوية اللغة العربية وحمايتها ظل سلبياً حتى الآن، لاسيما التلفزة التي يمكن القول إنها أسهمت في إفساد ملايين من الناطقين باللغة العربية؛ لاعتماد بعض المذيعين والمذيعات فيها على اللهجة من خلال تقديم فقرات البرامج أو التعريف بالمتحدثين والمتحدثات عبر هذه الوسائل، وما يسببه تنوع اللهجات في هذه الوسائل من إرباك المشاهد العربي الذي اختلط عليه الأمر، وبدأ يتشكك في انتمائه إلى أمة لا تحرص قيادتها

¹ مسارع الراوي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، 1981، ص 86.

على لغتها القومية، ولا تهتم بما ترتكبه الوسائل الإعلامية من أخطاء، بل خطايا، في حق اللغة من جهة، وفي حق الإنسان العربي نفسه من جهة ثانية. ولعل ما يبعث على الحسرة في مثل هذه الحالات أن هذا الإنسان يرغب في أن يكون كبقية البشر في العالم؛ قادراً على إجادته لغته وإتقان نطقها، والتحقق من أساليب أدائها وطرائق التعبير بها، لا بوصفها لغة تخاطب فحسب؛ وإنما لكونها رابطة قومية أيضاً تجمع بين أبناء الأمة الواحدة وتحفظ موروثها وإنجازاتها في مجالات عديدة، منها الروحي والفكري والأدبي والعلمي.

ويرجع أحد الباحثين أسباب النكوص في دور هذه الوسائل الإعلامية العربية عن مواكبة مثيلاتها من الوسائل الإعلامية في الشعوب الناهضة إلى مجموعة من العوامل، ومنها:

1. ضعف لغة الإعلام الجماهيري في عملية التكامل القومي بسبب شيوع اللهجات العامية المحلية، وبسبب ضعف هذه الوسائل في بلورة فصحي عربية مشتركة.
2. اختلال التوازن، بين اللغة المعتمدة وبين التقدم التقني (التكنولوجي) الهائل الحاصل في وسائل الاتصال.

3. ما تزال وسائل الإعلام الجماهيري، بوجه عام، تخاطب "جمهوراً نخبياً" وبرز هذا في الصحف، وفي كثير من البرامج الإخبارية التي تخضع للخطاب الإعلامي، وتضيع العلاقات الفوقية، وهذا الأمر يضعف من صِدْقَتِها بوصفها وسائل اتصال جماهيري¹.

يضاف إلى هذه العوامل - من وجهة نظري - أن بعض المذيعين العاملين في بعض وسائط التوصيل الحديثة، يرون أنفسهم مجرد أدوات جامدة، تنقل ما يقدم إليهم من برامج وأخبار وأحاديث، ويتعاملون معها في حياد لغوي، ولا يرون أنهم "معلمون" بكل ما لهذه الكلمة من معانٍ، تعلو بمسؤولية المذيع، وتدعو إلى إكبار دوره وإجلاله. كما يُضاف تهاونُ هذا البعض من العاملين في هذا الحقل في رسالتهم وتقصيرهم في أدائها على النحو الذي يرضي ضمائرهم، ويجعلهم أهلاً لتحمل مسؤولية التواصل مع الملايين من أبناء أمتهم. ولا شك في أن

¹ محمد جميل شلش: المرجع السابق (بحوث ومناقشات الندوة الفكرية)، ص 99.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

هذا التهاون وراء بعض ما تعاني منه اللغة الفصحى، وما تلقاه من تخريب في نطقها وقواعدها. وهو ما يرده أحد الباحثين إلى الوسيلة الإعلامية ذاتها، وهي وسيلة جامدة يستطيع الإنسان أن يطوّعها لما يريد، وأن يحسن استخدامها أو يسيء هذا الاستخدام حسب ما يعين له، ويرتضيه من وراء هذا الاستخدام.

ومن الناقل والمكرور الحديث أنه لم يعد خافياً على أحد الدور التخريبي الذي تقوم به بعض الإذاعات المرئية والمسموعة في حق اللغة، نظراً لتأثيرها المباشر واليومي في ملايين المستمعين والمشاهدين. وأكثر هذه الإذاعات خطورة، تلك التي تنطلق من لبنان، هذا القطر العربي الذي كانت الأمة العربية وما تزال تعتز بما قدمه من رجال عظام خدموا الآداب العربية، وأخرجوا اللغة من الكهوف التي أدخلتها إلى عصور الانحطاط، فعملوا على إظهارها في قواميسها القديمة والحديثة، وكتبوا بها شعراً ونثراً عربياً معاصراً في غاية العذوبة والجمال. ومن ذلك الذي يستطيع أن يتجاهل دور آل البيازجي، وآل البستاني، وآل معلوف؟ أو أن يتجاهل دور "جبران خليل جبران" و"ميخائيل نعيمة" و"أمين الريحاني" و"بشارة الخوري" وغيرهم من الشعراء والناثرين الذين شاركوا في إرساء قواعد اللغة العربية، وتطويع مفرداتها للجديد والأجد من الإبداع الأدبي والعلمي والفكري!

وهذا شاهد من أبناء لبنان الشقيق، لبنان الحديث، على سوء استخدام بعض الإذاعات المرئية والمسموعة في هذا البلد العربي لوظيفة الإعلام، وعبثها باللغة العربية على مرأى من أنصار هذه اللغة وحمايتها الأوائل، ومسامعهم يقول: "إن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة "نجحت" في وضع لغوي جديد لا يبدو ناشئاً بل راسخاً، وكأن لا عودة عنه، قوامه تعميم المحكية التي تزامم الصحافة المكتوبة وتطلقها لغة إعلام للناس. وتبدو ونيرة هذا الانتقال اللغوي إلى حالة جديدة، متميزة في لبنان منه في البلاد العربية الأخرى، من حيث سرعته وقوته، فقد أخرجت الأبحاث من دائرة الصراع التقليدي مثلاً بين الفصحى والعامية، إلى دائرة "الصراع" بين اللغة الصحافية ومحليات ومحكيات العامية من الناس ولهجاتهم. وبدت الوسائل الإذاعية التلفزيونية مزودة بقدرات جذب هائلة وخفية تأسر اهتمام الجمهور اللبناني وتشد عقله

ولسانه نحو التعبير المحلي الحر بما يورث الصحافة المكتوبة ملامح مأزق خطر جعلها تتأثر أيضاً في اعتماد المحكيّات المكتوبة على صفحاتها من دون أي تردد، بحثاً ربما عن القراء¹.

ومع التقدير التام للكاتب ولهذه المتابعة الدقيقة والعميقة، فإن الملاحظة الأخيرة التي أوردها عن سعي هذه الوسائل ومنها الصحافة لكسب المشاهدين والمستمعين، وأخيراً القراء عن طريق استخدام المحكية، فالملاحظ أنه أغفل سبباً آخر، يبدو في الحالة اللبنانية أكثر وضوحاً وخطورة، وهو الانقسام الطائفي وتمحوره غير المحسوب حول الحلقة الأضعف، وهي اللغة في محاولة غير موفقة لتدمير عروبة لبنان، الممثلة في اللغة الفصحى، التي تجمع مشاعر الأشقاء في هذا البلد العربي بمشاعر أشقائهم في الأقطار العربية، علماً بأن التدريس في لبنان، منذ القرن التاسع عشر في المدارس والجامعات باللغة الفصحى، وأن الأمية فيه تكاد تكون معدومة، وأن المواطن اللبناني يكاد يكون أكثر أبناء الأمة العربية حرصاً على النطق بالفصحى من بقية أشقائه في الوطن العربي، ولهذا فإن ما يحدث في بعض الوسائل الإعلامية هناك لن يستمر، وإن بدا راسخاً بعض الشيء كما يشير الكاتب.

ولا أشك في أن الضعف اللغوي لدى بعض العاملين في حقل الإعلام العربي، وفي الإذاعتين المسموعة والمرئية بخاصة، وجهلهم بقواعد لغتهم وعجزهم عن النطق السليم بها نتيجة ضعف التعليم العام والجامعي، يجعلهم يهربون إلى العامية. وهو ما كان قد تنبأ به إعلامي وإذاعي صاحب تجربة عميقة في مجال الإذاعة المسموعة، فهاله ما رأى من بدايات انحراف لغوي في هذه الوسائل، ولم يتردد في تسجيل مخاوفه وتحذيراته من تدهور لغة الإعلام وأثره أيضاً في الثقافة العربية عندما كتب يقول: "ومن هنا كانت ضحالة الإعلام المتعرض للعمل الثقافي، ثقافياً وفنياً بالنسبة لواقعنا العربي المعيش، قضية خطيرة ومهمة لا بد من دراستها وعلاجها... كما أنها تمثل بالنسبة لمستقبل ثقافتنا العربية معول هدم لا بد من الالتفات إلى أثره المدمر، لوقف هذا الأثر وتحويله قدر الإمكان إلى أداة بناء فعالة في خلق

¹ د. نسيم الخوري: الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005م، ص 41.

هذا المستقبل وتأمينه، فالحرفي - بعمامة - الذي يتصدى للعمل الثقافي دون تأهيل ثقافي واع، لا يهتم إلا الشكل الذي يحقق له شد المتلقي وإثارتها، كما أنه لا يهتم من الموضوع الذي يطرحه إلا مضمونه الاجتماعي إن كان يهتم طرح موضوع أصلاً¹.

لا تسلم الوسائل الإعلامية نفسها، نتيجة لهذه الضحالة التي جاءت في الفقرة السابقة، من تشكيك البعض في قدرتها ونجاحاتها على تعليم اللغة العربية، ونشرها بين أفراد الأمة الواحدة، وما يطرحه بعضهم الآخر ممن يسمون أنفسهم بالمتخصصين في هذا المجال، حين يجعلون من هذه الوسائل أداة توصيل سلبية فيما يتعلق باللغة، وقد يكون هذا البعض على حق، إذا نظرنا إلى واقع هذه الوسائل وما يراد لها أن تقوم به من دور أكثر من سلبي، بيد أن ما نحلم به وما كان يحلم به الآباء من تحقيق انتصار اللغة، وانتشارها عن طريق هذه الوسائل، وتناولهم فيما يمكن أن تقدمه في هذا المجال، يجعلنا نخالف كل المخالفة ما يذهب إليه هؤلاء المشككون، من تأكيد عجز هذه الوسائل عن خدمة اللغة العربية، وفي التقليل من أهمية ما تستخدمه هذه الوسائل من مفردات وعبارات مكررة.

وموعدنا الآن مع رؤية واحد من هؤلاء الذين يشككون في إمكان الإعلام في الارتقاء باللغة العربية، ويحاولون إثبات أن اللغة المستخدمة في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية لا تفيد في خدمة اللغة العربية، لأنها في الغالب لغة بسيطة، وربما كانت عامية وضعيفة المستوى يقول فيها: "إن طائفة كبيرة من العبارات والصيغ والتراكيب اللغوية كثيراً ما تتكرر في لغة هذه الأجهزة وخاصة في البرامج الثابتة مثل "نشرة الأخبار" و"جريدة المساء" و"ما يطلبه المستمعون والمشاهدون" وعدد غير قليل من البرامج الرياضية والترفيهية التلفزية المألوفة في العالم العربي. كما أن بعضاً آخر من البرامج تتكرر فيه مجموعات كبيرة من المفردات لتشابه الموضوعات، أو تكون الكلمات والعبارات المستخدمة قريبة من اللغة المألوفة أو الدارجة، ولا يستبدل بها مترادفات جديدة فصيحة ربما، كأن ذلك خوفاً من أن تكون غريبة ضعيفة الفهم

¹ فاروق خورشيد: هموم كاتب العصر، دار الشروق، بيروت 1981، ص 228.

على عامة المستمعين، وخلاصة القول إن نسبة مفردات اللغة وصيغها الجديدة التي يمكن أن يحصل عليها من يستخدم هذه الدارجة في الغالب تكون أقل من النسبة المطلوبة لتكوين طلاقة لغوية عالية¹.

ومرة أخرى لا أشك في أن كثيراً مما ذهب إليه هذا الباحث صحيح، إذ أخذنا في الاعتبار أن هذه الملاحظات الوصفية، تتناول الحالة الراهنة في التعامل القائم مع وسائل الاتصال، لكن إذا ما أخذنا هذه الملاحظات على أنها توصيف دائم، فإنها تصدر من حيث لا تدري ما تتمتع به هذه الوسائل من إمكانيات الارتقاء بالمستمع والمشاهد، من خلال برامج أكثر انفتاحاً واستخداماً لصيغ وتراكيب أدبية وفكرية، يجري من خلالها تنمية المهارات اللغوية لدى المستمعين والمشاهدين، وتمرينهم على النقاط الكثير من المعاني والألفاظ والصيغ الأكثر صلة بالثقافة والعلوم، وهو الأساس الذي من أجله تُنشأ هذه الوسائل الإعلامية التي اقتصر جهدها حتى الآن على تقديم الإعلان الرسمي، وغاب عنها دورها في إغراء متابعيها على تحسين مستوياتهم اللغوية والثقافية، وتطوير الاستعدادات الكامنة في نفوس الملايين، المشدودة ليل نهار إلى هذه الوسائل القادرة على تغيير واقع الأمم والشعوب، فيما لو أحسن القائمون على استخدامها لترفع من وعي الإنسان وتسدَّ احتياجاته الروحية والفنية.

وإذ كنا في ملاحظة سابقة من هذا البحث، قد أشرنا إلى ما ترتكبه بعض وسائل الاتصال المسموعة والمرئية في لبنان من جرم في حق اللغة العربية، فإن المتابعة الشاملة تثبت أن هذا الجرم لم يعد مقتصرًا على تلك الوسائل وحدها، بل يكاد يصل إلى أقطار عربية أخرى، وإلى الصحافة المكتوبة، وذلك نتيجة تساهل الأنظمة، وانشغالها بقضايا أقل أهمية في حياة الشعوب وثقافتها، وعدم إدراكها أن وجود أية أمة على وجه الأرض مقترن بوجودها اللغوي أولاً، لأنه يجمع أفرادها في وحدة المشاعر وطرائق التفكير. ثم لأنه ما من زمن ازدهرت فيه اللغات وصارت ممثلة بقوة للهويات القومية والوطنية كهذا الزمن، وعلماء اللغة والأنثربولوجيا، هم

¹ د. أحمد معتوق: الحصيلة اللغوية.. أهميتها ومصادر ووسائل تنميتها، عالم المعرفة، 212، ص 94.

الذين يدركون هذا بوضوح، ويؤكدون حقيقة أن اللغة "تمثل عاملاً وعنصراً جوهرياً في الوجود القومي، فغالباً ما تصبح الحدود اللغوية على بقعة جغرافية معينة هي الحدود السياسية للأمة"¹.

ويمكن القول إن وحدة المشاعر ووحدة أساليب التفكير عن طريق اللغة لا تعني أن ينصهر أبناء الأمة في حزب واحد، أو يسировون على نهج سياسي مشترك وذلك، لأن "الشعور بالانتماء إلى الأمة لا يعني بالضرورة وجود مذهب قومي يساعد الفرد على اتخاذ الموقف، لكن يعني بالضرورة وجود واقع داخلي في الفرد يشعر من داخله بالطمأنينة عندما يكون جزءاً من كل، ويشعر بالضيق عندما يكون خارجاً عن الأمة، ويشد الشعور بالانتماء إلى الأمة في جميع الحالات التي يرى فيها الفرد تهديداً مباشراً وغير مباشر لأمته"².

وأعتقد أن الأمة العربية لم تكن مهددة في يوم من الأيام كما هو حالها اليوم، مهددة في لغتها وفي كيائها، وبتهديم القواسم المشتركة بين أبنائها. وتجدر الإشارة إلى أن العروبة - كما أجمع على ذلك المفكرون والعلماء - انتماء حضاري إنساني، وهي نقبض الانتماءات العرقية والقبلية والطائفية والمذهبية، وهي في أقرب توصيف لها رباط مكاني وزماني ونسق روحي يجمع ولا يفرق، وإضعافها عن طريق إضعاف اللغة الفصحى عودة بالمجتمعات العربية إلى زمن العشائر والقبائل والطوائف المتنازعة والمتصارعة بلا غاية أو هدف.

أعود لأكرر القول بأن المذبح الذي يعمل في إحدى وسائط التوصيل الحديثة عربياً كان أو في أية لغة كانت، ليس هو مأسورة توصيل، بل ينبغي أن يكون مثقفاً، وعلى دراية تامة بلغة أمته، وواجبه وانتماءه يفرضان عليه أن يحب لغته، ويعشق جرسها وقواعدها، وعليه أن يعمل على إيصالها بالمستوى اللائق بدلاً من استخدام الألفاظ العامية وما يدور على ألسنة العامة. إنه مدرس لغة ودوره التعليمي يتجاوز دور مدرس الفصل في المدرسة، ودور الأستاذ في

¹ ياسين خليل: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية، مرجع السابق، ص 343.

² المرجع نفسه: ص 342.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

قاعة الجامعة، فلا حصر لمن يتلقون دروسه اللغوية، ويتابعون نطقه وطريقته في أداء الألفاظ. وفي كتابه الساخر "كلام أبيح جداً"، يذكرنا أحد الكتاب الساخرين عبر عاميته الضاحكة بنماذج من عشاق اللغة العربية وأسائرتها، الذين حولوا الإذاعة المسموعة في بداية ظهورها إلى مدرسة لتعليم اللغة العربية في أرقى مستوياتها فيقول: "أيام طه حسين، حد يفكر الاسم ده دلوقتي من الجيل الجديد؟ اللي هو أحمد زكي في مسلسل الأيام. كده عرفتوه. لسه فاكِر صوته وهو يقول لغتنا العربية يسر لا عسر... كنت اسمعه وهو يتكلم أحس بحلاوة غريبة في بُقي... ولسه فاكِر فاروق شوشه بصوته الحنون وهو يقدم برنامج "لغتنا الجميلة"... لا ده ما كانش عربي اللي كنا بنسمعه ده... كان جاتوه... بغاشه... بسبوسة... حبيبونا في اللغة العربية. وما كانش نتصور إنه حيجي عليها يوم تتضرب الضربة السودا دي.... حد يقدر ينسى سليمان نجيب في فيلم "غزل البنات" وهو مفجوع في بنته ليلي مراد عشان سقطت في اللغة العربية... وفاكر وهو بيوصي نجيب الريحاني المدرس بيقول عاوزها تعطس باللغة العربية"¹.

والخلاصة إن ما يعتور اللغة العربية من ضعف وهجنة وخطر تتمثل في أن وسائل الإيصال تحولت إلى وسائل انفصال، كما أن زحف العاميات والترجمات وتغلغلها إلى أحاديثنا وكتاباتنا يطمس وضوح العربية ويهدد استقلاليتها، وهي لذلك بحاجة إلى إصلاح حقيقي تتآزر لإنجازه أطراف شتى، لغوية وأدبية وثقافية وإعلامية، لا تشيع ذلك الضعف وتزيد من آثاره المدمرة فقط، إنما تعوق الهدف المطلوب إلى انتشالها مما وصلت إليه. وحبذا لو توصل المجمعون إلى إيجاد مستوى لغوي إعلامي يقلل المسافة بين المتلقين المعاصرين واللغة المستخدمة في أساليب مبسطة ومفهومة وموجزة في حدود ما تتطلبه لغة الإعلام المعاصر.

¹ يوسف معاطي: "كلام أبيح جداً بالعامية المصرية"، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية، 2009م، ص 105.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

بحوث في المصطلحات

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

مصطلح الصورة في المعجم العربي والغربي

أ. صباح لخضاري

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة تلمسان - الجزائر

تقديم

تعريف الصورة في المعجم العربية يتشابه كثيراً، إن لم نقل يكاد يكون نفسه هو في جل المعاجم، إلا ما يطرأ عليه من تعديل إما بالزيادة أو الحذف. والشيء نفسه نجده في المعاجم الغربية، بل ونستطيع القول إن معاني الصورة في المعجم العربي تكاد تتشابه ومعانيها في المعجم الغربي.

عند العرب

قال الجوهري (ت 393هـ) أثناء شرحه لمادة "صَوَّرَ": "الصُّورُ: القرن... ومنه قوله تعالى "يوم يُنفخ في الصور" قال الكلبى: لا أدري ما الصور. ويقال: هو جمع صورة أي ينفخ في صور الموتى الأرواح... والصيران: جمع صُور وهو القطيع من البقر. والصُور أيضاً: وعاء المسك، وقد جمعها الشاعر بقوله:

إذا لاح الصُّور ذكرت ليلي *** وأذكرها إذا نفخ الصُّور

ويقال: إني لأجد في رأسي صورة، وهي شبه حكة حتى يشتهي أن يقلّي رأسه. والصَوَّرَ بالتحريك: الميل، ورجلٌ أصور بين الصور، أي مائل مشتاق. وأصاره فانصار... وتصورت الشيء: توهمت صورته فتصور لي، والتصاوير التماثيل. وطعنه فتصور، أي مال للسقوط. وصاره يصوره ويصيره، أي أماله وقرئ قوله تعالى: "فَصِرْهُنَّ إِيَّكَ" بضم الصاد وكسرها،

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

قال: الأخفش يعني وَجَّهْن. يقال: صِرَ إليَّ وصِرَ وجهك إليَّ، أي أقبل عليَّ. وصرت الشيء أيضا قَطَّعته وفصلَّته...¹

وإضافةً إلى معنى التجسيم، والحركة والرائحة وتفصيل الشيء نجد معنى الاستجابة. يقول الزمخشري (ت538هـ): "وعصفور صوار: يجيب إذا دعي، وصار الحاكم الحكم: قطعه وفصله..."².

وفي "لسان العرب": "صور في أسماء الله تعالى: المصوِّرُ وهو الذي صوَّرَ جميع الموجودات ورتَّبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها، (قال) ابن سيده: الصورة في الشكل... وتصورت الشيء: توهمت صورته فتصور لي والتصاوير التماثيل... قال ابن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته وصورة الأمر كذا أي صفته... والصُّوَار والصُّوَار: الرائحة الطيبة والصُّوَار والصُّوَار: القليل من المسك وقيل: القطعة منه... وفي صفة الجنة وترايبها الصوار يعني المسك... وصورا النهر: شطاه... والصوِّرُ: النخل الصغار وقيل هو المجتمع... ويقال لغير النخل من الشجر صور وصيران"³.

أما الصورة — بالضَّم — في تاج العروس فتعني: "الشكل، والهيئة والحقيقة، والصفة، الجمع صَوْرٌ.. وصوِّرَ كعنب... قال الفراء يقال: صَيَّرَ، شَيَّرَ، أي حسن الصورة والشارة، وقد صَوَّرَه صورة حسنة فتصور: تشكَّل، وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة وقال المصنِّف

¹ تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن عماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت لبنان ط4، كانون الثاني/يناير 1990، ج الثاني، ص716-717 مادة (صور).

² أساس البلاغة: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، ت: محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية بيروت لبنان ج الأول، ط:1، 1419 هـ/ 1998م، ص 562-563، مادة (صور).

³ لسان العرب: جمال الدين ابن منظور الأنصاري، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان (دط)، (دت)، المجلد الرابع، ص 546، مادة (صور).

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

في البصائر: الصورةُ ما ينتقش به الإنسان ويتميز بها عن غيره وذلك ضربان: ضرب محسوس يدركه الإنسان وكثير من الحيوان، كصورة الإنسان والفرس والحصان، والثاني معقول: يدركه الخاصة دون العامة، كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل والرواية والمعاني التي ميّز بها، وإلى الصورتين أشار تعالى بقوله: "وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ"، "في أي صورة ما شاء ركبك".¹

وأجمل صاحب كتاب "التنظير النقدي والممارسة النقدية" بعض هذه المعاني قائلاً: "الصورة الشكل والتمثال جمعها صور وصور كعنب.. وصورة الأمر صفته أو نوعه أو ماهيته المجردة، وخيالية في الذهن أو العقل، وإحداث مثل للشيء عن طريق التصوير بالألوان، أو النحت أو الرسم وغيرها".²

ويعرفها رمضان الصباغ بقوله: "والصورة forme في اللغة الشكل، والصفة والنوع، وهي الشكل الهندسي figure géométrique المؤلف من الأبعاد التي تحدد نهايات الجسم كصورة الشمع المفرغ في قالب، فهي شكله الهندسي. وقد تطلق الصورة على ما به يحصل الشيء بالفعل كالهئية الحاصلة للسريـر بسبب اجتماع خشباته وهي بهذا المعنى علة، أي علة صورة، أو تطلق على ما يرسم المصور بالقلم أو آلة التصوير، أو على ارتسام خيال الشيء على المرآة، أو في الذهن، أو على ذكر الشيء المحسوس الغائب عن الحس، نقول تصور الشيء أي تخيله واستحضر صورته، والصورة عند الفلاسفة مقابلة للمادة وهي ما يتميز به الشيء، فإذا كان في الخارج كانت صورته خارجية، وإذا كان في الذهن كانت صورته ذهنية".³

والملاحظ على تعريف "الصباغ" أن مرجعيته المعرفية غربية محضة، ومع ذلك لا تختلف

¹ تاج العروس من جوامع القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مصطفى حجازي، راجعه عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، 1393هـ/1973م، الجزء 12، ص357-359، مادة (صور).

² التنظير النقدي والممارسة الإبداعية دراسة لستة نقاد/شعراء معاصرين: محمد بن عبد الحي، منشأة المعارف بالإسكندرية، (دط)، (دت)، ص150.

³ عناصر العمل الفني دراسة جمالية: رمضان الصباغ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، (دط)، (دت)، ص36.

عن المرجعية العربية، التي تعني الصورة فيها الشكل، أو بالأحرى نقل الشكل كما هو في الواقع أو صوغه في قالب معين كما هي أشكال الزينة من الذهب والفضة والأقواس... كما أنها تعني الهيئة الحاصلة من مادة معينة كالخشب والحديد وغيرها، لكن الشيء الذي شد انتباهي هو عبارة الشكل الهندسي الذي تعنيه الصورة أيضاً، والذي أكدته المعاجم الغربية ولم يرد في المعاجم العربية، إلا أن الجرجاني (471هـ) نبّه في كتابه أسرار البلاغة على أن الصورة تعني أيضاً الشكل الهندسي عندما عاب التعسف اللفظي في بيت الفرزدق المشهور، فقال بعد أن أورد البيت الشاهد:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا *** أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يَقَارِبُهُ

فانظر أيتصور أن يكون ذلك للفظلة من حيث إنك أنكرت شيئاً من حروفه، أو صادفت وحشياً غريباً، أو سوقياً ضعيفاً أم ليس إلا لأنه لم يرتب الألفاظ في الذكر، على موجب ترتيب المعاني في الفكر، فكّد وكدّر، ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدم ويؤخر، ثم أسرف في إبطال النظام، وإبعاد المرام، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة، ولكن بعد أن تراجع فيها باباً من الهندسة، لفرط ما عادى بين أشكالها وشدة ما خالف بين أوضاعها¹.

يتضح جلياً من هذا القول أن الجرجاني وعى جيداً مفهوم الصورة المعجمي الذي يدل على أنها تعني الأشكال الهندسية ذات الأوضاع والأشكال المعينة، حتى إنه شبه عدم انسجام الألفاظ المكونة للصورة الشعرية وعدم ترتيبها، بأجزاء الصورة الهندسية المبعثرة في غير ما ترتيب يوضح شكلها الهندسي الصحيح، مما يؤدي إلى التعقيد الذي يسلم إلى التعمية والغموض؛ فجمع بهذا بين المعنى المعجمي للصورة وبين المعنى الاصطلاحي، وأساس هذا الجمع ومداره هو التركيب المنسجم والتأليف المنظم والترتيب المؤسس على الانسجام والفهم والقصد والإفهام.

ويعرف إميل بدیع يعقوب الصورة في معجمه المفصل بقوله: "صورة الشيء هي رسمه

¹ أسرار البلاغة: ص 86.

نقلًا وتقريراً، أو شبهه ومثاله تقريباً، ومحاكاةً، وإما معنوية تدرك بالعقل والتمثل الخيالي¹. وعرف التصويري بأنه: "صفة كل أسلوب أدبي يحفل بالصور الإيحائية، والمشاهد ذات التأثير الرؤيوي العميق. صفة كل مشهد جدير بالرسم الفني. أو صفة كل ما ينسب إلى الرسم عامة دونما تخصيص البتة"².

أما ألتنوجي فيعرفها في معجمه قائلاً: "الصورة: هي الشبيه والمثل، وهي التي تقابل المادة، لأن الصورة إما تجسيد مادي كالصورة التي ينحتها المثل أو يرسمها الرسام، وإما تخيل نفسي يتخيله الأديب في كتابته. وهي في كليهما تعكس الملامح الأصلية كلاً أو بعضاً. والصورة عند الأديب تتحول إلى تشبيه، أو استعارة، وهي التي تدعى الصورة البيانية. وتعتمد على الخيال والشعور، كما تعتمد على العقل والثقافة"³.

ويعرف التصور بأنه: "أولاً: حصول صورة الشيء في العقل، وإدراك الماهية من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات كتصورنا للشجرة. وهو خلاف التصديق الذي يأتي بعد التصور. ثانياً: استحضار ذهني أو خيالي ناتج عن انفعال حسي خارجي أو داخلي ويختلف التصور من شخص إلى آخر بحسب رهافة الحس، وعمق الثقافة، وجدة الخيال. ومن هنا نجم اختلاف مظاهر الصور من شاعر إلى شاعر، ومن كاتب إلى كاتب"⁴.

أما التصوير فقد عرفه بأنه: "أولاً: رسم الأشياء والأشكال على حجر أو ورق أو شرائح... ثانياً: أدبياً إبراز الانفعالات النفسية بكلمات دقيقة يبرع الكاتب بأدائها، وذلك إما عن طريق الوصف النقلي، وإما عن طريق التحليل النفسي. والتصوير الثاني أدق من الأول وأكثر أهمية،

¹ المعجم المفصل في اللغة والأدب: إميل بديع، ميشال عاصي، دار العلم للملايين بيروت، ط 1 أيلول/سبتمبر 1987م، المجلد: 2، ص 774.

² نفسه: ص 422.

³ المعجم المفصل في الأدب: محمد التنوحي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط 1، 1413هـ/1993م، ج 1، ص 591.

⁴ المعجم المفصل في الأدب ج 1: ص 257.

لأنه يصور ما يعتمل في الوجدان من عواطف، وهذا يتطلب براعة فائقة، وقد يكون التصوير النفسي ذاتياً بتصوير إحساسات المؤلف نفسه، أو غيرياً بأن يصور إحساسات الآخرين. ثالثاً: التصوير البياني: هو عند البلاغيين طرق البيان والذي يسمونه علم البيان¹.

ومن منطلق هذه الأقوال المعتمدة - في هذه الدراسة - تكون معاني الصورة المعجمية، هي الشكل والهيئة والصفة والنوع ونقل الواقع وتصويره كما هو، كما أنها تعني الشكل الهندسي، والنقش والرسم والنحت، والشعر والتجسيم والتشخيص، والحركة والرائحة الطيبة والحسن، والتوجه والميل، والتشكيل والترتيب والتفصيل والفصل، كما أنها تعني التوهم والتخيل. فبالصورة يتشكل العدم ويأخذ هيئته وصفته بعد الترتيب والتنسيق، حيث تتجسد رموز الفكر وعلاماته وتتشكل، ويصبح المجرد حسيّاً والغائب حاضراً والفكرة المتخيلة واقعا؛ فالصورة إذن تهب الحياة للأشياء تحيي الموات، تنطق الأخرس وتحقق الأفكار وتدخل المجرد عالم الحس، وتشكيل الصورة لا يتم إلا بالتخيل وبترتيب وتنسيق العلامات والدلائل في الذهن، وهذا ما يجعل المتلقي مشدوداً إليها مشدوهاً، تواقاً لرؤيتها كالأصور المشتاق.

عند الغرب

أما في المعجم الغربي، فالباحث عن المعنى المعجمي للصورة يجد نفسه أمام ثلاثة مصطلحات كلها تشترك في معنى الصورة، وهي: {Image, Forme, Figure} إلا أن هذه المصطلحات في الحقيقة، لكل واحدة منها معنى معجمي خاص اشتهرت به، فـ (Image) تعني الصورة و (Forme) تعني الشكل، أما (Figure) فتعني الوجه، إلا أنها تستعمل كلها لتدل على الصورة والشكل الخارجي للشيء المرئي، سواء أكان مشاهداً أم مستحضراً ذهنياً لما قد سبقت رؤيته، كما أنها تستعمل في العديد من مجالات المعرفة الإنسانية. غير أن لفظتي (Image و Figure) فتعنيان فيها أيضاً المجاز أو الأسلوب المجازي الأدبي.

¹ نفسه: ص 259.

أما (Forme) التي تعني الصورة الخارجية أو الشكل الخارجي للإنسان أو الأشياء، فقد ذهب صاحب كتاب "الصورة في الشعر العربي"، إلى أنها تعني الجمال استناداً إلى مصدرين غربيين، الأول: "بحث في الجمال" لصاحبه Jean Bartlimé الذي يرى أن "الصورة - من حيث المبدأ - هي مصدر جمال، فكلمة "Forma" التي ترجمتها الصورة - في اللاتينية - تعني الجمال"¹. أما الثاني: فهو "معجم أكسفورد" للغة اللاتينية، حيث إن المعنى العام للكلمة يؤدي "الشكل الخارجي أو المظهر على حين "Forma" ... يؤدي معناها الخاص: الجمال أو الشكل الجميل"².

و (Forme) تعني في المعجم اللغوي الغربي، المظهر الطبيعي، مجموع حدود شيء أو مجموع تقاطيع شخص، المظهر والشكل الخارجي، البنية، الهيئة والتشكل، الإطار. المظهر الخارجي لشيء أو شخص، تقاطيع الجسد البشري، نموذجاً أو قالباً لإعادة إنتاج تكوين أو تشكيل أشياء مادية، مثال قالب المزهرية، كما تعني تنوعاً نحوياً، دراسة البنى الصرفية. بنى الأفراد والتأنيث، الطريقة التي يجري بها التعبير عن الفكر والفكرة، تعبير أسلوب، إعطاء صياغة جديدة لفكرة مبتذلة. أما في الحياة الاجتماعية والقانونية، فتعني طريقة للإجراء والتصرف إزاء القواعد، منظراً خارجياً لعقد قانوني. وتستعمل أيضاً في التعبير عن الوضع الصحي للإنسان أو الحيوان، وضع صحي جيد أو غير جيد.³

وعليه تكون (Forme) متعلقة بالمنظر الخارجي والمظهر الطبيعي للأشياء أو الأشخاص، وبهذا تكون مرتبطة بحاسة البصر؛ وهي تعني البنية والشكل والإطار، الهيئة والصياغة، وتعني أيضاً "... حالة، صورة، خلقة، طيفاً، خيالاً، شبحاً، قالباً، نموذجاً، تقاطيع الجسم

¹ الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها و تطورها: علي البطل، دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط3، 1983، ص: 30.

² نفسه: ص30.

³ ينظر: Le robert dictionnaire de la langue française -Micro.p: 573.

البشري¹. أما الفعل (Former) فيعني شكّل، صور، كوّن، ألف، درّب وصاغ.² وتعني كلمة (Image) في الدلالة اللغوية الغربية عدة دلالات فهي، نسخة أو صورة نقليّة محاكية للواقع وناقلة له حرفياً كما هو³، فهي تمثيل لشخصية، لشيء بالنحت، الرسم، التصوير الشمسي إلى آخره، كما أنها صورة تحدث موضوعاً لعبادة دينية. صور القديسين، تمثيل نظري لموضوع معطى من طرف نظام بصري. صور تلفزيونية، وهي تمثيل لواقعة مادية أو مجردة، بمصطلحات التماثل والتشابه على سبيل المحاكاة. تذكّر استحضار أو إنتاج أو إعادة نسخ شيء ما، كما هي تماثل، استعارة، مجاز، سرد، عرض، تقديم، تصوير، أما الفعل (Imager) فيعني زوّق، زخرف، زين، أسلوب مزوّق ومزخرف منمّق، كما يعني وضّح، أبان بالأمثال والصور.⁴

و (Image) هي أيضاً، تقليد ونقل بصري لموضوع واقعي: أولاً: نسخ وتقليد انعكاسي للشيء الذي يملك أشعة، مثل ينظر إلى صورته في المرآة. نقول صورة واضحة صافية وصورة مضطربة، ثانياً: نسخ لشيء عن طريق واسط لنظام بصري، مثل نسخ شيء أو موضوع عن طريق الصورة الشمسية، السينما، التلفاز. ثالثاً: نسخ لموضوع عن طريق الفنون البلاستيكية: رسم، تمثيل، نقش، نحت. كما تعني التشابه بين الأشخاص في الشكل الفيزيقي (البدني)، الولد صورة أبيه، ما يستحضر به الواقع أي الرمز، مثل: لقد أعطى صورة قاتمة عن الحالة. صورة طابع أو رسم أو علامة، عرضاً وتقديماً جماعياً لإنتاج، لمزرعة، لشخصية. وتعني الصورة أيضاً، التعبير عن المجرّد بالمحسوس في اللغة المكتوبة أو المنطوقة، التشبيه، المجاز، الاستعارة، إنتاجاً عقلياً لإدراك حسي أو انطباع داخلي، في غياب

¹ المنهل: قاموس فرنسي عربي: سهيل إدريس، دار الآداب بيروت، ط: 20، 1998م، ص 544.

² ينظر نفسه: ص 544-545.

³ الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث: بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994م، ص 27.

⁴ ينظر: Dictionnaire pratique de français. p : 560-561

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الموضوع أو الشيء الخارجي، مثل حفظ واستحضار صورة شخص، الذكريات، والصورة أيضاً، إنتاج من الخيال والأحلام¹.

كما أن كل مشتقات كلمة (Image) تدور في فلك معناها العام، فالصفة (Image, ée) هي مزيّن مزخرف، مزوّق [يرسوم]، أسلوب مزيّن بصور، باستعارات، ولغة مزيّنة، أي لغة مجازية. أما (Imagerie) مجموعة صور من أصل واحد أو من نفس الوحي (Inspiration)، خصائص ومميّزات لنوع، لعصر، كما أنها تعني، مجموعة من التقنيات تسمح بالحصول على صور أعضاء، مناطق الجسم الإنساني (طب إشعاعي، تخطيط الصدى). (Imagier)، كتاب الصور للأطفال².

وقد استعملت كلمة (Image) صورة في أكثر من مجال من مجالات المعرفة الإنسانية، وتتخذ في كل منها مفهوماً خاصاً وسمات محدّدة، ويمكن أن نحصر ذلك عند الغربيين في خمس دلالات:

1. الدلالة اللغوية.

2. الدلالة الذهنية.

3. الدلالة النفسية.

4. الدلالة الرمزية.

5. الدلالة البلاغية.

وتعد الدلالة اللغوية أقدم الدلالات فهي الدلالة اللغوية أو المعجمية التي كانت تستعمل في مجالات شتى منذ عهد الإغريق، ثم اقتصر في الدراسات الحديثة على نطاق اللغة وفقهها وعلم المعاني وصارت تعني نسخة (Copy) أو صورة (Picture) بتمثيل أو محاكاة حركية

¹ ينظر: Le robert dictionnaire de la langue française -Micro .p : 673

² ينظر: Ibid. p: 673

لموضوع خارجي بصري¹.

غير أن الناقدة بشرى موسى صالح ترى أن "هذه الدلالة تصدق على بعض الأنماط التصويرية المحددة والرسوم الخطية للأشكال، بيد أن نقلها إلى مجال الشعر وإطلاقها على القصيدة للإشارة إلى شكلها الخارجي (Forme)، وحده كان مصدراً لسوء الفهم الذي دفع الباحثين الغربيين ليقم علاقة مشابهة ما بين الشكلين الحسيين الخارجيين لكل من الشعر والرسم، من دون الالتفات إلى أن الشكل لا يخرج عن كونه عنصراً واحداً من عناصر الصورة الجمالية²."

أما كلمة (Figure) فتعني هي أيضاً الشكل الخارجي للجسد، وتستعمل بصفة خاصة للوجه الإنساني، وتستعمل للتعبير عن المظهر الخارجي والهيئة والعلامات البادية، مثل إظهار الحزن، إظهار علامات النجاح والتفوق، إظهار انعدام المستوى المطلوب والأهلية بالمقارنة بأشخاص آخرين، كما تستعمل للتعبير عن الشخصية البارزة والمهمة، مثل الشخصيات التاريخية. العرض والتقديم البصري. نقش، صورة، كتاب مزين بالصور. وهي أيضاً عرض لذات إنسانية وحيوانية عن طريق الرسم، النحت (Sculpture)، شكل من شمع العسل، (في أوراق اللعب) صور: الملك، السيّد، الصبي. وتطلق على النحت الذي يزين مقدمة السفينة (Proue) أما في الهندسة، فهي مجموعة الخطوط أو المساحات أو هي مجموع الحركات المتناسقة لراقص أو مترحلق أو غطّاس. كما تدل على شكل العبارة في الخطاب أو تعبير بلاغي أو أسلوب معين في اللغة يُرجع الفكرة أكثر إدهاشاً وتأثيراً. كما أنها قد تفيد معنى مجازياً أو استعارياً. أما الفعل (Figurer)، فيعني تقديم (شخص أو شيء) في شكل واقعي أو بياني أو تقديم شيء مجرد عن طريق رمز، فنحن نمثل العدالة ونصورها بسيف ذي حدّين

¹ الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث: ص26-27.

² نفسه: ص27.

وميزان. كما أنها تعني ظهر وبرز ووَجَد، مثل قولنا: ظهر اسمه على اللائحة¹. وتعني (Figure) أيضاً، العبارة أو الشكل أو الصيغة مزخرفة أو ملطفة أو مؤكدة لفكرة (استعارة، تورية، تعريض أو سخرية وغيرها)، ونجد كل مشتقاتها تدور في نفس فلك معناها العام؛ فـ (Figurer) هي إعادة عرض لتصور ولتخيّل وتقديمهما عن طريق الفكرة، أي التصوّر والتخيّل، نحو قولنا: كانت تتصور أنها تستطيع النجاح، وقولنا: لا تستطع أن تتخيّل كم هو غبيّ. أما (Figurant, e) فشخصية في المسرح، في السينما، تؤدي دوراً ثانوياً، وتكون على العموم صامتة، كما تدل على كل شخصية ليس لها دور ذو بال (أي موجودة من أجل الزينة فقط). مثالها: لا تعتمد عليّ في الاجتماع من أجل أن أكون شخصية صامتة، سأقول ما لدي من قول. أما (Figuratif, ive) فننصوّر مرتبطين بتقديم الشيء (يتضاد مع الفن التجريدي)، و (Figuration) فهي مجموع الممثلين الصامتين في مسرحية أو شريط سينمائي. كما تعني دور الممثل الصامت أو تقديم الأشياء بالخط والرسم والنقش وبالرسم البياني، مثل تصوير السهول التي أصبحت خضراء. أما (Figurine) فتمثال صغير و (Figuriste) فهي تماثلي أي صانع التماثيل الصغيرة، وهي أيضاً صوري، أي القائل بالصورية (Figurisme) المذهب الذي يرى في التوراة صورة للأناجيل².

الصورة في المعجم البلاغي الغربي

درج النقاد الغربيون في كتبهم النقدية الأدبية التنظيرية، ودراساتهم الأدبية، وتنظيراتهم في علم النص والبلاغة الجديدة على استعمال كلتا الكلمتين (Figure و Image)، على النحو الذي أورده Roland Barthes و Gérard Genette، الأول في كتابه (Rhétorique de l'image « 1964 » والثاني في كتبه التي خصصها للمحسنات البلاغية والتي تحدث فيها عن الصورة

¹ ينظر: Dictionnaire pratique de français. p : 459-460.

² ينظر: Le robert dictionnaire de la langue française. Micro.p : 555-556.

الشعرية وعن البلاغة والشعرية بصفة عامة، وهي سلسلة: (Figures: 1,2,3,4,5)¹، و la fiction (Métalepse de la figure à «2004» ونظراً لكل ذلك، فقد ارتأينا تتبع معنى كل كلمة على حدة في المعجم البلاغي الغربي، حتى نتمكن من معرفة خاصيتها الدلالية.

فـ (Image) في المعجم البلاغي تقابل تقليدياً بالمقارنة (المماثلة، التشبيه) التي هي تقريبٌ نحوي مركّب أين (حيث) يتحد المصطلحان برابط: مثل، مثلاً، نظير، شبيه مماثل (...). الصورة أو (الاستعارة) تعرض شكلياً مثل مقارنة مختصرة لا تحذف فقط الرابط بين المصطلحين، وإنما في أغلب الأحيان كذلك المصطلح الأول الذي تبدله مباشرة بالثاني الذي هو المعادل المزيّن (Imagé) (...) الصورة (L'image) تحدد (بعكس المحسن البلاغي "Figure") نسخة وفيّة لواقع أصلي يؤخذ لهدف "نموذج". هي إذن أولاً نسخة عادية. شعاع من الواقع، ثم إن مفهوم (Notion) الصورة (في الخطاب) قوّم وحُدّد ابتداء من القرن الثامن عشر وأصبح يعني الاستحضار عن طريق المماثلة لواقع مختلف عن ذلك الذي يقترحه المعنى الوضعي والأدبي للنص. هي إذن تعبير بلاغي دلالي حقيقي. لكن يبقى مصطلح الصورة (Image) واسعاً كثيراً ما دام يستطيع تطبيقه أيضاً في صياغات مختلفة عن المقارنة والاستعارة، والمجاز المرسل والكناية والمجاز الرمز (L'allégorie)، فكل صورة منها تستلزم مقارناً (المشبه) ومقارناً به (المشبه به) على حين توجد صور (وحده المصطلح المجازي يظهر في الخطاب)، يتطلب تأويلها عملاً للتحليل أحياناً (ينبغي أن يكون) حاذقاً². مثل بيت إوار (Paul Eluard):

"الأرض زرقاء كبرتقالة"

³. "La terre est bleu comme une orange"

فكلمة زرقاء هي التي كثفت الدلالة في البيت الشعري ومنه في النص الشعري ككل، فهي

¹ آخر إصدار لهذه السلسلة كان في 2002م وهو: («poétique» Figures5).

² Michel Pougéoise : Dictionnaire de rhétorique, Armand Colin/sejer, Paris, 2001, P :143-144.

³ Ibid. p: 144.

تحتاج إلى تحليل دقيق وعميق وفكر حاذق متمرس وذكاء في التعامل والاستنتاج.

أما (Figure) المحسن البلاغي، ففي البلاغة هو حدث لغوي يقع في أحيان كثيرة في التعبيرية منه في النحو، لكنه يستطيع أن يمس الخطاب في العديد من المستويات التي تكون أحيانا متداخلة في التبعية: دلالية، معجمية، تركيبية، منطقية. المحسن البلاغي يكون في بعض الأحيان صعب التحليل، لأنه يتجاوز مسار الكلمات العادي (نظرية الانزياح) ويستوجب على الأقل توفير الاكتفاء لمتطلبات الفهم لكل متكلم كفي.

ولمدة طويلة من الزمن — وفي العصر الكلاسيكي تحديداً — اتخذ المحسن البلاغي مجرد تزويق عادي للخطاب، هذا المفهوم التقليصي بقدر كبير، لحسن الحظ صُحِّح من طرف المنظرين المحدثين، أمثال: Perelman و Olbrechts-Tyteca الذين ذكروا بالقيمة الحجاجية للمحسن البلاغي المؤكد لنظرية أرسطو (المجازات والبلاغة). المحسن البلاغي (La figure) تركيبة تأسيسية للفعل التافضي ويمكن أن يكون أيضاً حاملاً لعبر جملي.

وقد رتبت المحسنات البلاغية تقليدياً في أربعة أصناف: محسنات القول وتسمى أيضاً محسنات اللفظ، المكونة انطلاقاً من الدال، عناصر سمعية وفي بعض الأحيان خطية للفظ لمجموعة. محسنات البناء أو التركيب، تتشكل انطلاقاً من النحو والصرف أو البنية. محسنات المعنى تسمى بكل خصوصية المجازات التي توجد في مرور المعنى الأصلي إلى المعنى المجازي. محسنات الأفكار التي تخص الدلالة العامة للملفوظ والتي تنتج عن العمليات الحاملة للعلاقات المنطقية أو للقيمة الحقيقية للملفوظ. المحسن البلاغي يسجل انزياحاً وانحرافاً "بين اللفظ الحقيقي المعنى الأدبي واللفظ المجازي".

أما الاستعارة métaphore والكناية métonymie عند Jakobson "فهما المحسنان اللذان المهمان، ما دمنا نجدتهما في الأصناف الأساسية للغة: الانتقاء والتركيب في هذا المعنى الذي يحددتهما بالتالي مثل "الأقطاب الاستعارية والكنائية" المتضمنة كل بنائية للغة¹.

¹ Ipid. p: 133-132.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

من خلال ما سبق يتضح أن مفهوم الصورة في كل من المعجم اللغوي العربي والغربي يحمل المدلول نفسه، وكذا في المعجم البلاغي العربي، فالجرجاني أكد أن مفهوم الصورة يكون للأيقونة والرسم الهندسي وأيضا أنها هي صياغة الجملة والخطاب وشكلهما، مثلما هو الحال في المفهوم البلاغي الغربي.

مفارقات وتساؤلات في معاني مصطلح الرياضيات وجذوره الاشتقاقية

د. أحمد محمد جواد محسن
باحث وأكاديمي من العراق

مقدمة

يحمل مصطلح الرياضيات في طياته قضايا، تتضمن مفارقات غريبة وتساؤلات مثيرة، محيرة أحياناً، تدور في مجملها عن معنى هذا المصطلح وأصوله واشتقاقاته وعن أسمائه المتعددة الأخرى مثل: الرياضة والعلوم الرياضية، وعلوم الرياضة، والعلم الرياضي، وعلم الرياضيات، وهذا الأمر نجم عنه اختلاف في تحديد اسم واحد لهذا العلم والاتفاق عليه بين البلدان العربية. يتجلى ذلك في الأسماء المختلفة له في الدراسات والأبحاث وكذلك في الأقسام التخصصية لهذا العلم في الجامعات. كما تدور هذه المفارقات والتساؤلات عن الأسباب والمبررات التي دعت العرب إلى إطلاق اسم الرياضيات على هذا العلم، مع اختلاف معناه في اللغة العربية، عن معنى اسم المصطلح الذي يقابله في الإنكليزية mathematics ذو الأصول اللاتينية الإغريقية. ومن القضايا التي تستدعي النظر فيها هي أن كلمة الرياضيات ليست جمعاً للرياضة، كما أن الرياضة ليست مفرداً للرياضيات، ومع ذلك هناك من يستعمل الجمع، وآخرون يأخذون بالمفرد. وتبعاً لذلك فإن هذا المفرد نجم عنه إرباك وتداخل من ناحية معناه المزدوج للتربية العقلية، وللتمارين البدنية، ثم إن هذا الإرباك والتداخل يسببه أيضاً الشخص المنسوب لهذا المفرد أي "الرياضي"، بين المتخصص في هذا العلم العقلي، والذي يمارس

التمارين البدنية. قضية أخرى، في هذا المجال، هي دخول مصطلح جديد إلى اللغة العربية هو "الترييض"، وما يسببه من اختلافات من ناحية اشتقاقه وكذلك عن مبررات استعماله. هذه القضايا سنعالجها في هذه الدراسة، مبتدئين بمعنى الرياضيات في اللغة العربية.

معنى الرياضيات في اللغة العربية

من غريب مصطلح "الرياضيات"، أن معاجم اللغة الأساسية، كلسان العرب وتاج العروس، لم تذكره، بصيغته هذه، أي صيغة الجمع، عند البحث عنه تحت مادة "روض"، وعوضاً عن ذلك نجد اشتقاقات عديدة من هذه المادة، ومن ضمنها مصطلح "الرياضة"، مصدر "راض". وفي لسان العرب لابن منظور، مثلاً نعثر على معنيين رئيسيين متداخلين لكلمة "روض". الأول، يتصل بالروضة، وهي الأرض ذات الخضرة، والبستان الحسن، وهو الموضع يجتمع إليه الماء ويكثر نبتة. والجمع روضات ورياض وروض وريضان، صارت الواو ياء في رياض للكسرة قبلها، ثم يذكر ابن منظور اشتقاقات متعددة للروضة. أما المعنى الثاني، فهو التذليل، فالدابة يروضها روضاً ورياضة: وطأها وذللها أو علمها السير¹.

إذن، يمكن أن نستنتج من لسان العرب وغيره من المعاجم أن المعنيين الرئيسيين السابقين للروضة والرياضة، واشتقاقتهما المختلفة، يعبران في الأصل عن مفهومين: الأول هو ارتياض النفس، أي تطيب نتيجة اكتساء الأرض بالنبات، ومنها استراض المكان، أي فسح واتسع. والمفهوم، الثاني يمثل نشاطاً ذهنياً أو بدنياً يمارسه المرء على نفسه أو على غيره للتغلب على صعوبة ما وتذليلها أو التمكن من قضية ما بالتعلم والتدريب، وبالسياسة والتطويع وكبح الجماع والخضوع والانقياد لأمر ما. منها على سبيل المثال، رياضة الخيول ورياضة القوافي الصعبة ورياضة النفس ورياضة العقل. غير أن المعنى الغالب، للرياضة والمقصود منها هو الحكمة، والتعليم والتأديب، والتدريب والتمرين، والتمكن من المشكلات، وتذليل

¹ ابن منظور، لسان العرب، مج 7، ط 6، دار صادر، بيروت، 1997، ص 162.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الصعوبات والتغلب عليها، وإخضاع النفس أو الغير لأمر ما. وبمعنى الحكمة والدراية والسياسة يقول البحري:

وإذا الأمور تصعبتْ شُبُهَاتُهَا سَبَقَتْ رِياضَتُهُ إلى تَذليلِهَا¹

وبالاتجاه ذاته يقول كثير عزة في مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز:

وراض برفق ما أراد ولم تزل رياضته حتى أذل صعابها²

وبمعنى التذليل والتغلب على الصعوبات وإخضاع الغير يقول أبو تمام، مادحاً الخليفة المعتصم العباسي، ذاكراً انتصاره على الروم في موقعة عمورية، بعد أن عجز الفرس عن إخضاعها:

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب³

والرياضة، بمعنى التعليم والتأديب، ذكرها بشار بن برد:

تركّت رياضة النوكى قديماً فإنّ رياضة النوكى عياء

النوكى: جمع أنوك. والنوك بضم النون: الحمق. والمعنى تركت محاولة تأديب الحمقى لأن ذلك شيء يُعْيِي من يحاوله⁴. كما يقارن ذو الرمة بين تمكنه من القصيدة وانقيادها له مهما صعبت، بتمكن البعير المضطرب الذي يتمايل وينحني في السير، فيقول:

رياضة مخلوج وكل قصيدة وإن صعبت سهل عليّ عروضها

والبعير يختلج عن الإبل، أي ينحني، وهو المقتضب. أي أروض رياضة مخلوج.

¹ حسن كامل صيرفي، ديوان البحري، مج 3، ط 3، دار المعارف، القاهرة، ص 1768.

² إحسان عباس، ديوان كثير عزة، دار الثقافة، بيروت، 1971، ص 338.

³ محي الدين صبحي، ديوان أبو تمام، مج 1، دار صادر، بيروت، 1997، ص 98.

⁴ محمد رفعت فتح الله ومحمد شوقي أمين، ديوان بشار بن برد، ج 1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1950، ص 102.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وعروضها: طريقها ومذهبها¹. وبمعنى التذليل والمعالجة والتطويع، وردت "الرياضة" في قول الجميح في المفضليات:

ولو أصابت لقالت وهي صادقة
إن الرياضة لا تتصبك للشيب

تتصبك: تتعبك. والمعنى لا تتعب نفسك في تطويع المسنين، لأن إخضاعهم فيه عناء وتعب لا يجدي شيئاً، فإنهم لا يسمعون ما يؤمرون به، لما معهم من التجربة².

والرياضة بمعنى التمرين والتدريب، يقول عنها محمود سامي البارودي، مشبهاً بين سياسة اللين والشدة التي ينصح بها الحكام، وطريقة تدريب المهر التي تجمع بين العنف والرفق:

طوراً عراكاً وأحياناً مياسرة
رياضة المهر بين العنف والمهل³

إذن يمكن القول إن مصطلح "الرياضة"، لم يكن يعني، في البداية، أي شيء يدل على علوم الحساب والهندسة وغيرها. ولكن لماذا ظهر مفهوم "الرياضيات" و"الرياضة" ليدل على العمليات الحسابية والهندسية والجبرية أيضاً، هذا ما سنبينه في الفقرة التالية.

مبررات ظهور مصطلح الرياضيات

إن دواعي ظهور مصطلحي الرياضيات والرياضة، هي صلتها الوثيقة بالمعنيين السابقين اللذين ذكرناهما للرياضة، وانطباقهما على الطبيعة المجردة للأعداد والهندسة والجبر، وعلى منافعها للعقل. فالتعامل بالمجردات، دون النظر إلى المادة التي تتضمنها يقوي العقل وينير الأفكار ويعودّ العقل أن ينصب مدة طويلة على موضوع واحد بالتأمل والتروي، وكذلك على التمسك بالأدلة المنطقية في البرهان. كما أن التدريب الذهني وحل المسائل يؤدي إلى تقدم

¹ عبد القدوس أبو صالح، ديوان ذي الرمة، شرح حاتم الباهلي، ج 2، ط 2، مؤسسة الإيمان، بيروت، 1982، ص 712.

² أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، المفضليات، ج 1، ط 3، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص 34.

³ علي الجارم ومحمد شفيق معروف، ديوان البارودي، دار العودة، بيروت، 1992، ص 413.

أعمق وأدق سرّاً، وكأن نوراً جديداً في النفس قد شمع بهدوء وعمق. وقد أوضح هذه الأسباب عدد من العلماء، منهم المرعشي في ترتيب العلوم، إذ يقول: "سميت (الرياضيات) لارتياض الذهن أي انقياده بسبب الاشتغال بها إلى إدراك المعقولات.... والمتعارف منها الهندسة والحساب والهيئة"¹. كذلك يذكر صديق القنوجي في أبجد العلوم، من أسباب إطلاق الرياضيات والرياضة على علم العدد والحساب، هي: "منفعته في ارتياض النفس بالنظر في المجردات عن المادة ولواحقها، ولذلك كان القدماء يقدمونه في التعليم على سائر العلوم حتى المنطق. وكذلك يقول: سميّ به لأن من عادة الحكماء أن يرتاضوا به من مبدأ تعليمهم إلى صبيانهم"².

كما أن هذا الارتياض، أي الانبساط والارتياح، عند دراسة الأعداد والهندسة، أكدّه العلماء المتخصصون في هذه العلوم، فمثلاً يقول عمر الخيام (1048-1131م) المشهور برباعياته، في إحدى رسائله الجبرية: "وذلك يُعلم بقليل استقراء مع ضرب من القياس السهل، تركته لكي يحصل للنّاظر في رسالتي هذا الارتياض"³.

ويذكر، كذلك، السّموّع المغربي (ت 570 هـ/1175م) في كتابه "الباهر في الجبر" كلمة المرتاض، فيقول: "واعلم أن الضلع والجذر بمعنى واحد. وكذلك المال والبسط، وكذلك المجسم والمكعب، وكل اثنين يدلان على معنى واحد وبينهما فرق يتصوره المرتاض من غير كلفة"⁴.

لذلك أخذت تظهر مصطلحات الرياضيات واشتقاقاتها، في كتابات علمائنا الأوائل، فعمر الخيام يذكر في رسائله: الرياضيات والرياضيين والرياضي، فيقول على سبيل المثال: "وهذا الرجل (أرخميدس) لعمرى كان من متعالي الطبقة في الرياضيات".

¹ محمد بن إسماعيل السيد أحمد، ترتيب العلوم للمرعشي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1988، ص 179.

² عبد الجبار زكار، أبجد العلوم للقنوجي، ج 2، القسم الأول، وزارة الثقافة، دمشق، 1988، ص 364.

³ رشدي راشد و أحمد جبار، رسائل الخيام الجبرية، معهد التراث العلمي العربي، حلب، 1981، ص 50.

⁴ صلاح أحمد و رشدي راشد، الباهر في الجبر للسّموّع المغربي، وزارة التعليم العالي، دمشق، 1972، ص

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

ويقول: "وابتدأت بتعديد هذه الأصناف من المقدمات الجبرية، إذ الرياضيات أولى بالتقديم".
وأيضاً: "وأما المتقدمون الرياضيون.. فلم ينبهوا على شيء من هذا".

وأيضاً: "إن أحد المعاني التعليمية المحتاج إليها في جزء الحكمة المعروف بالرياضي هو صناعة الجبر والمقابلة"¹.

مما سبق يمكن القول إن ظهور مفهوم الرياضيات، كان في البداية يدل على صفة أو مهنة، للعلوم الذهنية.

ميادين أوسع للرياضة

لم يبق مجال "الرياضة" منحصراً بتذليل الصعوبات وارتياح النفس، وإنما أخذ يتعداها إلى ميادين أخرى فلسفية وبدنية، ذات صلة بإذلال النفس وردعها، وتقوية الجسم. لذلك ظهرت تصنيفات جديدة للرياضة تذكرها المعاجم الحديثة، منها على سبيل المثال، المعجم العربي الأساسي، إذ صنفها إلى أربع هي:

رياضة بدنية: القيام بحركات تكسب الجسم قوة ومرونة، ورياضة روحية: تدريبات لتقوية الروح "الصوم رياضة روحية وجسدية معاً"، ورياضة صوفية: تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات والتخلي عن الشهوات، وعلوم الرياضة:.. وتتضمن الحساب والهندسة والجبر...².

كما ظهرت تعريفات جديدة للرياضة، بالمعنى السابق تقريباً لكنها تميز بين الرياضة والرياضيات: "فالرياضة هي تمارين منظمة وألعاب ذات أصول وقواعد يقصد بها إلى تقوية الجسم وتغذية العقل وتهذيب النفس بإكساب المرء صفات حميدة كالمثابرة والجَلَد واللين،

¹ رسائل الخيام الجبرية، مصدر سابق، ص 91، 3، 90، 1.

² أحمد العايد وآخرون، المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1988، ص 560.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

واستبدال بالحال المذمومة الحال المحمودية، وخلوة للتعبد. والرياضيات، علم يضم الحساب والجبر والهندسة ونحوها¹.

غير أن هذا التوسع لكلمة الرياضة، قد انحصر الآن في مجال واحد تقريباً، هو مجال التربية البدنية، ولكنه يشمل مجالاً ثانياً هو مجال التربية الذهنية، لدى مستويات مختلفة. فقد ذكر معروف الرصافي (1875-1945م) هذين الصنفين بقوله:

قصدا الرياضة لاعبين وبينهم	كرة تُراض بلعبها الأجسام
راضوا بها الأبدان بعد طلابهم	علماً تُراض بدرسه الأفهام ²

معنيان متداخلان للرياضة والرياضي

كثيراً ما يعترى الغموض في فهم معنى المصطلحين الرياضة والرياضي بصفة خاصة في الكتابات العامة، ولا المتخصصة. فالمرء تتنابه الحيرة ويتوقف قليلاً، ليتساءل عن المقصود من هذين المصطلحين، هل هو العلم العقلي والمختصون به، أم هو التربية البدنية ومن يقوم بها، خاصة عندما نقول مثلاً شخص رياضي أو الرياضة صعبة. إلا أنه يكون مفهوماً أحياناً، من سياق الكلام كما يقول الرصافي في وصف الرازي:

حكيم رياضي طبيب منجم	أديب وفي الكيمياء حلال إشكال ³
----------------------	---

لذلك هناك من يستعمل "الرياضيات" عوضاً عن الرياضة تجنباً لهذا التداخل. ولكن الإرباك يبقى قائماً، عند استعمال "الرياضة" للدلالة على العلم العقلي، ويبدو أنه سيستمر، لأن هناك من اعتمد "الرياضة" لهذا العلم، وسار عليه، في المناهج الدراسية وغيرها، ومن الصعوبة تغيير ذلك.

¹ جبران مسعود، الرائد، معجم لغوي، مج 1، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص 706.

² مصطفى علي، ديوان الرصافي، ج 5، دار المنتظر، بيروت، 1999، ص 204.

³ المصدر السابق، ص 22.

أما "الرياضي" بالمفرد أو "الرياضيون" بالجمع فهو أكثر تداخلاً بين معنيين الأول، يدل على الشخص المنسوب لعلم الرياضيات أي العالم بالرياضيات (mathematician)، والثاني ليدل على الذي يمارس الحركات البدنية.

ولحل هذا التداخل هناك سبيلان، الأول هو أن نقول لهذا الشخص المنسوب للرياضيات "المختص أو المتخصص بالرياضيات" بدلاً من الرياضي لتمييزه عن الصنف الآخر. أما السبيل الثاني، وهو مستحدث، إذ يقال للشخص المنسوب للرياضيات: الرياضيائي. والحقيقة، أن النسبة هنا حصلت للجمع وليس للمفرد.

وهذا الأمر يدخلنا في موضوع جواز النسبة للجمع، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن استعمال "الرياضيائي" لم يكن متداولاً على نطاق واسع خاصة في مجتمع الرياضيات، وأنه محصورٌ في عدد قليل من المجالات المختصة والدراسات الأخرى، ولا يستعمله كثيراً طلبة الرياضيات وأساتذتها. لذلك نحن نميل إلى استعمال مصطلح "المختصين في الرياضيات" درءاً للتداخل، وأيسر من مصطلح "الرياضيائي"، غير المتداول وغير العملي. ولابد من الإشارة هنا إلى أن علماء الأوائل كعمر الخيام قد استعملوا مصطلح "الرياضيون والرياضيين"، عندما كانت مثل هذه المصطلحات تعني موضوعاً واحداً فقط، ولم يكن يعني آنذاك التربية البدنية، فلم يكن هناك اختلاط أو تداخل.

ومن "الرياضة" و"الرياضي"، تأتي الصفة والنسبة، مثل كلمة "الرياضية"، التي تزيد الأمر تداخلاً واختلاطاً عندما نقول: حياة رياضية، روح رياضية، مجلة رياضية، عمليات رياضية، معلومات رياضية. والنسبة في العربية، كما يقول علماء اللغة العربية، تعني الصفة، والعلاقة فيها بين الصفة والموصوف علاقة انتساب وعلاقة تشبيه بصفة خاصة، فإذا قيل مثلاً "الأشعة الذهبية" فهي ليست ذهباً وإنما لونها كلون الذهب، وإذا قيل "منديل حريري" فإنه يعني يشبه الحرير في ملمسه وخيوطه، فإن كان من حرير خالص قيل: منديل حرير¹.

¹ إبراهيم السامرائي، معجم ودراسة في العربية المعاصرة، مكتبة لبنان، بيروت، 2000، ص 145.

وعلى هذا القياس ينبغي القول علم الرياضة أو الرياضيات وليس العلم الرياضي، وكذلك قسم علوم الرياضيات عوضاً عن قسم العلوم الرياضية، وهكذا...

المقابل الأجنبي للرياضيات ومعناه الاشتقاقي

بعد أن ذكرنا معنى "الرياضة" في اللغة العربية، نبحت الآن عن معنى الكلمة الأجنبية: mathematics في الإنكليزية وmathematiques في الفرنسية، التي عادة ما تترجم إلى الرياضيات أو الرياضة. ومن الغريب في الأمر، أن هذه المقابلة بين العربي والأجنبي غير متساوية من ناحية المعنى. فالكلمة الإنكليزية mathematics وما يقابلها في معظم اللغات الأوروبية الحديثة، لها معنى يختلف من ناحية الاشتقاق والتركيب، عن المعنى المناظر لها في اللغة العربية.

وعند البحث عن الأصل الاشتقاقي لكلمة mathematics نجد أنها انتقلت من اللغة اللاتينية عن أصلها الإغريقي μαθηματικά.

والمصادر الأجنبية، تتفق أغلبها على أن هذه الكلمة تتكون من مقطعين، لكنها تختلف في تحديد هذين المقطعين وعن المقطع الأساسي الذي تتكون منه هذه الكلمة وعن المعنى الذي يشير إليه، ويعود هذا الاختلاف، إلى أن الترجمة عن الأصل الإغريقي، ليست مباشرة، وإنما عبر لغة أخرى. لذلك فإن هناك من المصادر من يكتب الأصل الجذري الاشتقاقي لمصطلح mathematics بصور مختلفة، منها: mathema (ماثيما) وmathemata (ماثيماتا) وmathesis (ماثيسيس).

وهذا الأصل الجذري، تبينه معظم المصادر، أنه مشتق من الفعل "عرف" أو "تعلم" وقبل أن تتخذ هذه العبارة في العصر الكلاسيكي، المعنى الاختصاصي الذي نعرفه اليوم، فإن كلمة mathematics كانت تعني "ما هو مدرّس أو معلّم"، أي في الواقع كل أنواع المعرفة¹، أو أي

¹ برنار فيتراك، ملحمة العقل، رسالة اليونسكو، القاهرة، تشرين الثاني، 1989، ص 29.

موضوع تعليمي.

لذلك فإن الإغريق، قد استعملوا لفظة mathematics على نطاق واسع في الكتابات الأولى للإشارة إلى أيّ موضوع للتعليم أو للتدريس. وبالتقدم الذي حصل في التعلم، وجدوا أنه من المناسب حصر نطاق هذه اللفظة في مجالات خاصة من المعرفة. ويقال أن الفيثاغوريين استعملوها للدلالة على الأعداد والمساحة والفلك والموسيقا. وقبل ذلك كان كل من هذه المواضيع يدعى باسمه المنفصل دون تعيين اسم مشترك لها¹. كما ذكر العلوم التعليمية أحد علماء الإغريق، هو بوثيوس (480-524م) عند تقسيمه فنون الإنسانيات: إلى الفنون (الأجرومية والخطابة والجدل) والعلوم التعليمية (الحساب والهندسة والفلك والموسيقا)². وبالمعنى ذاته، ذكر جورج سارتون في كتابه " العلم " تصنيفاً لإكسيفونان أحد مفكري اليونان فقال: وقد أدرك إكسيفونان كل الإدراك العناصر الثلاثة الأساسية في كل تربية وهي المواهب الطبيعية physis، والتعلم mathesis، والرياضة البدنية ascesis³. غير أن ثمة مصادر أخرى ترى أن الجذر الاشتقاقي لكلمة mathematics هو المقطع mathema ويعني العلم.

ومهما يكن من أمر، فإن الجذر الاشتقاقي لـ mathematics، نعتقد أنه يعود إلى فعل يفيد التعلم والمعرفة، أي الرغبة في المعرفة وحصول التعلم. لذلك فإن هذه الكلمة mathematics، تتألف من مقطعين الأول، هو mathemata ويتخذ المعنى الذي ذكرناه آنفاً، والمقطع الثاني هو ics ويعني علماً أو فناً، لذلك فإن الترجمة الحرفية تصبح العلم التعليمي. يؤكد ذلك أن العرب، في عصر الترجمة، قد ترجموا كلمة mathematics بـ "العلم التعليمي" و"العلوم التعاليمية"، وقد ذكر ذلك كثير من العلماء. منهم ابن سينا في كتابه الشفاء، وكذلك في موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي. يؤيد ذلك المفكر عمر فروخ فيقول: إن علوم التعاليم،

¹ Burton, The History of Mathematics, 6th ed., McGraw Hill, U.S.A, 2007, p. 1.

² ر.ج. فوريس و أ. ج. ديكسترهوز، تاريخ العلم والتكنولوجيا، ج 1، ط 2، ترجمة أسامة الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص 103.

³ جورج سارتون، تاريخ العلم، ج3، ترجمة إبراهيم بيومي وآخرون، دار المعارف، القاهرة، 1961، ص 137.

في الأصل، هي العلوم العددية (التي نسميها نحن العلوم الرياضية)، ولكن العرب كانوا يعدون العلوم الطبيعية أيضاً في علوم التعاليم¹. كما أن بطرس البستاني في موسوعته، يُطلق على الرياضيات: العلم التعليمي. وقد أطلق العرب على الرياضيات العلم التعليمي، وذلك لتعليمهم بها أولاً، كما يفعل الإغريق. فالإغريق يعتبرون الرياضيات العلم الذي يرشد، وأنه هو أساس المعارف البشرية، وأنه العلم الذي يأتي في المرتبة الأولى. ومن الأسماء الأخرى التي أطلقها العرب على الرياضيات: العلم الأوسط، والحكمة الوسطى، وذلك لتتزهه عن المادة بوجه، وبتوسطه بين ما لا يحتاج إلى المادة وبين ما يحتاج إليها مطلقاً لافتقاره من وجه وعدم افتقاره من وجه آخر. وفي ذلك يقول الكندي: إن علوم الفلسفة ثلاثة فأولها العلم الرياضي في التعليم وهو أوسطها في الطبع، والثاني علم الطبيعيات وهو أسفلها في الطبع، والثالث علم الربوبية وهو أعلاها في الطبع². غير أن أسماء "العلم التعليمي" و"العلم الأوسط" و"الحكمة الوسطى" لم تصمد كثيراً، وإنما الذي بقي هو اسم الرياضيات وهو اسمٌ وصفيٌ لعلم الأعداد والهندسة، وليس ترجمة لـ كلمة mathematics.

ومن المفيد أن نذكر أن القليل جداً من القواميس الحديثة الناقلة إلى العربية كقاموس المغني الكبير، تترجم كلمة mathematics بالعلم التعليمي أما بقية القواميس فتترجمها إلى بالرياضيات أو الرياضة، ولا تشير إلى أصلها الاشتقاقي، حتى إن القاموس العربي اليوناني لصموئيل عبد السيد وثلاسينوس لم يفعل ذلك، وكان من المفروض أن يبين الأصل اللغوي وتركيب هذه الكلمة.

الرياضة والرياضيات بين المفرد والجمع

من المفارقات الغريبة التي تخص مفرد الرياضيات وجمع الرياضة، أن هناك الكثير من يعتقد أن الرياضيات هي جمعاً للرياضة، وأن الرياضة هي مفرد الرياضيات، وهو اعتقاد غير

¹ عمر فروخ، تاريخ العلوم، دار العلم للملايين، بيروت، 1970، ص 132.

² ترتيب العلوم للمرعشي، مصدر سابق، ص 14.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

دقيق. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك الكثير من البلدان العربية من يعتمد "الرياضيات"، بالجمع، في حين هناك من يعتمد "الرياضة" بالمفرد، اسماً رسمياً ليدل على مجموعة العلوم التي تمثل الهندسة والحساب والجبر.

وما نرمي إليه هنا، هو ليس بيان أفضلية أي من المصطلحين، وإنما هو البحث عن الأسس التي يقوم عليها كل منها.

والقضية التي نؤكد هنا، هي أن العلماء العرب والمسلمين قد استعملوا كلا المصطلحين: الرياضيات والرياضة، وقد اشتقوهما من اللغة العربية، وليس ترجمةً عن الإغريقية أو اللاتينية.

وعند البحث عن جمع كلمة "رياضة" نجد أنها "رياضات"، وليس "رياضيات". هذا الجمع، غالباً، ما يستعمل في الألعاب والتربية البدنية.

وقد ذكر هذا الجمع أي رياضات، خليل مطران عند رثائه أحمد حسنين باشا، رئيس الديوان الملكي في القاهرة:

وَرَعَى رياضاتٍ تُنشِئُ فتيةً سُمَحَاءَ أخلاقٍ حماةَ حقائق¹

وقول خليل مطران في تهنئته السيد نصير حين فاز ببطولة العالم في حمل الأثقال بالدورة الأولمبية عام 1936:

في الرياضات لهم تبريزهم فإذا اعتزوا فليسوا أدعياء²

أما الرياضيات فمفردها هو "الرياضي"، نسبة إلى الرياضة، كما ذكر المرعشي في العلوم. ومفردها "رياضية"، كما جاء في "معجمي الحي"³.

¹ خليل مطران، ديوان الخليل، ج2، دار الجيل، بيروت، 1977، ص349.

² خليل مطران، ديوان الخليل، ج1، دار الجيل، بيروت، 1975، ص73.

³ سهيل حبيب سماحة، معجمي الحي، مكتبة سمير، بيروت، 1984، ص289.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

غير أن الرياضة، كعلم قد يكون جمعها رياضات أيضاً، كما ذكر أبو جعفر ابن سعيد العنسي في نفح الطيب بقوله في أحد النساء:

علمُ الرياضات حوتهُ وسا سته بتقويمِ وأسحار¹

وكذلك في قول صلاح الدين الصفدي وهو يرثي أحد العلماء:

ومن يفيد الورى في علمه حكما تجلى وييدي رياضاً في الرياضات²

أما المصادر الأجنبية، فتكاد تتفق على أن كلمة mathematics (الإنكليزية) هي جمعُ mathematic وأن هذا الجمع هو السائد حالياً في جميع المؤسسات العلمية والدراسات والأبحاث وغيرها.

ومع أن صيغة الجمع هي الغالبة، غير أنها تعامل، عادة، كمفرد، وغير محدود.

أما إذا عدنا إلى الأصول اللاتينية والإغريقية لجمع كلمة الرياضيات ومفرداتها، فيبدو الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً، بسبب الاختلاف والتباين بين المصادر الأجنبية. فقاموس أكسفورد يرى أن كلمة mathematic (بالمفرد) يقابلها في اللاتينية mathematicus وفي الإغريقية μαθηατικος (mathematikos)، أما جمع هذه الكلمة في الإغريقية، كما جاء في القاموس اليوناني فهو μαθηατικά ولكنه يختلف في تحديد معنى كلمة μαθηατικοδ التي ذكرها بمعنى "رياضي" أي الشخص المنسوب إلى الرياضيات.

غير أن قاموس أكسفورد يذكر أن μαθηατικοδ تعني mathematical أي رياضياً، صفة. يذكر قاموس أكسفورد الإنكليزي أن كلمة mathematics هي جمعُ mathematic. إن الإغريق كان لهم جمع حيادي هو μαθηατικά بدلالة كائنات الرياضيات ومبادئها وحقائقها، إلخ إضافةً إلى المؤنث μαθηατικη العلوم الرياضية. إن الفرنسيين والإنكليز الذين استعملوا الجمع اعتباراً من القرن السادس عشر الميلادي، يبدو أنهم قد استخلصوه تعبيراً ناقصاً من

¹ إحسان عباس، نفح الطيب للتمساني، ج4، دار صادر، بيروت، 1988، ص184.

² رمضان عبد التواب، الوافي بالوفيات للصفدي، ج12، دار صادر، بيروت، 1985، ص263.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الجملة mathematic sciences التي لم يكن لها في البداية علاقة باستعمال الإغريق للجمع الحيادي¹. وهنا لابد من البحث في معنى الحروف -ics- التي تأتي عادة في نهاية كلمة mathematics، فهي تمثل لاحقة للأسماء كانت بالأساس جمعاً ولكنها الآن، تعمل كمفرد، وهي جمعُ -ic- كما أن اللاحقة -ics- (بالجمع) تمثل في اللاتينية -ica-، وهي من الإغريقية -ikα-.

والشيء الغريب أيضاً هو أن هناك أسماءً تنتهي باللاحقة المفرد -ic- وأخرى تنتهي باللاحقة الجمع -ics- فمن الأسماء التي تنتهي باللاحقة المفرد مثلاً: arithmetic و music و magic و logic و rhetoric. ومن الأسماء التي تنتهي باللاحقة الجمع، مثلاً: tactics, politics, athletics, statistics. أما عن هذا الاختلاف فيشير قاموس concise إلى أن الصفة الإغريقية في -ikos- تستعمل كاسم في ثلاث طرق: أولاً، في المذكر المفرد، كما في kritikos (critic). وثانياً، في المؤنث المفرد كما في mousike (music). وثالثاً، في جمع الأسماء الحياضية، لا مذكورة ولا مؤنثة مثلاً: oikoncmika (economics).

وكما (ذكرنا) أن الحرفين -ic- يصحان في اللاتينية -ica- على حين في اللاتينية الوسطى هناك تذبذب بسبب المعالجة النحوية. وتتجه اللغة الرومانية، عادة، نحو المؤنث المفرد لأسماء الفنون والعلوم، ولكن الفرنسية، أحياناً، لديها الجمع كما في mathematiques. أما الكلمات الإنكليزية قبل القرن الخامس عشر الميلادي فقد كانت مفردة، كما هي باقية مثل: arithmetic. بعد ذلك أصبحت -ics- تشكل، عادة، أسماء العلوم مثلاً conics و dynamics، وكذلك للقضايا التطبيقية مثلاً athletics, politics، وبجانب هذا الاستعمال الخاص، أصبحت صفات أخرى في -ic-، أسماء كما في cosmetic, emetic².

¹ The Philological Society, The Oxford English Dictionary, vol.VI, Universty Press, Oxford, 1978, P.234.

² Houghton, The Concise Heritage Dictionary, Mifflin, Boston, 1976, P. 587.

إدخال مصطلح جديد "الترييض"

كما هي العادة، تنثير في البداية أي كلمة جديدة تدخل إلى اللغة العربية، مناقشات واعتراضات من جهات عديدة، ينطبق ذلك على كلمة "ترييض" التي دخلت نتيجة للترجمة القياسية وليس الحرفية للمصطلح الإنكليزي mathematization (من الفعل mathematize). كما أنها جاءت كصيغة اشتقاقية من مصطلح "الرياضيات". وقد نجم عن ذلك قضايا معينة، لا بد من توضيحها. أولاً، إن المعنى العلمي لكلمة "ترييض"، كما ذكرتها المصادر الأصلية، الأجنبية، هي صياغة المسائل والمشكلات والمواقف ومعالجتها باستعمال قوانين الرياضيات وأساليبها النظرية المختلفة. ثانياً، إن دخول هذه الكلمة أوقعنا في خلاف عن أيهما أصح هل هو الترييض أم الترويض. وهذا يذكرنا بالخلاف المزمّن بيت النقيم والنقويم.

ومع أن كلمة "ترييض" لم تذكرها مصادر اللغة العربية، وإنما ذكرت كلمات بديلة لها مثل: رِيّض، رَضت، ترويض، راض، تَرُض، استراضت، تريض، تروض، تراض. فقد جاء في المعجم العربي الأساسي أن: تريض يترريض تريضاً (مأخوذة من لفظ الرياضة مع أن المادة واوية). وترويض: روض، وسائل إخضاع الحيوانات وتهيئتها لعمل خاص¹. وقد جاء في الموسوعة العربية، الكلمات المشتقة من روض وهي: الترواض في البيع والشراء، أي التجاذب وهو ما يجري من المتبايعين من الزيادة والنقصان وأصله من راضه على الأمر إذا داراه حتى يدخله فيه، وهو من المجاز ومنه رُضُ نفسك بالقوى. وراض الشاعر القوافي الصعبة فارتاضت له، (قد ذكرنا ذلك في قول ذي الرمة)، ورُضت الدرّ رياضة إذا نقبت، وإنه لصعب الرياضة وسهل الرياضة، أي النقّب، قال لبيد:

يرضن صعاب الدر في كل حجة وإن لم تكن أعناقها عواطلا²

¹ المعجم العربي الأساسي، مصدر سابق، ص 560.

² محمد بن محمد السماوي اليماني، الموسوعة العربية، ج5، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، 1989، ص 279.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

ويقال أن الحجة هي شحمة الأذن، أو هي الخرزة أو اللؤلؤة تعلق في الأذن، وورد عجز هذا البيت أيضاً: وإن لم تكن أعناقهن عواطلا.

وكذلك جاء في الصحاح في اللغة والعلوم: إن الفعل هو يراوض، وفلان يراوض فلاناً على أمر كذا، أي يداريه ليدخله فيه... وترويض المهر تطبيعه¹.

ولهذا فإن يروض من راض الشيء أي ساسه وكبح جماحه. وقد ذكر امرؤ القيس كلمة "رُضْتُ" بمعنى خضعت ولنت. بقوله:

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورُضْتُ فذلت صعبةً أيّ إذلال²

أما كلمة "تربيض" فقد ذكرها أبو العلاء المعري بمعنى تحويل الأرض الجافة إلى روضة، حين يقارن بين جود الفقير والمطر الذي ينزل على الصخر، فيقول:

والسمح في العدم مثل الصخر في ديم يخضر شيئاً ولا يستطيع تربيضاً

أي إن جود الفقير كالمطر على صخر ينبت عليه بعض الخضار، لكنه لا يجعل منه روضة غناء. وقد ذكر أبو العلاء المعري أيضاً كلمة "رضت" بمعنى أخضعت، بقوله:

قد رضت نفسي حتى ذل جامحها فما أصاحب صعب النفس ما ريضاً

أي أخضع نفسه لإرادته، فهو لا يصاحب النفس الجموح³.

وكلمة "تروض" ذكرها البحرني بمعنى نذل ونطوع بقوله:

نروض أنفسنا أقصى رياضتها على مواتاة دهر لا يواتينا

المواتاة: الموافقة⁴. ثالثاً، هناك وجهة نظر تدعم استعمال كلمة "تربيض" عوضاً عن

¹ نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، الصحاح في اللغة والعلوم، دار الحضارة العربية، بيروت، 1974، ص 521.

² محمد أبو الفضل إبراهيم، ديوان امرؤ القيس، دار المعارف، القاهرة، 1958، ص 32.

³ كمال اليازجي، ديوان لزوم ما لا يلزم، مج 1، دار الجيل، بيروت، 1992، ص 605، 606.

⁴ ديوان البحرني، مج 4، ط 2، مصدر سابق، ص 2187.

"ترويض"، فقد جاء في كتاب فضاء المعرفة ما يلي: جرى استخدام كلمة "ترويض" ككلمة مشتقة من "الرياضيات"، وقد حبذ الدكتور عبد الله الدنان هذا الاشتقاق على أساس عدم اختلاط هذه الكلمة بمعنى التدريب والتذليل فيما لو استخدمت كلمة "ترويض" التي هي المصدر من "راض"، وهناك سابقة مقبولة بأخذ "تقييم" من القيمة¹. رابعاً، مع أن كلمة "ترويض" قد استوحاها قسم من الباحثين العرب، من المؤلفات الأجنبية، إلا أنها لم تأخذ طريقها للتداول كثيراً، أثناء المحادثات الكلامية العادية، إلا أن لها حضوراً محدوداً في المؤلفات الكتابية والترجمات الأجنبية. خامساً، إن مؤسسات اللغة العربية، وبالأخص، لم تبد رأياً بدخول كلمة "الترويض" حتى الآن، وإن أعطت رأياً، فيكون عادة بعد شيوع هذا المصطلح وانتشاره. سادساً، نعتقد أنه عوضاً عن دخول كلمة "ترويض" من الأفضل استعمال الجملة الآتية (مع أنها أطول): "تحويل المسألة أو المشكلة إلى لغة الرياضيات".

الخلاصة

لقد توسعنا كثيراً، في رحلة تاريخية معمقة، عن معاني مصطلحي "الرياضة" و"الرياضيات"، وجذورهما الاشتقاقية، والعلاقة بين مفردهما وجمعهما، وإدخال مصطلح جديد إلى اللغة العربية هو "الترويض". فكلمة الرياضة كانت سابقة على كلمة الرياضيات، ويدل معناها على التدريب والتعليم وتذليل الصعوبات، لتشمل بعد ذلك العلوم الذهنية، وأيضاً تدريب البدن والروح والنفس والأخلاق. أما الرياضيات، فنشأت بعد التوسع في دراسة الحساب والهندسة وحاجة الذهن إلى إدراك المجردات والتعامل معها. ومع ذلك لم يكن مصطلح الرياضيات عنواناً من ضمن أسماء المواضيع التي يدرسها تلاميذ المرحلة الابتدائية، وإنما كان المنهاج المدرسي مخصصاً بكماله لعلم الحساب، وبطبيعة الحال للقراءة والكتابة. قد يعود ذلك إلى كون "الرياضيات" صفةً جامعةً للعمليات الذهنية فحسب. ولكن بعد ظهور حركة إصلاح الرياضيات في الستينيات من القرن العشرين، حاملةً شعار "الرياضيات الحديثة أو

¹ عادل عبد الكريم ياسين، فضاء المعرفة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، 1984، ص 7.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

المعاصرة"، تغير محتوى علم الحساب، ليضم موضوعات أولية أيضاً من الهندسة والجبر والإحصاء. ترتب على ذلك تغيير أسم الحساب إلى "الرياضيات" بوجه عام. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن الكثير من القائمين على مهنة تعليم الرياضيات، بمراحلها المختلفة، ليس لديهم اطلاع على الأصول الاشتقاقية لمصطلحاتها، وربما ليس لديهم المعارف والمعلومات التفصيلية عن تاريخ الرياضيات، وهذا يمثل قصوراً في دراسة التراث العربي والإسلامي، والعالمي، وأيضاً قصوراً في فهم المؤثرات الثقافية بين الحضارات القديمة والعلاقات المتداخلة فيما بينها، وعن السبل المختلفة في انتقال ألفاظ الرياضيات من لغة إلى أخرى.

لذلك ينبغي العمل على أن تأخذ الدراسات التاريخية للرياضات مكانها، ضمن المناهج الدراسية الجامعية، خاصة لأولئك الذين سيجهون صوب مهنة التعليم، على أن تكون هذه الدراسات، دراسات تحليلية في مستواها، مراعية لبواعث تطور علم الرياضيات في الحضارات المختلفة، وعن تضاوله وتراجعته وخموده أيضاً، وليس فقط دراسات للمراحل التطورية الزمنية. لأن الدراسات التاريخية بهذا التوجه لها تأثير مزدوج في المعلم والمتعلم. فالمعلم تزيد من حصيلته المعرفية ومعلوماته الدقيقة وثروته الفكرية، وهذا الأمر يساهم في بناء شخصيته الفعالة، مما يساعده في عملية التعليم.

أما المتعلم فإنها تخفف عنه وطأة الدروس المجردة وصعوبة فهمها، وتبعث في نفسه البهجة، خاصة إذا توضيح القضايا، باختصار، أثناء دروس الرياضيات، لأن العقل وهو منهمك بقضايا الرياضيات العويصة بحاجة إلى التوقف قليلاً للترويح عن النفس، مما يعطي فسحة لتشويق المتعلم إلى دراسة الرياضيات وتحبيبها إليه. وبالنتيجة تبعث بمواقف تتسم بالإيجابية نحو تعلم الرياضيات. أي إننا نجمع بين المتعة والفائدة. وختاماً نأمل من مجامع اللغة العربية والمؤسسات المختصة في اللغة العربية، متابعة ما يظهر من مصطلحات جديدة، وإبداء رأيها فيها.

الجنوسة (الجندر - Gender)

د. ممدوح محمد خسارة

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

بدأ مصطلح (الجندر) يظهر في وثائق الأمم المتحدة في نهايات القرن العشرين، وقد ترجمه بعضهم في منظمة اليونسكو (بالنوع الاجتماعي)¹، ولكن المنظمة عمدت إلى تعريبه لفظياً فقالت: (الجندر). وتعني به - بوجه من الوجوه - (المساواة بين الجنسين في اللغة) والخطاب اللغوي، كأن تُستعمل كلمة (إنسان) بدل رَجُل أو امرأة، و(أهل الأعمال) بدل رجال الأعمال مثلاً. وذلك تبعاً للمساواة بينهما في الحقوق والواجبات والمعاملات وغيرها مما أقرته منظمات الأمم المتحدة من مبادئ.

ولكن للمصطلح وجوهاً أخرى خلافية كإلغاء فكرة الذكورة والأنوثة، وإطلاق تسمية واحدة على الجنسين... وأن الفروق بين الجنسين تقوم على أسس ثقافية واجتماعية وليس على أساس عضوي.

وواضح أن المصطلح العربي الذي وضعه بعضهم، وهو (النوع الاجتماعي)، ليس له علاقة بالمفهوم الذي يرمي إليه مصطلح (الجندر) الأجنبي، بل هو قد خرج عن دلالاته الأصلية في اللغة الإنكليزية، حيث يعني: «التذكير والتأنيث... تصنيف الكلمة حسب المذكر والمؤنث²... جنس الفرد ذكراً كان أم أنثى... جنس... المذكر والمؤنث». كما أن كلمة (gendre) الفرنسية ليس لها صلة بهذه

¹ ينظر مثلاً: نحو المساواة بين الجنسين في اللغة، مكتب اليونسكو بالدوحة، ترجمة د. حسام الخطيب.

² المورد / معجم إنكليزي عربي GENDER.

الدلالة.

أما تعريب هذا المصطلح لفظياً إلى (جندر)، فهو استباق وتسرع، لأن التعريب اللفظي لا يُلجأ إليه إلا عند تعذر البديل العربي.

وواضح أيضاً أن دلالة كلمة (الجندر) المعجمية في لغتها الأصلية، تختلف عن دلالتها الاستعمالية أو التداولية؛ لأنها لا تعني «التذكير والتأنيث»، ولا تصنيف الكلمة حسب المذكر والمؤنث، ولا الجنس»، بل على العكس من ذلك تعني عدم التفريق بين الذكر والأنثى في اللغة وفي العلاقات الاجتماعية والجنسية، وهي الدلالة التي أعطتها منظمة اليونسكو لهذه الكلمة التي غدت مصطلحاً.

إن التأمل في الجذور العربية المعجمية في محاولة لمقاربة هذا المصطلح الجديد يقود الباحث إلى الجذر (جنس). ومما ورد منه في المعاجم العربية القديمة (اللسان والتاج): «الجنس: الضرب من كل شيء، وهو من الناس والطير وغيرها، والجمع أجناس وجنوس... والجنس أعم من النوع... والمجانسة: المشابهة والمشاكلة... والناس جنس، والإبل جنس...». ومما ورد منه في المعاجم الحديثة (الوسيط والكبير): «الجنس: الأصل والنوع، وهو أعم من النوع... وفي علم الأحياء: أحد الأقسام التصنيفية، أعلى من النوع وأدنى من الفصيلة... والجنس يطلق على أحد شطري الأحياء المتعضية مميزاً بالذكر والأُنوثة».

وهذا يعني أن استعمال كلمة (الجنس) للدلالة على الذكورة والأنوثة بمعنى خاصية اتصاف الحيّ بصفات الذكر والأنثى استعمالٌ مُحدث، لأن الذكورة في المعاجم القديمة هي جمع كلمة (ذكر)، أما الأنوثة فلم ترد أصلاً في المعاجم القديمة. واستعمال كلمة (الجنس) للدلالة على الذكر والأنثى من الأحياء، هو من وضع مجمع القاهرة. وأقرب ما يقابله في الإنكليزية والفرنسية كلمة (sex) التي تُرجمت إلى (جنس)، أي مجموعة الصفات الخلقيّة للذكر والأنثى، ومنه (علم الجنس sexologie) «و(جناسة sexonomie)، التي تعني دراسة الظواهر والقوانين الحيويّة المتعلقة بتوالد جنسي الذكور والإناث وتوزعهما».

لذا نرى أن أقرب مصطلح عربي يمكن أن يقابل مصطلح (الجنذر) هو مصطلح (الجنوسة).

ومما يُحتجُّ به لهذا الاختيار أشياء:

1. إن المعاجم الحديثة أقرت كلمتي الذكورة والأنوثة للدلالة على الاتصاف بخاصية الذكر والأنثى، مع أن المعاجم القديمة لم تعط كلمة الذكورة هذه الدلالة، ولم تورد كلمة الأنوثة أصلاً كما قدّمنا. وهذا الإقرار ضرب من التطور الدلالي الذي لا تأباه اللغة. وتشيع الآن - اجتماعياً - كلمة (الجنوسة) بدلاً من كلمة (الغنوس) المعجمية، ودون إقرار رسمي لها. وفي كلمة (الجنوسة) قياسٌ على ذينك المشابهين المقرّين.

2. يمكن أن تُعدَّ كلمة (الجنوسة) مصدرًا للفعل (جنس) على زنة (فعل)، فيقال: (جنس جنوسة)، كما يقال: «سهل سهولة، وملح ملوحة وكدر كدورة». وهذا أي المصدر (فَعُولَة) من (فعل)، مقيسٌ مع وزن (فَعَالَة) عند ابن مالك وابن هشام¹.

3. إذا كانت المعاجم القديمة لم تورد الفعل (جنس ولا جنس)، لأن ما ورد فيها هو (جانس الأشياء: شاكل بينها، ويُجانس: يُشاكل ويُشابه)، فإن المعاجم الحديثة ولدت الفعلين (جنس) و(تجنس)، فقالت: «جنس الأشياء: نسبها إلى أجناس. وتجنس: اكتسب جنسية غير جنسيته» وهو مطاوع (جنس)، أي أكسبه أو أعطاه جنسية دولة ما.

والظاهر أن المعاجم الحديثة أفادت من قرار (إكمال المادة اللغوية) الذي كان اتّخذه مجمع القاهرة² - وهو من أهم القرارات اللغوية - والذي يُجيز توليد كلمات جديدة من مادة لغوية وردت في المعاجم القديمة، كأن نبني أفعالاً وأسماء فاعلين ومصادر انطلاقاً من كلمة واحدة ذكرتها المعاجم مثال ذلك، جاء: «الوقعة: الغلاف، والوفعية: صمام القارورة». وعلى هذا القرار أستطيع أن أقول: (وقع) بمعنى غلف أو سدّ. و(التوقيع) التغليف أو السدّ. وجاء:

¹ الأسترآبادي، شرح الشافية الكافية: 2221 .

² شذا العرف في فن الصرف 18، والنحو الوافي 2: 389.

«سَمَغَه: أَطْعَمَهُ وَجَرَّعَهُ»، ويمكن إكمال هذه المادة بقولنا: (سَمَغَ: طَعِمَ أو أَكَلَ... المُسَمِّغُ: المُطْعِمُ والمُجَرِّع... والسَمَّغَةُ: ما يُطْعَمُ ويُجَرَّع). والفلاحون يقولون لأول اللَّبَّاء الذي يُحَلِّبُ بعد نتاج الماشية: (سَمَّغَهُ)، ويقولون: سَمَّغْنَا العِجْلَ الصغير، أي جَرَّعْنَاهُ اللَّبَّاء. وجاء في مادة (ستع) كلمة واحدة هي: «المِسْتَع: السَّريع الماضي»، ويمكن أن تكمل هذه المادة وهي صفة، بالأفعال (سَتَعَ وسَتَّعَ وسَاتَعَ...) إذا اقتضت الضرورة ولا سيما الضرورة المصطلحية.

نقول: الظاهر أن المعاجم الحديثة أفادت من ذلك القرار، فاشتقَّت من الجذر القديم (جنس) فعلين جديدين أو صيغتين جديدتين بدالتين معاصرتين، فلماذا لا نخطو خطوة أخرى فنبنئ من الجذر (جنس) فعلاً على زنة (فَعَلَ) الذي يدلُّ في العربية على خاصية الاتصاف الملازم، كما في (مَلَحَ وَسَهَّلَ وَكَدَّرَ). وَصَوَّغُ (فَعَلَ) من (فَعَلَ) مقيسٌ لهذه الدلالة، كقولهم: نَبَّهَ وَفَقَّهَ وَشَرَّفَ¹. ومما يؤيِّد ما ذهبنا إليه أن المعجم الوسيط والكبير أثبتا صيغة (فَعَلَ) من (أَنْثَ)، فقالا: «أَنْثَ الرَّجُلُ أُنُوثَةٌ وَأُنَاتَةٌ: لَان...»، علماً بأن المعاجم القديمة ليس فيها الفعل (أَنْثَ) بضم النون.

4. مما قد يخطر على الذهن مقابلة (الجندر) بكلمة (جِنْسَانِيَّة) على مثال (عِلْمَانِيَّة)، ولكنها تُدْفَع بأُمُور:

أ. بناء (فُعُولَة) أَيْسَرُ نطقاً وأَقْلَ حروفاً، وأَدْخَلَ في الأبنية العربية، وهو أطوع تصريحاً، كأن يقال لمن يَتَّخِذُ هذا المبدأ (جُنُوسِي)، والمصدر الصناعي منه (جُنُوسِيَّة).

ب. يدل بناء (فَعْلَانِي) - بنسبة الألف والنون والياء - في المعاجم العربية القديمة على صفة العِظَمِ والضَّخامة، نحو: «رَقْبَانِي لعَظِيمِ الرَّقْبَةِ.. وشَعْرَانِي لكثيفِ الشَّعر»²، وليس له دلالة الاتصاف بخاصية ما، كما في حالتنا هذه.

ج. خَصَّصَت المعاجم العلمية المصطلحية بناء (فَعْلَانِي) - أي هذه النسبة - للدلالة على

¹ مجلة مجمع القاهرة 56/8.

² لسان العرب/ رقب وشد

المشابهة¹، فقالت: (غرواني لما يُشبه الغراء.... وسيمسماني لما يُشبه السَّمسم...)، ويُفَضَّل إبقاء هذه الصيغة لما خُصِّصَتْ له.

د. سوف تلتبس دلالة (جِنْسَانِيَّة وجِنْسَانِي) حتماً بدلالة (شَهْوَانيَّة وشَهْوَاني)، التي تعني الرغبة الشديدة في الملذَّات عامَّة والجنسيَّة خاصة.

5. مما قد يُفترَح مقابلة (الجندر) بمصطلح (الجِنْسِيَّة). ويدفع هذا الاقتراح أن مصطلح (الجنسوية) قد استعمل في منشورات الأمم المتحدة بمعنى: «طريقة تَصَرُّفٍ تُفَضَّلُ جنساً على آخر». ومما جاء فيها: «فالجنسوية تتطوي على ممارسة أنواع مختلفة من التمييز المعتمد على نوع من الجنس، وتشبه في ذلك مفهوم العنصرية»² وهو عكس الدلالة التي يرمى إليها مصطلح (الجندر).

6. إذا أقرَرنا فعل (جِنْس) للدلالة على الاتصاف بالجنس الذي هو النوع الإنساني مطلقاً، دون اعتبار للتذكير والتأنيث، وهذا هو معناه المعجمي القديم كما سبق بأنه: «الأصل... والضَرْبُ من الناس»، لأنَّ الناس وهم جنس ينقسمون نوعين ذكراً وأنثى، فإنَّ نِسْبَتَنَا الشَّيْءَ إلى الجنس تعني نِسْبَتَنَا إياه إلى الذكر والأنثى معاً ودون تمييز. وعلى هذا تصبح كلمة (الجِنْسِيَّة) تعني انتساب الفرد إلى الجنس الإنساني مطلقاً مجرداً من الذكورة والأنوثة، وتعني التعبير اللغوي عن ذلك بما يُشعر بالمساواة وعدم التَّحيز، وهو المقصود من مصطلح (الجندر)، كما ترمي إليه منظمة اليونسكو. والله العليم.

ملاحظة: لا يعني اقتراح هذا المصطلح واعتماده لغوياً أيَّ موقف فكريٍّ أو مبدئيٍّ حول مضمونه الثقافي.

¹ مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية 78-79.

² ينظر: مثيل أندريه: (لا للنماذج في أوار الرجل والمرأة) منشورات اليونسكو، بيروت، 1986، ص11-12، عن آمنة عطية (دراسة تحليلية لصورة المرأة والرجل في كتب اللغة العربية في الجمهورية العربية السورية، ص30). رسالة جامعية.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

بحوث في الترجمة

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

دور الترجمة في التواصل الحضاري بين اللغات ومعوّقاتها من وجهة نظر الجاحظ

د. عبد الخالق عيسى
جامعة النجاح الوطنية
نابلس - فلسطين المحتلة

شرائط الترجمان

الجاحظ واحد من أئمة المعتزلة الذين اهتموا بالنهل من ثقافات متعدّدة، ليستعينوا بها في خطابهم الديني أمام الفرق الإسلامية الأخرى، وأمام الملل والنحل التي انتشرت في العصر العباسي. وقد تتاسخت هذه الثقافات وتحلّلت في علومهم وآدابهم في صور شتّى¹، ولم يكن ليتسنى ذلك للجاحظ ولغيره لولا النقل والترجمة والتعريب.

ومن يدرس آثار الجاحظ يجده يتحدث عن هذه الأثافي بلسان العارف المدرك لخفاياها ومداخلها، فقد وضع للمتلقّي رأيه في جوانبها الأساسية؛ ففي حديثه عن الترجمة تحدّث عن شرائطها، وعلاقة المترجم باللغة التي سيقترجم منها، واللغة التي سيقترجم إليها، والعلم الذي سيقترجم منه، والعلوم والفنون التي يحسن ترجمتها، أو لا يحسن.

¹ ينظر: الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت548هـ)، ت محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الذيل، 3/2 وما بعدها.

وتلخّصت الشرائط التي يجب توفّرها في الترجمان عنده في نقطتين، هما:

أولاً: لا بدّ أن يكون بيان الترجمان في الترجمة في وزن علمه في المعرفة.

ثانياً: أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها؛ حتّى يكون فيهما سواء¹.

ولم ينس مخاطر التحدّث بلسانين، فقد ذكر جازماً أنّ اللغتين تتازعان، وتتجاذبان ما سيؤثر سلباً فيهما معاً، يقول²: "ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم (المترجم) بلسانين، علمنا أنّه قد أدخل الضيم عليهما؛ لأنّ كلّ واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعرض عليها"

وعلّل هذا الرأي بوجود طاقة محدودة لكل إنسان، يفرغها في لغة واحدة لا في لغتين، يقول: "وكيف يكون تمكّن اللسان منهما (اللغتين) مجتمعتين فيه، كتمكّنه إذا انفرد بالواحدة، وإنّما له قوّة واحدة، فإنّ تكلم بلغة استفرغت تلك القوة عليهما، وكذلك إنّ تكلم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات".

إنّ حكم الجاحظ هذا يستند إلى ما عايشه في زمنه، فمن المعروف أنّ نشاط الترجمة بدأ عند الأعاجم، ولم تكن اللغة العربية قد توضحّت طوابعها ومقوماتها في كتب مستقلة، ليقوم المترجمون تلاوفاً بين الألفاظ والمعاني التي تؤدّيها. ومن هنا فقد تعرّث كثير من الترجمات إلى العربية؛ لاعتمادها على الترجمة الحرفية، ثم تغيّر الأمر فيما بعد، وزال الالتواء عن الأساليب الفلسفية والعلمية، وظهر من أئقن العربية، وفقه أسرارها وخصائصها، وشارك في الشعر والنثر معاً، أمثال الفيلسوف الكندي³.

وقول الجاحظ السالف يبعث على اليأس والطمأنينة معاً؛ فهو باعث على اليأس لأنّه يجزم أن المرء لن يتمكن أبداً من لغتين معاً، وبعث على الطمأنينة لأنّ إخفاق المرء في عدم

¹ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255) الحيوان، ت عبد السلام محمد هارون، ط2، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 76/1.

² المصدر السابق 76/1، وما بعدها.

³ ضيف، شوقي: العصر العباسي الثاني، ط2، دار المعارف، مصر، 1975، ص515 وما بعدها.

امتلاك لسانين ليس بسبب نقصيره، وإنما لأن الإنسان مهما كان شأنه عاجز عن ذلك، والسبب هو العداوة بين اللغتين وهذا ما نفهمه من قوله¹: "أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذ منها".

والملاحظ أن الظلم واقع على اللغتين معاً، بمعنى آخر ليس هناك لغة ظالمة، وأخرى مظلومة في آن واحد، بل كل واحدة معتدية ومظلومة في الوقت نفسه، والعلاقة بينهما علاقة تنافسية تقضي إلى جذب وأخذ واعتراض، وهذا من شأنه تقويض التعايش السلمي بينهما²، ويوحى الجاحظ أنهما كالضرتين؛ لأن الضرتين لا تتفقان، فحسب اللسان "سميت ضرتين لأن كل واحدة تضار صاحبتها؛ لهذا كره في الإسلام أن يقال للواحدة ضرة، وقيل جارة"³.

علاقة المترجم بالعلم الذي سيقترجم منه

لم يعط الجاحظ رأياً معيماً تلتقي فيه العلوم جميعها، إدراكاً منه لاختلافها في صعوبتها، وفي محدّداتها، وعلاقتها بالنفس البشرية، وقبولها التأويل والرأي، بل قدّم آراء متباينة، علّ لها تعليقات اعتزالية، يغلب عليها المنطق والفلسفة.

وذكر قبل أن يفصل أنّ العلاقة بين المترجم والعلم المترجم مرتبطة بدرجة سهولة العلم، وبعدد العلماء الذين ترجموا فيه "فكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق والعلماء به أقل، كان أشدّ على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه ولن تجد ألبتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء"⁴.

وقد يسطو المترجم على النص عند عجزه عن فهم بعض المعاني من اللغة التي سيقترجم

¹ الجاحظ: الحيوان 76/1.

² عبد الفتاح كيليطو بين الفلسفة والشعر www.aljabriabed.net/Fikrwanakdn2212kilito.nrm

³ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مادة ضرر.

⁴ الجاحظ: الحيوان 77/1.

منها، فيتساوى أثره السلبي بأثر النسخ. يقول¹: "ولم يجد اليوناني الذي لم يرض بمقدار بلاغته في لسان العربية بدا من الاغترار والتجاوز، ثم يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين؛ وذلك أن نسخته لا يعدمها الخطأ، ثم ينسخ له من تلك النسخة من يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة، ثم لا ينقص منه، ثم يعارض بذلك من يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاح السقط الذي لا يجده في نسخته."

وتعليل هذا الرأي أن مصطلحات كثير من العلوم لم تكن واضحة بعد في أذهان المترجمين؛ ومن بين الشواهد التي تعيننا على فهم مقصد الجاحظ استحضارنا ترجمة متى بن يونس لكتاب الشعر لأرسططاليس، فما أصاب الكتاب من اضطراب سببه عدم وضوح مصطلحات الشعر القصصي في ذهن متى، فالسريان مثل العرب لم يكونوا يعرفون الكثير عن القصصية والغنائية والتمثيلية التي ظهرت في الشعر اليوناني وفنونه، فضلاً عن أن موضوع الكتاب، وهو المأساة لم يرتسم في ذهن متى رسماً بيّناً. والعصر العباسي الأول الذي نشأ فيه الجاحظ جل حياته، عانى من هذا الأمر كثيراً، ولهذا عاود مترجمو العصر العباسي الثاني قراءة الكتب التي ترجمت في العصر الأول، وترجموها على أساس جديد، يقوم على الاهتمام بالمعاني بعيداً عن التقيد الحرفي بالألفاظ، ولم يكن هذا يحدث لولا أنهم هضموا تلك المعاني واستساغوها، وأحسنوا تمثيلها².

ولهذا أنكر أبو حيان التوحيدي في القرن الرابع نقل فلسفة اليونان عن اللغة السريانية قبل إتقانها تماماً ومعرفة العلوم المنقولة منها وإليها. قال على لسان السيرافي في محاورته لمتى بن يونس في المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني³: "أنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعوننا إلى لغة لا بقي بها، وقد عفت منذ زمن طويل وباد أهلها، وانقرض القوم الذين

¹ المصدر السابق 78/1، وما بعدها.

² ينظر ضيف، شوقي: العصر العباسي الثاني ص 513 وما بعدها.

³ معجم الأدباء، 108/3.

كانوا يتفاوضون بها ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها؟ على أنك تنقل عن السريانية، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية، ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية؟

ويعلق زكي مبارك على رأي التوحيدي هذا ويرى أنّ الاتصال بالفلسفة اليونانية يجب أن يكون اتصال ثقافات وعقول لا اتصال نقل ومحاكاة، ويدعو إلى أن ننطلق من البنية العقلية العربية، ونسعى إلى الإفادة من الثقافات الأخرى، وبستشهد بتجارب ابن رشد والإمام الغزالي، بوصفهما نموذجين ناجحين، وهذا يمكن تعميمه في الحديث عن الترجمة بصرف النظر عن اللغة التي يترجم منها، واللغة التي يترجم إليها.

يقول زكي مبارك¹: "ولعل هذا هو السرّ في أن العرب ظلّ محصولهم الفلسفي غامضاً؛ لأنهم اضطروا إلى العناية بدرس ما وصل إليهم عن اليونان في إيهام وغموض. وقد واجهت هذه المشكلة وأنا أدرس فلسفة الغزالي فوصلت بعد الدرس إلى أن الفلاسفة المتفوقين من العرب هم الرجال الذين بنوا فلسفتهم على أساس العقلية العربية، وكان اتصالهم بالفلسفة اليونانية اتصال ثقافة لا اتصال نقل ومحاكاة. وكذلك نجح ابن رشد ونجح الغزالي، لأنهما ابتدأا من نقطة مفهومة هي النفس العربية أو الإسلامية، ثم مضيا يتعقبان ما يقضي به العقل أو ما يوحي به الدين، واستطاعا بذلك أن يخلقا الحماسة للفلسفة في البيئات الإسلامية، وأن يخلقا لها ألوفا مؤلفة من الأصدقاء والأعداء".

ومعنى هذا أن أسباباً كثيرة قد تهيأت لنمو النثر وازدهاره، فأخذ ينمو نمواً رأسياً وأفقيّاً، فامتدّ واستوعب العلوم والفلسفة، كما استطاع أن يستوعب الأدب العقلي العميق، ترفده آداب الفرس، واليونان، والهند وعلومهم.

وقد يعنّ للمتأمل سؤال مشروع يتّصل بالمركبّ الذي تشكل من هذا المزيج المختلف الأنواع، وهو: كيف بدت العلاقة بين المادة العربية، والمواد الأخرى من اللغات الأجنبية؟

¹ زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1931، 1/347.

إن الخطر الذي يتهدد الثقافة الأم في هذا السياق، ينجم عن تشكّل ازدواجية في اللغة تؤثر في العربية، وقد تقضي إلى ضياعها، وهذه الازدواجية تظهر إذا ابتعد المترجمون عن الأصول والجذور، واستبدلوا المفاهيم، وحاربوا المصطلحات؛ وما حدث في واقع الترجمة في العصر العباسي بعيد عن هذا البعد كله؛ فقد سعى المترجمون إلى رفد شجرة المعرفة العربية من مظان متعددة؛ ليتفرع عنها أغصان ممتدة، تحمل ثماراً مركبة¹، وهذا ما ذكره زكي مبارك ضمناً في حديثه المذكور آنفاً.

ولم يكن المترجمون يجدون ضيقاً في البحث عن إجابات عند بعض الأمم والشعوب الأخرى ليشبعوا حاجة المعرفة التي تلح عليهم؛ أو ليثروا ما عندهم بما عند غيرهم من الأمم والشعوب؛ فقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن معمرأ صاحب الفرقة العمرية من المعتزلة استوقف الطبيب الهندي بهلة، في أيام البرامكة، وسأله عن رأي أمته في البلاغة، فردّ عليه الطبيب: "عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكن لا أحسن ترجمتها لك"، أما السبب فيذكره في قوله: "ولم أعالج هذه الصناعة فأثّق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها"².

إن هذا ما ذكره الجاحظ في السياق السابق، فمعرفة المترجم بالعلم الذي سيجزم منه أمر يعدّ الأساس في عملية الترجمة، وهو بالضرورة يحمي النصّ من الالتواء والاضطراب، ويساعد المترجم على وضع البديل عن الكلمة الساقطة، أو غير الواضحة، أو غير المفهومة ويعين المترجم على الوصول إلى روح النصّ، وامتداد معاني المصطلحات، وظلال هذه المعاني.

كتب الدين

يرى الجاحظ أنّ ترجمة كتب الدين صعبة، وشاقة، ووعرة المسالك؛ لأنها مرتبطة بفهم

¹ ينظر ضيف، شوقي: العصر العباسي الثاني ص448.

² الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ) البيان والتبيين، ت عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت) 92/1.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

الفكر والتعبير عنه، ولهذا فهي تحتاج من المترجم أن يتكلم عن المعاني في الطبائع؛ وهذا معقود بالتوحيد، وأن يتكلم في وجوه الإخبار واحتمالاته للوجوه؛ وذلك متضمن بما يجوز على الله سبحانه وتعالى مما لا يجوز، وبما يجوز على الناس مما لا يجوز.

وأن يعلم مستقرّ العام والخاص، وأن يعرف الخبر الذي هو أثر، والخبر الذي هو قرآن، وأن يعرف ما يخصّه العقل مما تخصّه العادة أو الحال الرّآده له عن العموم، وأن يعرف ما يكون من الخبر صدقاً أو كذباً، وما لا يجوز أن يسمّى بصدق ولا كذب، وأن يعرف اسم الصدق والكذب وكم معنى يشتمل ويجتمع، وأن يعرف المحال من الصحيح، وأي شيء تأويل المحال، وهل يسمّى المحال كذباً أم لا يجوز ذلك، وأي القولين أفحش: المحال أم الكذب، وفي أي موضع يكون المحال أفطع، والكذب أشنع، وأن يعرف المثل والبديع، والوحي والكتابة، وأن يفرّق بين الخطل والهذر، والمقصود والمبسوط، وأبنية الكلام، وعادات القوم، وأسباب تفاهمهم¹.

وحذرّ الجاحظ من الشروع في الترجمة قبل معرفة الأمور السالفة، وإدراك معانيها، والدخول إلى أعماقها؛ لأنّ ذلك يجعله يخطئ في تأويل كلام الدين، والخطأ في الدين أضّر من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء وما يتصل بمعيشة بني آدم².

لقد كان الجاحظ معنيّاً بتثبيت معاني الكلمات في الأذهان؛ خشية أن يساء فهم القرآن الكريم المنزّل باللغة العربية، وذلك لتنوّع اللهجات الكثيرة؛ بسبب اختلاط الشعوب والقبائل، وتنوّع لغاتها ووسائل تعبيرها؛ وهذا يكون خطراً أكيدا على اللغة، ويعرّضها للרטانة واللحن، ومساوئ أخرى، تقضي على صفاتها، وتسيء إلى القرآن الكريم، وقد ذكر الجاحظ أمثلة كثيرة على التحريف الذي طرأ على العربية¹.

¹ الجاحظ: الحيوان 78/1.

² المصدر السابق، الصفحة نفسها.

¹ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ويثير الجاحظ أسئلة قد توجّه إلى المترجم من فئة المتخصصين في مسائل الدين والترجمة، ومنها:

ما الفرق بين الدليل، وشبه الدليل؟ وما علم المترجم بالحدود الخفية؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام وأسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمه ببعض الخطرقة لبعض المقدمات، "علماً أنّ المقدمات لابدّ أن تكون اضطرارية، ولا بدّ أن تكون مرتّبة وكالخيوط الممدودة"¹.

إنّ في هذا الحكم قضايا تستأهل التأمل والبحث، وبخاصة فيما يتّصل بالأخطاء الجسيمة التي يقع فيها بعض المترجمين عند تأويل بعض المعاني، وهذا ما يؤدي إلى تفكيك النص، والانحراف بالمادة إلى اتجاه آخر، يضاف إلى هذا أنّ جهل النساخ يضاعف من تشويه النص، ويزيد المشكلة تعقيداً، "ونتيجة لهذه الترجمة الفاسدة أساء الفلاسفة العرب الأولون فهم آثار اليونان الفلسفية فعزّووا إلى أرسطو مثلاً بعض كتب أفلاطون وبروكلوس"².

وقد حذر الجاحظ من تعاقب التدخل في النص الأصلي من النساخ، عند سقوط كلمة، أو عدم وضوحها، وحذر من تدخل المترجمين أيضاً، فيوماً بعد يوم نبتعد عن الأصل، ونزيد من التجني عليه.

وإذا كان المؤلف نفسه يعني عقله بإصلاح تصحيف، أو وضع كلمة ناقصة، إذ قد يحتاج لإتمام الأمر وقتاً طويلاً، فكيف الحال عند الناسخ والمترجم؟

إنّ التعديل بلا شك أصعب من التأليف. والسؤال الذي يبرز هنا أيضاً: هل الناسخ حريص على النص حرص صاحبه، وهو إنسان مستأجر. يقول الجاحظ³: "ولربّما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً، أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني، أيسر عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام، فكيف يطبق ذلك

¹ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

² ينظر: جبر، جميل: الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ص16.

³ الجاحظ: الحيوان 79/1.

المعارض المستأجر، والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب، وأعجب من ذلك أنه يأخذ بأمرين: قد أصلح الفاسد وزاد الصالح صلاحاً. ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لإنسان آخر، فيسير فيه الوراق الثاني سيرة الوراق الأول؛ ولا يزال الكتاب تتداوله الأيدي الجانية، والأعراض المفسدة، حتى يصير غلطاً صرفاً، وكذباً مصمتاً، فما ظنكم بكتاب يتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخطأ بشر من ذلك أو بمثله، كتاب متقادم الميلاد، دهري الصنعة".

على الرغم من ذلك فإن هذه الأخطاء الجسيمة لا تدين الترجمة بوصفها علماً، أو مبدأً، وإنما تدين المترجمين المقصرين، والمتعجلين، والمغرضين، وما قاله الجاحظ استخلاص من تجارب بنى عليها تعميماً، يفضي أحياناً إلى جور واضح، وجنوح عن الصواب.

وتناول الجاحظ أيضاً الترجمة الفورية الشفاهية عند بعض القصاص، وذكر أن بعضهم يمتلك قدرات استثنائية تخرجه من إطار التعميم الذي سبق، ومن هؤلاء القاص موسى ابن سيّار الأسواري، إذ كان "من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأي لسان هو أبين، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتهما، إلا ما ذكرناه من لسان موسى بن سيّار الأسواري"¹.

إن ما ختم به حديثه هو الاستثناء الذي يعفيه من اللوم، فلا يبدو متناقضاً مع ما قاله سابقاً؛ ولكن ثمة أمور كثيرة يمكن أن تثار حول ما ذكره الجاحظ عن موسى الأسواري، وأولها: من يحكم على الأسواري بأنه يمتلك العربية والفارسية على وجه كامل ومتكافئ؟

إذا كان الجاحظ، فلم لم يصرح أنه يعرف الفارسية بمقدار العربية؟ وعليه فهو ليس بالعمدة ولا يمكنه أن يكون حكماً عدلاً في هذه القضية. ولكي يستقيم رأيه لابد أن يستند إلى حكام يعرفون اللغتين معرفة تامة، وبمقدورهما إبداء الرأي في امتلاك الأسواري للسانين.

¹ الجاحظ: البيان والتبيين، 368/1.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

ولكن أين هم الحكماء؟ إذا افترضنا أنهم موجودون، فإننا نسقط القاعدة التي قررها الجاحظ باستحالة البراعة في لسانين.

والأمر الثاني: لم كان العرب في جهة والفرس في جهة ثانية دون اختلاط، أو اندماج بين المجموعتين؟ هل اختلاف اللسان يشكل سداً منيعاً يفصل بينهما؟

والأمر الثالث: هل يمكن أن نعدّ التفسير ترجمة؟ إذا كان الأمر كذلك فإن الأسواري يقوم بترجمتين، يترجم الآية مرة إلى العربية، ومرة إلى الفارسية، وهذا يخالف ما قاله الجاحظ حول إمكان ترجمة كتب الدين.

والأمر الرابع: جلوس العرب عن يمينه والفرس عن يساره، والتفاتة إلى جهة اليمين عند مخاطبة العرب، وجهة اليسار عند مخاطبة الفرس. والسؤال الذي يبرز في هذا السياق هو: أَمِنَ المصادقة أن تجلس العرب عن اليمين والفرس عن الشمال؟

والإجابة عن هذا يمكن أن تحصل بتخيّل النقيض؛ بمعنى لو تخيلنا أن الفرس كانوا يجلسون عن اليمين لكانت العربية ثانوية والفارسية أساسية، وهذا من شأنه تحديد موقع اللغة العربية وثقافتها أمام غيرها¹.

ترجمة الشعر والحكم

يرى الجاحظ أن فضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب، وترجمة الشعر غير مستطاعة، كما لا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطّع نظمه، وبطلَ وزنه، وزهد حسنه وسقط من التعجب، ومتى حول، كان الكلام المنثور أصلاً أفضل منه وأحسن وقعاً. "والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسن، وأوقع من المنثور الذي تحول من موزون الشعر".

أمّا قول الجاحظ "إنّ فضيلة الشعر مقصورة على العرب" ففيه شيء من التعصّب للجنس

¹ عبد الفتاح كيليطو: بين الفلسفة والشعر www.aljabriabed.net/Fikrwanakdn2212kilito.nrm

العربي؛ ذلك أنّ كثيراً من الشعراء لم يكونوا عرباً في أصولهم، ونذكر منهم للتمثيل بشار بن برد وأبا نواس وأبا العتاهية وابن الرومي، وكلّهم من أبناء العصر العباسي، هذا إذا أخذنا كلام الجاحظ على ظاهره، أمّا إذا تعمّقنا أكثر فقد نذهب إلى فهم آخر، وهو أنّ الجاحظ لا يقصد الأصل، وإنّما يريد العلاقة بين الشخص واللغة العربية، فمن ولد عند العرب وتشرب اللغة من مظاهرها، فهذا بعيد عن مقصده، أمّا الأعجمي الذي دخل الواقع العربي متأخراً، فهو الذي لا يستطيع أن يكون شاعراً للعربية يعطيها حقّها. وإذا أراد الجاحظ المعنى الثاني فهو مصيب.

أما ترجمة الحكم من غير العربية عند الجاحظ فليس فيه حكم واحد يعمّ عليها جميعاً، فأحياناً قد يزيدها جمالاً وبهاء، وأحياناً أخرى قد يحطّ من قدرها، في حين أنّ ترجمة الحكم العربية لا يختلف عن ترجمة الشعر العربي؛ إذ لو تم أمر الترجمة لذهب إعجاز الحكم وصداها في النفوس؛ لارتباطها بوزن لا يظهر في الترجمة. وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونان، وحولت آداب الفرس؛ فبعضها ازداد حسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حولت حكمة العرب، لبطل ذلك العجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم، التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم. وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها...¹.

إنّ الأهمية في موضوع ترجمة الحكم العربية عنده تكمن في الوزن الذي يجعلها تحمل شيئاً من الإعجاز، ويزيد من تأثيرها في النفوس؛ فإن فقدت ذلك الوزن فقدت صداها واستوت مع النثر العادي. والترجمة تهتم بالمعاني ولا تأبه بالأوزان، والشعوب كلّها تشتت في المعاني، وعليه فقد فرّق الجاحظ بين الحكم العربية وغيرها، وأشار ضمناً إلى تفوّق اللغة العربية على كثير من اللغات الأخرى في تلك الموسيقى الداخلية التي تنبعث من الأوزان والبديع، وهذا ما يجعل أمر ترجمة شعرها وحكمها من الصعوبة بمكان.

¹ الجاحظ: الحيوان 74/1 وما بعدها.

ويتقاطع مع رأي الجاحظ في الشعر رأي كثير من النقاد والباحثين المحدثين، فهذا "روبرت فروست" يعرف الشعر بأنه "ذلك الذي يضيع في الترجمة"؛ لأن الشعر من وجهة نظره يعبر عن معنى مغرق في الذاتية، معنى له جوانب إيحائية وإيقاعية يستحيل نقلها من لغة لأخرى؛ لأن في هذا إقلاقاً للعلاقة التلازمية بين الألفاظ ودلالاتها، أو ما يسميه البنيويون "الدال والمدلول"، ولهذا فالمعنى الحاضر في الشعر يستدعي بالضرورة المعنى الغائب في اللغة، والترجمة لا يمكنها الجمع بين المعنيين في أحيان كثيرة، كما أن القصيدة ليست عواطف فحسب، بل هي فكرة وصورة وتاريخ وفلسفة وحضارة. والسرّ في جمال الشعر لا يكمن في المعنى أو في الصورة الشعرية، بل في التعبير بطريقة غير مألوفة، وهذا لا يمكن الاستعاضة عنه بأسلوب مشابه في اللغة الأخرى.

ومن المحدثين من يرى أن ترجمة الشعر ممكنة بشروط، فهذا عبد الواحد لؤلؤة صاحب التجربة الثرية في الترجمة يلخصها في الآتي:

أولاً: المعرفة الدقيقة بلغته وباللغة الأجنبية.

ثانياً: المعرفة بثقافة اللغتين وتاريخهما.

ثالثاً: المعرفة ببعض اللغات التي تتصل باللغتين المترجم منها وإليها¹.

والشرط الثالث ضروري؛ لأن الشاعر قد يكون استلهم شيئاً من ثقافة اللغة المجاورة.

ترجمة الفلسفة اليونانية

لا يختلف رأي الجاحظ في هذا الموضوع عن رأيه في الموضوعات السابقة؛ فهو يقدم سببين لقصورها أو فشلها، الأول في قوله¹: "إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم، على خصائص معانيه، وحقائق مذهبها، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيهما حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل، ويجب على الجريء. وكيف يقدر على

¹ الاتحاد الثقافي 30 تشرين الثاني، 2008.

¹ الجاحظ: الحيوان، 75/1 وما بعدها.

أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخرجها، مثل مؤلف الكتاب وواضعه؟ فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق، وابن ناعمة، وابن قرّة، وابن فهرز¹، وثيفيل²، وابن وهيلي، وابن المقفع، مثل أرسطاطاليس؟ ومتى كان خالد³ مثل أفلاطون؟

الترجمة ناقصة؛ لأن علم الترجمان دون علم الفيلسوف، فمهما بلغ الترجمان من سعة المعرفة، ومن الإحاطة بمادة الكتاب الذي يترجمه، فإنه يظل عاجزاً عن اللحاق بمؤلفه".

أما الثاني فنجدّه في قوله: "ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها"

إن ترجمة الفلسفة بلا شك تتسم بالنقص، والجاحظ في رأيه السابق لا يكتفي بهذه السمة، بل نجده لا يعترف ضمناً بما أنجزه المترجمون المسلمون في هذا العلم، وأبعد من ذلك لا يخفي استهانته بهم وتحقير إنجازاتهم. يقول: "ومتى كان خالد مثل أفلاطون؟".

والسؤال الذي يبرز بدهياً هنا هو: كيف توصل الجاحظ إلى تأخر خالد عن أفلاطون؟ هل كان يتقن العربية واليونانية إتقاناً مكافئاً يؤهله إلى هذا الحكم؟ الإجابة قطعاً لا.

ومع كل ما ذكره الجاحظ فإن ثمة مواطن كثيرة ذكرها الجاحظ نفسه يتجلى فيها حوار الحضارات، وتلاقحها، وتتجلى فيها صلة الأذواق، وتقارب الأفهام، وانسجام العقول بين العربية والفارسية واليونانية والرومية والهندية. فقد قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقيل

¹ ابن فهرز: هو حبيب، أبو عبد يشوع بن فهرز. الجاحظ: الحيوان، 1/76.

² ثيفيل: هو ثيوفيل بن توما أحد المترجمين لأرسطو.. الجاحظ: الحيوان، 1/76.

³ هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ولي الخلافة ثلاثة أشهر. وقد قام بأول نقل في الإسلام، وصفه الجاحظ بقوله: "كان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً، وفصيلاً جامعاً، وجيّد الرأي كثير الأدب، وكان أول مترجم كتب النجوم والطب والكيمياء، توفي سنة 85 هـ. ينظر حاشية الحيوان 1/76.

للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة¹.

ومع أن البلاغة من العلوم الصعبة في مصطلحاتها، التي تحتاج إلى دقة في تحديد مدلولاتها وفهمها، فإن التراجمة استطاعوا ترجمة صحيفة بالهندية بدقة متناهية، وقد أفاد أهل البلاغة من العرب منها، وهذا من شأنه إضعاف رأي الجاحظ. قال معمر أبو الأشعث²: "فقيت بتلك الصحيفة (الهندية) التراجمة، فإذا فيها: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينفج الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفىها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً، أو فيلسوفاً عليمًا، ومن قد تعود حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض والتصفح، وعلى وجه الاستطراف والتظرف. قال: ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً، وتلك الحال له وفقاً، ويكون الاسم له لا فاضلاً (ولا مفضولاً) ولا مقصراً، ولا مشتركاً، ولا مضمناً، ويكون مع ذلك ذاكرة لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه موقفاً، ولهول تلك المقامات معاوداً، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظن بها مقتصدًا؛ فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها، فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز الحق في حسن الظن بها، آمنها فأودعها تهاون الأمنين. ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار

¹ الجاحظ: البيان والتبيين 1/88.

² المصدر السابق 1/92، وما بعدها.

من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل".

ولعلّه من العسير علينا بعد إثبات هذا التفاعل الحضاري والامتزاج المعرفي أن نحدّد بصفة أكيدة قاطعة كلّ أثر من آثار الفرس والهند واليونان والرومان وغيرهم في بناء الثقافة الإسلامية الجديدة سواء في مجال العلم، أو في مجال الأدب، ولكنّ إثبات الجاحظ للصحيفة الهندية في بيانه ووجود التوافق بين رأيه وما جاء فيها يوحي بتأثر واضح يمكن أن نقف على بعض حدوده، ومع ذلك فقد بقيت العقلية العربية ترتكز على قاعدة ثابتة وأصيلة هي عقيدة الإسلام وثقافة القرآن¹.

وأخيراً يتوضّح للدارس المُعَمِّم النظر* فيما سبق أنّ الجاحظ بنى آراءه على تجارب بعض أهل زمانه، فأصاب أحياناً، وجافى الصواب أحياناً آخر، لكنّه دون شك مطلع على ثقافات كثيرة، ومدرّك لأهمية الترجمة في التواصل المعرفي بين الشعوب، ولهذا وجدنا صدقاً للثقافات الفارسية والهندية واليونانية والرومانية في أدبه، ووجدناه يلغي الفواصل العرقية والمكانية والزمانية بين الحضارات وهذا يتجسّد في قوله²: "وها هي كتب بيننا وبينكم: مثل كتاب أفليدس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسطي¹... وكتب كثيرة لا تحصى، فيها بلاغ للناس وإن كانت مختلفة...".

¹ بلبع، عبد الحكيم: أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، ط3، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص76.

* تَمَعَنَ: تصاعر وتذلل انقياداً - الوسيط - (المدقق اللغوي)

² الجاحظ: الحيوان، 80/1.

¹ المجسطي: وردت بالشين، والمقصود هنا هو كتاب بطليموس، وقد قام بترجمته كثير من النقلة. قالوا وصحّح المأمون كثيراً من حسابه وأقيسته لمحيط الأرض والدرجة الأرضية، فكان أرصاد علمائه أول أرصاده في الإسلام، وسمّوا مجموع أرصادهم "الرصد المأموني". ينظر حاشية الحيوان 80/1..

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وقوله:¹ "إن الكتاب يقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار..."

¹ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

ثبت المصادر والمراجع

- بلبع، عبد الحكيم: أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، ط3، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، (د.ت) .
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ) البيان والتبيين، ت عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت) .
- الحيوان، ت عبد السلام محمد هارون، ط2، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي .
- جبر، جميل: الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر .
- زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1931.
- الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت548هـ)، ت محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ضيف، شوقي: العصر العباسي الثاني، ط2 دار المعارف، مصر، 1975.
- عبد الفتاح كيليطو www.aljabriabed.net/Fikrwanakdn2212kilito.nrm
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، (د.ت).

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

منهج الحمزاوي في ترجمة المصطلح اللساني

"دراسة في معجمه: المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية"

د. رشيد حليم

معهد اللغة العربية وآدابها

جامعة الطارف - الجزائر

مقدمة

إن الاعتراف العلمي الذي نقر بصحته واستمراره، وهو ذلك الذي يؤكد أن جلّ العلوم تتمتع بتطبيقات معينة¹ على صعيد الممارسة التقنية، فالرياضيات، والفيزياء، وعلوم الأحياء (البيولوجيا) قد وجدت تطبيقاتها في حلّ المشكلات المشخصة التي تفرض نفسها على الإنسان العامل والفرد المنتج "homo faber" خلال عمله في المادة، انطلاقاً من قوانين عامة هي ثمار تجربة الفرد، وخلاصة فكر الإنسان العاقل المتبصر "homo sapiens". فالمهندس المختص في الأشغال العمومية يقوم بتعبيد الطرقات ومدّ الجسور مرتكزاً على منظومة المعارف المختصة في مجاله، فيستأنس في تقنين جهده بتطبيق النظريات وما وصلت إليه من قواعد محكمة استخلصها علماء الرياضيات وعلماء الفيزياء والجيولوجيا وغيرهم. كما أن الطبيب المعالج المحنّك يمارس مهنته بالارتكاز على المعطيات النظرية والتطبيقية التي حققها المتخصصون في الكيمياء بفروعها وعلماء البيولوجيا، وعلماء الزراعة وغيرهم.

¹ إن الجانب التطبيقي للمعرفة العلمية يبرز في صورتين:

أ. وضع القوانين العلمية المستخلصة بالتطير العقلي والمنطقي موضع الاختبار والتجريب.

ب. استعمال تلك القوانين والأحكام في ميادين أخرى قصد الإفادة منها.

واللسانيات التطبيقية¹ من هذا الضرب المعرفي في علاقة تبعية مع اللسانيات البحثية - شأنها شأن مسار المهندس والطبيب - في علاقتها بالعلوم الأساسية التي يبني عليها عملها.

اللسانيات وإسهاماتها التقنية في عملية الترجمة:

لاشك في أن اللسانيات تمثل نقطة التقاء جميع العلوم الإنسانية والكونية²، بمعنى أنها تتناول الإنسان في جوهره إنساناً مفكراً³ وإنساناً ناطقاً، فإن تطبيقات محصيلاتها على المشاكل النوعية تبين أن مسارها على الصعيد النفعي لا يزال غير مدرك، ولا يزال بعيد المنال في كثير من الأحيان⁴.

وتعد اللسانيات التطبيقية حقلاً علمياً محدثاً من شجرة اللسانيات الكبيرة، وقد ظهر إلى الوجود سنة 1946 في الوقت الذي زاد فيه الاعتناء بمهام الوظيفة التعليمية، والاهتمام بمشاكل تعليم اللغات الحية لغير الناطقين بها، إلى جانب تطور الدراسات التطبيقية بصفة عامة، والاهتمام بنقل العلوم الكونية بصفة خاصة، فتبوأ فرع الترجمة منزلة متميزة.

¹ ويطلق عليها علم اللغة التطبيقي، ينظر أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، عالم الكتب، ط1، القاهرة 1995، ص43، وهذا الاصطلاح منقول عن الإنجليزية: باسم Applied-Linguistics / Applied-Linguistics .

² اعتبرت اللسانيات ومناهجها الثورة الفكرية الثانية بعد الثورة الديكارتية الأولى.

³ مفهوم الفكر عند بعض علماء المسلمين يعني المنطق، ينظر ابن سيده المخصص، دار الكتب العلمية، ج2، ص114.

⁴ أصبحت اللسانيات مع دوسوسير والتابعين لدرسه من بعده ممارسة فاعلة للحدث الاستيمولوجي داخل الدرس اللساني نفسه، وذلك بالمراجعة المستمرة لمفاهيمها ولمبادئها ولأسسها المعرفية والمنهجية، ينظر مصطفى غلفان اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية (سلسلة رسائل وأطروحات) كلية الآداب، جامعة الحسن الثاني، المغرب.

آ. اللسانيات التطبيقية: مفهومها، أقسامها

1. مفهومها

تتقارب التعريفات المؤصلة لهذا الصنف من العلوم، وهي فيما يجمع عليه بعض الباحثين الاستخدام الحقيقي والفعلي للمفاهيم النظرية التي طرحتها اللسانيات الحديثة للبحث في التطبيقات الوظيفية للعملية التربوية (البيداغوجية) والتعليمية من أجل تطوير طرائق تعليمها للناطقين بها¹.

وقد حصل التداخل العلمي والمنهجي بين اللسانيات بفرعيها النظري والتطبيقي واختصاصات علمية أخرى، ما فتىء البحث اللساني يسهم في بلورة فكرة معرفة الآخر، والاطلاع على ثقافته، وخلق جسور التواصل العلمي معه وذلك إنما بتعلم وتعليم لغته والإفادة مما توصل إليه من بحوث مهمة.

2. أقسامها:

كثيرة هي مجالات اللسانيات التطبيقية، أحصاها الدارسون وأفاضوا في تحليل كل فرع من فروعها، فقد ذكر أحد الباحثين العرب أنها اثنا عشر قسماً، هي كالتالي:

- تعليم اللغة الأم وتعليم اللغات الأجنبية
- الاختبارات اللغوية
- التخطيط اللغوي
- علم اللغة التقابلي
- صناعة المعاجم
- محاولة وضع لغة عالمية
- التحليل الأسلوبي
- أنظمة الكتابة

¹ عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، ص50

- الإلقاء وعيوب النطق
- علم اللغة الإحصائي
- علم اللغة الاجتماعي
- علم اللغة النفسي

ونلاحظ في هذا التوزيع إغفاله فرعاً مهماً في اللسانيات التطبيقية التي تعنى بالترجمة، كما أسقط فروعاً أخرى، من نحو اللسانيات الآلية، واللسانيات الانثروبولوجية، وهي فروع أوجدها الانقلاب العلمي الذي شهده عصرنا، وذلك بفضل الثورة العالمية في ميدان الاتصال، وثورة المعلومات والعولمة، أو كما يدرسها أحد الباحثين في مقاله الموسوم بـ: "اللسانيات وعلاقتها بالعلوم الإنسانية و التقانية (التكنولوجية)"¹.

تناول صاحب المقال غرضاً حديثاً تتقاطع فيه المعرفة اللسانية بالإعلام الآلي، وأطلق عليه: اللسانيات الآلية² وضمنه الحديث باقتضاب عن اللسانيات الخاصة بالترجمة، وإن كان صكّ هذا المصطلح لا يفي بالتوصيف العلمي لهذا الفرع فهو يعني عموم كل آلة، وإن تلمس البديل، القول: هي اللسانيات الإلكترونية جمعاً للإعلامية L'informatique، والشبكة العنكبوتية L internet. إضافة ومن الملاحظ عدم إدراجه قسماً خاصاً بالترجمة.

هذا الفرع تنبّه إلى أهميته الأستاذ محمود فهمي حجازي، فأفرد له مجالا في كتابه المعروف: "البحث اللغوي"³، وذلّل لنا ماهيته، ويسّر لنا إدراك غايته، قال: "هو طريقة من طرائق التواصل من خلال النص، وتتجلى أهميته في توحيد المصطلحات، ويجري عن طريق

¹ أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث (مرجع مذكور سابقاً)، ص 55.

² رابع بوحوش، اللسانيات وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والتكنولوجية، مجلة اللسانيات واللغة العربية، منشورات جامعة باجي مختار - عنابة، ع2، ص 77.

³ م ن، ص ن.

إعداد الوسائل المفيدة مثل إعداد المعاجم وقيام بنوك الترجمة وتدريب المترجمين¹.
وركّز باحث آخر على أهمية فرع الترجمة ضمن الإطار التفصيلي لأقسام اللسانيات التطبيقية في مخطط بياني لعلم اللغة الحديث بفرعيه الكبيرين، وما لحقهما من فروع أخرى ثانوية². غير أنه لما عرّج على شرح أغراض تلك الأقسام أحجم عن تحليل العلاقة التي تربط اللسانيات التطبيقية بالترجمة، ولم يعن بالحديث عنها إلا في مجال منهجي³، حين أشار إلى فاعلية المنهج التقابلي مركزاً على: "إمكان الإفادة من المنهج التقابلي في مجال الترجمة، وتقديم أهم أوجه الشبه والاختلاف، وأيضاً أهم الخصائص لكل من اللغتين موضوع الترجمة مما يساعد على إيجاد المكافئ في حالة الترجمة"⁴.

ب. فاعلية التداخل بين اللسانيات التطبيقية والترجمة

للترجمة وظيفة محورية، إنها أداة فعالة تساهم في مشاركة الغير علمه وثقافته، ووسيلة جادة في تركية الإنماء الحضاري بين الشعوب والأمم، ولهذه المهام عدّها الباحثون شكلاً من أشكال المثاقفة **acculturation**⁵.

وإذا تجاوزنا النظرة التزامنية لواقع الترجمة عبر العصور والبيئات، كما تناولها أحد الباحثين في مقاله⁶، وأحد العلماء في كتابيه⁷، فيمكن فهم غرض الترجمة من خلال تعريف الممتن لصناعتها، فالمترجم هو ذاك المتمكّن من الألسن، وأن الترجمة هي المجال المتميز

¹ البحث اللغوي، طبعة دار غريب، القاهرة، ص124.

² م ن، ص ن

³ العربية وعلم اللغة الحديث، طبعة دار غريب، ص90.

⁴ م ن، ص 101

⁵ م ن، ص ن

⁶ بصافي رشيدة، مقاربات في تعليمية الترجمة الفورية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ص03

⁷ عمر لحسن، الترجمة بين الموضوعية والذاتية، مجلة التواصل، منشورات جامعة باجي مختار عنابة، ع11،

الواعي لاحتكاك الألسن، ويمكن تعريف هذه العملية بأنها تفسير علامات لسان معين بواسطة علامات لسان آخر.¹

حقيقة إن وظيفة المترجم مستعصية على الذي لا تغنيه الشروط الموضوعية لإتمام المهمة، إذ ينبغي أن يمتلك المتصدر لهذه المهنة ناصية اللسان الأصلي ببيانه وبلاغته، وأن يكون ضليعاً في مجاله التخصصي، وثالثاً إلمامه الجيد باللغة الثانية - تركيباً، ودلالة ومجازاً - التي ينقل منها أو إليها.²

واشتد جدال حول استراتيجية الترجمة، غذاه موقفان متناقضان لمنظري الترجمة والممارسين لها، وانتهى الخصام المعرفي إلى يقين ثبت صدق انتماء الترجمة إلى فرع معرفي صحيح يشبه الرياضيات، يتمتع بمفاهيمه وتقنياته الخاصة، ويحتكم باستمرار إلى المعطيات الأساسية للسانيات، وقد حسم ثلّة من المنظرين الأوائل من أمثال فيدروف "fedorov" وداربيلني "Darblent" المسألة أن اعتقد الرجلان أن العملية الترجمية تنزع تحت الإضاءة الدقيقة للمسار اللساني.³ ولم يتخلف جورج مونان في إنهاء المسألة حين سلّم بشرعة انتماء فرع الترجمة إلى بوتقة المعرفة اللسانية، فلا مجال لتحقيقها وتجليها إلا في إطار العلم اللساني.⁴

هذا المنحى هو الوضع الصحيح الذي يجب أن تكون عليه الترجمة ضمن مضمار

¹ مونان جورج:

- المسائل النظرية في الترجمة، ترجمة لطيف زيتوني ط1، دار المنتخب ببيروت 1995.

- اللسانيات والترجمة، ترجمة حسين بن زروق، ط1، د-م-ج الجزائر 2000.

² شارل بوتون، اللسانيات التطبيقية، ترجمة قاسم المقداد، ومحمد رياض المصري، طبعة دار الوسيم للخدمات الطباعة، دمشق، ص65.

³ عبد المالك مرتاض، صناعة المصطلح في العربية، مجلة المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر ع2 سنة 99، ص21.

⁴ م س ن، ص70.

اللسانيات التطبيقية وواقعها، باعتبارها ميداناً رحباً يشمل جميع المشكلات المتعلقة بالدلالة. تتداخل الترجمة مع اللسانيات في كونها عملية براغماتية "تفعية"، تداولية محضة¹، أي حدثها قريب من المعنى الذي تضيفه اللسانيات على هذه العبارة. ولذلك لم يكن موان مصيباً في استفهامه عن: وجوب اعتبار الدراسة العلمية لعملية الترجمة فرعاً من فروع اللسانيات؟ وطرح السؤال غالباً ما يدل على استشفاف الإجابة عنه، يقول "موان" مؤكداً صحة هذا الموقف المعرفي: "لا شك في أن حركة الترجمة ليست غائبة عن الألسنية، فالواقع أننا ما إن نصنف بنية لغة ما بلغة أخرى، وما إن ندخل في الألسنية المقارنة حتى نجد عمليات الترجمة ظاهرة أو مستترة²."

وإذا كانت الترجمة قد تمكّنت من فرض موقعها في حقل الدراسة اللسانية، فإن شقّ الطريق إلى مسألة أخرى، مسألة ازدواجية اللغة "bilinguisme" وقضية علم الاشتقاق "etymology" هما على رأس ما يجب أن تراعيه الترجمة.

موقعية كتاب: "المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية" بين

المعجمية والترجمة

حبلت الساحة العلمية المعجمية العربية بجهود باحثين متميزين في التأصيل لموضوع الترجمة، وبجهود أكبر لموضوع المعجمية أو ما يطلق عليه علم المفردات: "l'lexicologie" وقدّموا أعمالاً متميزة في فروع اللسانيات التطبيقية، الترجمة والمعجمية، وعلم المصطلح.

ولتتبع واقع المصطلح اللساني، لا مفر من الاهتمام بإحدى الطريقتين:

- النقل عن الكتب المؤلفة في بعض مباحث العلم، وبخاصة تلك التي تتعامل مع مفاهيم غربية جديدة لها في لغتها ومصطلحاتها الخاصة التي يراد التعبير عنها بمصطلح عربي.

¹ مسائل نظرية للترجمة (م م س) ص 17.

² م ن، ص 55.

- ما ألف من معاجم أو مسارد لهذه المصطلحات، وهي في معظمها تتخذ المصطلح الأجنبي أو المفهوم الأجنبي منطلقاً للبحث عن مقابل عربي وليس العكس¹.

ومن العلماء المتخصصين الذين ألمّوا بهذين المصدرين، نذكر محمد رشاد الحمزاوي - رائد المعجمية العربية - الذي أنشأ مؤلفاً متميزاً، سماه: "المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية".

آ. الأهمية العلمية للكتاب:

تتجلى أهمية الكتاب من كونه أول محاولة في سبيل وضع منهجية، الغرض منها المساهمة في التعريف بأسس علم اللغة الحديث من خلال المصطلحات، وتستبين فائدة الكتاب أيضاً في التقاطع العلمي لفروع اللسانيات التطبيقية من زوايا مختلفة:

- زاوية الترجمة، حيث اشتمل الكتاب على عشرات المصطلحات المترجمة أو المعربة.
- يدرج هذا العمل ضمن إطار علم المعجمية.
- استعمال النظام التقابلي في بناء المعجم، وقد وُحّد العمل في معجم انتخب فيه 466 مصطلحاً لاقت إجماع بعض اللسانيين، ذيل به العمل.
- اعتبره سنداً لأهل التربية والتعليم المعنيين بالكتب المدرسية وما يلزمهم من مصطلحات دقيقة لتعليم العربية تعليماً علمياً صحيحاً.

أما الهدف الأسمى - فضلاً على ما استخلصنا - فقد بيّنه رشاد الحمزاوي في بداية كتابه، قال: "وضع منهج واضح المعالم في تأسيس لنظام اصطلاحي يقوم على الكتب اللغوية المؤلفة والمترجمة، التي تناولت بالدرس المسائل اللغوية في ضوء علم اللغة الحديث، والتي نقلت مصطلحاتها ومواردها من مدارس مختلفة الألسن كالإنجليزية والفرنسية².

¹ أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث (م م س) ص9

² المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1987، ص14

أما حديثه عن جانب الإضافة فيه، فهو استقراؤه المادة المعجمية من مظان الكتب اللسانية الحديثة ومقررات المجامع اللغوية ومقالات بعض الباحثين، إضافة إلى بعض المختصرات الدراسية. غير أن المتأمل في محتوياتها يقف على تحيز مكشوف للمؤسسين الأوائل من علماء اللغة العرب المشرقيين، فركز على مؤلفات محمود السعران، وتمام حسان، وإبراهيم أنيس، وكمال بشر، وهذا الرعي يعرف بنزوعه إلى المدرسة الإنجليزية، وتحديداً إلى مدرسة اللساني "فيرث Firth"، أما المدرسة الفرنسية فانتخب ما ترجمه زملاؤه لجان كانتينو، ودو سوسير، واستعان بالطبيب بكوش في الصرف وعبد القادر المهيري فيما ألف من كتيبات تعليمية للنشء¹.

- وهذا العمل مفيد للدارسين، إلا أننا لاحظنا فيه بعض الخلل المعرفي من زوايا حادة:
- استبعاده للمصطلحات التراثية التي وردت في مؤلفات جهابذة درس اللغوي العربي القديم من أمثال سيوييه وابن جني.
- التحلل من الكتب المترجمة المعاصرة ورميها بالتقليد، ونعتها بضعف محصولها في تطوير علم اللغة الحديث.
- بُعد بعض الكتب عن مسابقة المنهج العلمي الأكاديمي، ووصفها بالسلفية.
- إقصاء جهود علماء متميزين لهم مكانتهم المبدلة في التنظير للدرس اللساني، وأخصّهم بالذكر أستاذنا الفاضل عبد الرحمان الحاج صالح صاحب السبق في كثير من القضايا اللسانية.

وبرغم ما حواه هذا الكتاب من تأصيل معرفي يسرّ للدارسين العرب تناول أغراض اللسانيات، وكشف لهم الحجب عما أنتجه الغرب في هذا الميدان، فإن بعض الباحثين العرب استدرك على هذا المعجم بجملة من الملاحظات، منها:

- يعدّ هذا العمل صغيراً، فهو قطرة في بحر.

¹ م ن، ص 14-15.

- يعتبر عملاً تراثياً دخل ذمة التاريخ.
- استعانت به بمؤلفات قديمة تعود إلى منتصف القرن الماضي، مسقطاً بذلك عشر سنوات من تاريخ اللسانيات. وعلى الرغم من إعادة طبعه في 1987 أي بعد عشر سنوات من الإخراج الأول، فإن صاحبه لم يدخل في كتابه - ويالأسف - أي إضافة أو تعديل أو تصويب في طبعته الثانية، وهذا يعني أن المؤلف راض عن صنيعه، في حين أن البحث اللساني العالمي يقفز كل يوم قفزات هائلة ويقدم تصورات ومفاهيم جديدة تجعل أي بحث أو عمل مسحي في اللسانيات متخلفاً خلال بضع سنوات¹.

ب. منهجية بناء الكتاب

- مع أن المؤلف تجاهل الإشارة إلى أن عمله يندرج ضمن الدرس اللساني التطبيقي، فإننا بمواصفات الدرس اللساني المعاصر نرى صحة انتساب الكتاب إلى اللسانيات التطبيقية، حيث تتشارك في مادته: الفرع المعجمي والتعليمي، والترجمة. وقد توصلنا إلى هذه الخلاصة مما أبانه عنه المؤلف في ضبط منهجية الكتاب كما يقدمه في التمهيلات الأربعة:
- أ. استقراء المصطلحات اللغوية العربية الحديثة وجمعها، بناءً على معيار جدتها في الاستعمال، وكان تعدادها 1200 مصطلح، قال عنها إنها لم يسبق استخدامها من قبل.
 - ب. ميزة هذا الاستقراء أنه جمع بين الاجتهادات الفردية والجماعية، واجتهاد شخصي من لدن الكاتب نفسه، إذ غُفِلَ وَضَعُ المصطلح الأجنبي.
 - ج. إحصاء المصطلحات اللسانية دون اعتبار للمختلف فيها أو المتفق عليها.
 - د. عرض تلك المصطلحات اللسانية حسب الترتيب الأبجدي والتاريخي وحرص على أن يكون كل مصطلح مترجم يتبعه ما يقابله في العربية، وذلك لتحصل منفعتان:
- الأولى: ترجمة المصطلح الحديث

¹ محاضرات في علم اللغة الحديث (م م س) ص 10.

- الثانية: التعريف بخصائصه.¹

والمؤكد أن رشاد الحمزاوي يسيطر سيطرة متمكنة على اللسان الفرنسي، لأنه خريج جامعاته، ولذلك تلاحظ بسرعة غلبة المصطلح الفرنسي على غيره في إخراج المصطلحات المترجمة.

وإذا نظرنا إلى مقومات هذا العمل من زاوية لسانية، نجده أنه أكثر جرأة في بناء معجم تقابلي ثلاثي اللغة²، فاق به نظراءه مما أُلّف في هذا العلم، من أمثال محمد الخولي³ وعبد السلام المسدي⁴، حيث اكتفى بنقل المصطلح الأجنبي وما يوازيه في العربية دون تجشم عناء الشرح. غير أن ما يؤلف بين الحمزاوي وهؤلاء هو العصامية في ولوج أغمار هذا العلم، بل نراه أكثر ذاتية في التعامل مع المصطلح المترجم وصكّه، رغم محاولته دفع هذه التهمة عن نفسه في إشارة دالة: "هذا المؤلف دراسة منهجية وتوحيدية مستمدة من الكتب العربية المعتمدة هنا والمخصصة للسانيات باللغة العربية"⁵.

استفاد الحمزاوي من الثقافة اللسانية الغربية عامة والفرنسية خاصة، وتجلّى هذا التواصل في ترجمة بعض المصطلحات اللسانية بما يتلاءم وإدراكه اللساني للعربية، دون إفساد لبيانها. ومن أمثلة ذلك، ما نذكره تأكيداً لسلامة المنهج وسداد الطريقة.

- علم الدلالة: يسميه السيمية⁶ مقابل المصطلح الفرنسي La semantique
- يستخدم مصطلح علم اللغة النفساني⁷ بدلاً من علم اللغة النفسي "La psycholinguistique"

¹ م ن، ص 16

² اللغات الثلاث هي: العربية والفرنسية والإنجليزية

³ صدر له معجمان: معجم علم اللغة النظري، صدر سنة 82، ومعجم علم اللغة التطبيقي، صدر 86

⁴ قاموس اللسانيات، صدر سنة 84

⁵ المصطلحات اللغوية الحديثة، ص 4-83

⁶ م ن، ص 16

⁷ م ن، ص 137

• البقاء على المصطلح الأجنبي كما عرف في لغته الأصلية، من ذلك:

- مصطلح الإيستيمولوجيا "epsitymologie" شرحه بعلم المعارف¹

- أبلاتيف "Ablatif" ويعني التغيرات الحركية للاسم في اللغتين اللاتينية واليونانية².

- الأفازيا "Aphasie" وهي مرض من أمراض الكلام وتسمى الحبسة أو العقلة³.

- أوتوماتي "Automatique" أي صرخات انفعالية تحدث غريزية⁴.

والحقيقة لا يتسع هذا المقام لجرد تلك المصطلحات التي شملها التقاطع بين غرضي الترجمة والمعجمية، لأن تعددها كثير ويحتاج إلى موضوع آخر، يكفي ما نشير إليه: أوسيلوجراف، الاتيمولوجيا، البلاتوغرافيا، تونيم، جراماطيقا⁵.

وإذا كان الحمزاوي يعول على اللسان الفرنسي في كثير من ترجماته، فإنه يتبرّم على نهجه، فتراه يعارض اللجوء إلى خطواته، يعلن ذلك تصرّحاً: "إن اللجوء إلى الترجمة لن يؤتّى أكله، إلا إذا استقلت اللغة المترجم إليها بنظرياتها، وأصبح لها الزاد الاصطلاحي الذي يوفر لها التكتيف والتحوير والإسقاط⁶.

ومن صور تخليط منهجه في الترجمة عدم التزامه بمقابل مفرد للمصطلح الأجنبي، فلفظة

Accent يقابلها بـ:

- النبر⁷

¹ م ن، ص 21

² م ن، ص

³ م ن، ص 24

⁴ م ن، 26

⁵ م ن، 27-28-32-34

⁶ مشاكل وضع المصطلحات اللغوية، الدار التونسية للكتاب سنة 86، ص 267

⁷ م س ن، ص 210

1 - النبرة

2 - الارتكاز

3 - الضغط

ومصطلح Phonème يقابله بـ

4 - الصوت اللغوي

5 - الصوتم

6 - الفونيم

وفي بعض الأحيان يحالفة الغلط في المقابل العربي الذي يستخدمه، فمصطلح Affricate يقابله بلفظ "شديد"⁷، والصواب مقابلته بأحد مصطلحات ثلاثة يستخدمها الألسنيون وهي "مزجي"، "مركب" "شديد رخو"، وفي أحيان أخرى يتخلّى عن ربط الألفاظ المترادفة، ولا يستخدم أسلوب الإحالة.

الخلاصة

هذا العمل المعرفي مساهمة جادة في إبراز دور الترجمة في التأسيس لعلم المصطلح العربي عامة واللساني خاصة.

تمّ بناء أسس هذا الكتاب على ضوابط ثلاثة مناهج لسانية شهيرة:

¹ م ن، ص ن

² م ن، ص 211

³ م ن، ص ن

⁴ م ن، ص 255

⁵ م ن، ص ن

⁶ م ن، ص ن

⁷ م ن، ص 214

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

- المنهج التاريخي

- المنهج الوصفي

- المنهج التقابلي

سهل هذا المعجم على الدارسين اللسانيين قراءة المؤلفات اللسانية التي استقرى منها الحمزاوي مادة كتابه، وبَيَّن مواطن الخلاف فيها، وهذا مما يدفع الباحثين إلى تتبعها بالدراسة والتقييم.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

من أعلام الحضارة العربية الإسلامية

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

علي بن عيسى

"الكَّال"

بمناسبة مرور ألف عام هجري على وفاته
وألف عام ميلادي على صدور كتابه "تذكرة الكَّالين"

أ. د. نشأت الحمارنة
باحث في تاريخ الطب

بين يدي البحث:

حالة الطب في بلادنا قبل الإسلام

شهدت بلادنا قبيل ظهور الإسلام حادثتين على درجة كبيرة من الأهمية، تُعدّان من أبرز ما عرفه تطوّر الطبّ في تاريخه الطويل.

الحادثة الأولى: هي بَعَثُ الطب النظري بعد أن أصيب بالجمود في العصر الهلنستي المتأخر (العصر البيزنطي في بلادنا) وذلك بإعادة كتابته ملخصاً وجعله منهجاً للتعليم في مدرسة الإسكندرية الطّبيّة.

كُتبت هذه الملخصات باللغة الإغريقية ثم تُرجمت إلى السريانية وصارت في متناول العلماء والأطباء بين الإسكندرية غرباً وجنديسابور شرقاً مروراً بالمدن السورية: أنطاكية، والرُّها، ونصيبين، وحرّان وغيرها.

والحادثة الثانية: هي ابتكارُ جنديسابور نظاماً للتعليم الطبي العملي، يكون مسرحه قاعات

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

المرضى في المشفى (البيمارستان) حيث يرافق طلبة الطب أساتذتهم في جولاتهم على المرضى، ويراقبون تطور أعراض المرض ويتابعون تغيرَ علاماته إلى جانب سرير المريض.

نتيجةً للحادثة الأولى عاد الطب للاعتماد على معرفة علوم التشريح ووظائف الأعضاء وعلم الأمراض، ونتيجةً للحادثة الثانية صار الطبُّ السريريُّ مفهوماً، لأنه بدون معرفة التشريح وآليات الأمراض لا يمكن فهم أسباب الأعراض والعلامات التي يتظاهر بها المرض، ومن ثَمَّ لا يمكن وضع خطة للمعالجة.

الطب في الحضارات الأقدم

ولابدَّ هنا من التذكير بقصة نشوء الطب في بلادنا وتطوره، وهي قصة معروفة:
— فالطب نشأ في بلادنا منذ عصور أقدم الحضارات في بلاد ما بين النهرين والشام ومصر، وذلك قبل الميلاد بآلاف السنين.

— وقد أخذت الأمم المجاورة لبلادنا كثيراً من عناصر هذا الطب القديم، فالإغريق، على سبيل المثال، يذكرون أنهم نهلوا من معارف مصر القديمة وبخاصة في حقل العقاقير.
— وقد تطور الطب الإغريقي في الألف الأول قبل الميلاد اعتماداً على معارف متباينة الأصول، ووصل إلى مرحلة وضع نظريةٍ طبيةٍ تتبع من الفلسفة الطبيعية التي عرفها قدماء الفلاسفة اليونانيون.

— وجاء الطب الإغريقي إلى بلادنا مع الإسكندر، واستوطن في المدن التي بناها خلفاؤه وتفاعل مع الطب الشرقي، فعرف أجدادنا أن بضاعتهم التي ذهبت إلى أوروبا في القرون الماضية قد رُدَّت إليهم.

— ونتيجة لفتوحات الإسكندر حصل تفاعل إيجابي بين المراكز الحضارية القديمة في مصر وسورية وبلاد الرافدين وفارس وآسيا الصغرى. فاغتنت بذلك العلوم وفي مقدمتها الطب.
— وحينما لخصت الإسكندرية العلوم الطبية النظرية (من أعمال أبقراط وجالينوس) وحينما

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

تمّت ترجمتها إلى السريانية، عادت المعرفة الطبية للانتشار من جديد في العالمين القبطي والسرياني ووصلت إلى الدائرة الفارسية عن طريق جنديسابور. وهناك تبادلت جنديسابور المعارف مع العالم الهندي عن طريق العالم الإيراني.

والخلاصة: أن الطب النظري بُعث من جديد بفضل الإسكندرية، وأن الطب السريري ولد في جنديسابور.

لا غرابة إذن أن يكون الطب قد وصل إلى أعلى درجات تطوره في بلادنا في نهاية القرن السادس الميلادي، القرن الذي سبق ظهور الإسلام.

تطور الطب في ظل الإسلام:

أمام معرفة هذه الحقائق يتوقع المؤرخ ذو البصيرة النافذة أن يستمر تطور الطب مع ظهور الإسلام الذي أرسى قواعد السلم والطمأنينة في المنطقة، وأتاح من جديد لمراكز العلم القديم بين مصر غرباً وفارس شرقاً أن تتبادل المعرفة، مما أدّى إلى تفاعل خلاق كان من شأنه أن شهد الشرق القديم قفزة حضارية جديدة، قلّ أن عرفت الإنسانية مثلاً على امتداد العصور.

بمجيء الإسلام انتهت مرحلة الحروب البيزنطية الفارسية التي دمرت الإنتاج الزراعي وخرّبت التجارة على امتداد أقطار عديدة، ونعمت أقطار الشرق القديم في ظلّ الإسلام بمرحلة جديدة من السلم، فعادت الزراعة إلى الازدهار، وعادت التجارة إلى النشاط، وكذلك الحرف والصناعات اليدوية.

لقد أدّى استقرار دولة الإسلام إلى تهيئة العامل المادّي للنهضة، ممّا سمح بعملية تبادل المعرفة بين المراكز العلمية القديمة — كما أسلفنا — فجرت عملية التفاعل بين الثقافات العديدة التي كانت معزولة بعضها عن بعض بسبب تلك الحروب.

إلى جانب هذا العامل المادّي، كان مجيء الإسلام واحترامه للإنسان وللعقل وتقديره للعلم والعلماء بمثابة العامل الروحي الضروري لهذه النهضة.

كانت الحضارتان القبطية التي سادت في مصر والسريانية التي انتشرت في سورية والعراق قبل الإسلام، قد وصلتا إلى درجة عالية من حيث تطور الممارسة الطبية، التي كان يعرفها عرب الشمال الذين سكنوا بلاد الشام قبل الإسلام. لذلك فقد بادر المسلمون إلى الاطلاع على علوم القدماء وإلى التعاون مع العلماء السريان في محاولة استيعاب علوم الأقدمين. وذلك من أجل بناء دولة تليق برسالة الإسلام وبتراث الشعوب التي شكلت دولة الخلافة.

وفي ظل الإسلام صارت اللغة العربية لغةً تفهمها كل الشعوب التي انضوت تحت رايته، لذلك تكلم بها علماء مصر والشام وفارس، وتمكنوا من نقل تراثهم الحضاري إليها.

ولما كانت حاجة الإنسان إلى الطب أشد من حاجته إلى المعارف العلمية الأخرى، ونتيجة لرفقي الوعي الطبي وارتفاع مستواه عند فجر الإسلام، قرّر رجال الدولة الاستجابة إلى رغبة العلماء في نقل التراث الطبي القديم إلى العربية. وبسبب معرفة العلماء للسريانية صارت السريانية اللغة الوسيطة التي تُرجم إليها التراث الإغريقي أولاً، ثم تلا ذلك ترجمته إلى العربية.

وقد أثبتت هاتان اللغتان العربية والسريانية مقدرتهما على استيعاب كل ما عرفته الحضارات القديمة من فكر وحكمة وعلم ومن جملتها مصطلحات الطب.

لقد كانت عملية ترجمة الطب اليوناني إلى العربية دليلاً على أن المسلمين أدرّكوا أن الطب اليوناني هو مصدر المعرفة الطبية في ذلك العصر. فالوعي المعرفي وارتفاع مستوى الطب في بلادنا هو الذي أدّى إلى بدء عملية الترجمة، التي وضعت التراث الإغريقي الطبي برمته في متناول مواطني دولة الخلافة، في مرحلة لا تتجاوز نهاية القرن التاسع الميلادي أو بداية القرن العاشر (القرن الثالث/الرابع الهجري).

وكانت عملية ترجمة العلوم الطبية — كما هو معروف — قد بدأت في المرحلة المروانية من الخلافة الأموية.

فلولا المستوى الرفيع الذي كان عليه الطب في دولة الإسلام في فجر نشوئها، ما كان

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

للأطباء والتراجمة ورجال الدولة أن يدركوا ضرورة القيام بعملية الترجمة هذه. لولا الوعي المعرفي الذي توفر لعلماء دولة الخلافة، ما كانت عملية الترجمة لتتطلب بهذا الزمن وهذه السرعة وهذا الشمول.

لقد جاءت عملية الترجمة نتيجة لارتفاع مستوى الطب في بلادنا. ولم تكن عملية الترجمة هي السبب في بداية الطب في بلادنا، فالطب قديم قدم حضارتنا التي سادت منذ آلاف السنين. في ذروة عصر الترجمة كان الطب الإغريقي قد نُقِلَ إلى العربية... بعضه نُقِلَ على شكل ترجمة أمينة للنصوص الأصلية، وبعضه كان ترجمةً للشروح التي كتبها بعض الأساتذة الإغريق المتأخرين على تراث جالينوس وأبقراط، وبعضه كان ترجمةً للملخصات التي جاءت من الإسكندرية، والتي سماها المترجمون العرب (جوامع الإسكندرانيين).

لكن التراجمة العرب قاموا بأنفسهم باختصار أهم أعمال الأساتذة الإغريق أو بشرحها أو إعادة كتابتها، وأهم هؤلاء الذين قاموا بهذا العمل هم: حنين بن إسحاق (ت 264 هـ/877 م)، وثابت بن قُرّة (ت 288 هـ/901 م).

وفي نهاية القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) أو في بداية القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) توفر للأطباء مجموعة من الترجمات مكتوبة بالعربية أغنتهم عن ضرورة تعلّم السريانية أو الإغريقية.

وفي هذه المرحلة أدرك محمد بن زكريا الرازي ضرورة كتابة موسوعة طبية شاملة تحتوي على كل العلوم الطبية النظرية والعملية، وتغني الطبيب عن العودة إلى الكتب المتفرقة. وقد أنجز الرازي اثني عشر جزءاً من هذه الموسوعة التي اسمها (الجامع في الطب) ولكنه توفي (313 هـ/925 م)¹ قبل أن ينتهي من كتابتها.

¹ تاريخ أطباء العيون العرب: (75/3) ولا تتفق المصادر على تحديد سنة وفاته بالضبط.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وبعد زمن قصير من وفاة الرازي — في أيام عضد الدولة البويهى¹، قام تلامذته بإخراج هذه الموسوعة اعتماداً على المخطوطات التي تركها الرازي في مكتبته وسموا هذا العمل: (الحاوي في الطب).

والحاوي في الطب — على ضخامة حجمه — وصل إلى أيامنا، وهو كنز لا يقدر بثمن يحتوي على مقتبسات من كل الأعمال الطبية التي تُرجمت إلى العربية أو التي أُلّفت في عصر الترجمة (حتى نهاية القرن التاسع).

بعد الرازي نشط عدد من الأساتذة في حقل التأليف الطبي، لعل أشهرهم علي بن العباس المجوسي، لكن الحقيقة أن أبا الحسن (محمد بن أحمد) الطبري، الذي كان معاصراً للمجوسي، لا يقل أهمية عن المجوسي، وكلاهما توفي في الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي (الربع الهجري).

ونعرف اليوم أن مؤلفاً مهماً عاش قبل هذين الأستاذين الكبيرين في بغداد وكتب بين (922 م — 932 م)، كتاباً في الطب اتسم بالشمول، ولعله أحد أهم ما وصل إلى عصرنا من مؤلفات أساتذة مدرسة بغداد الطبية، هذا المؤلف هو يعقوب الكشكري، الذي عمل في مشافي بغداد في الربع الأول من القرن العاشر.

مشافي بغداد:

كان الرشيد² قد بنى في بغداد بيمارستاناً وكلف جبرئيل بن بختيشوع³ بالإشراف عليه. وجبرئيل هذا هو حفيد جورجس بن جبرئيل بن بختيشوع⁴ الذي كان رئيساً لبيمارستان

¹ حكم من: 338 — 372 هـ/949 — 982 م.

² أبو جعفر، هارون الرشيد، حكم من: 170 — 193 هـ/786 — 809 م.

³ عيون الأنباء: (127/1 ← 138): جبرئيل بن بختيشوع بن جورجس .

⁴ عيون الأنباء: (123/1 ← 125): جورجس بن جبرئيل .

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

جنديسابور، والذي استدعاه المنصور¹ عام (148 هـ/765 م) إلى بغداد لمعالجته. حينما جاء جورجس إلى بغداد ترك ابنه بختيشوع² في جنديسابور وكلفه إدارة الـبیمارستان في غيابه.

وبعد عودة جورجس إلى بلده بسبب تقدّمه في السن، سنحت فرصة أخرى لابنه بختيشوع للذهاب إلى بغداد، ذلك أن الرشيد عام (171 هـ/687 م) استدعاه إلى العاصمة لمعالجته، وهناك قضى المرحلة الأخيرة من حياته حيث توفي عام (185 هـ/801 م)، وكان البلاط العباسي مستعداً لقبول جبرئيل بن بختيشوع، — بعد وفاة والده — فصار بدءاً من عام (190 هـ/850 م) طبيباً للرشيد، ومن بعده لابنيه الأمين³ والمأمون⁴. وإلى جبرئيل هذا يعود الفضل في إرساء قواعد المعالجة والتعليم في مشفى بغداد إذ نقل إليه تقاليد بیمارستان جنديسابور.

لا نعرف على وجه الدقة عدد المشافي التي شيدت في بغداد بعد ذلك ولا اسم الذي شيدها، لكننا نعرف أن خمسة مشافٍ على الأقلّ تم بناؤها⁵ في أيام الخليفة المقتدر (أبو الفضل، جعفر المقتدر بالله: 295 — 320 هـ/908 — 932 م). في عام (368 هـ/978 م)، تمّ بناء المشفى العضدي في بغداد بأمرٍ من عضد الدولة البويهی (ملك بغداد بين سنتي: 338 — 372 هـ/949 — 982 م)، وافتتح عام: (372 هـ — 982 م).

في المستشفى العضدي قام عدد من الأطباء بالتدريس¹، وكان لهم تلامذة، نعرف الكثير

¹ أبو جعفر، عبد الله المنصور، حكم من: 136 — 158 هـ = 754 — 775 م.

² عيون الأنباء: (125/1 ← 127): بختيشوع بن جورجس .

³ أبو موسى، محمد الأمين، حكم من: 193 — 198 هـ/809 — 813 م.

⁴ أبو جعفر، عبد الله المأمون، حكم من: 198 — 218 هـ/813 — 833 م.

⁵ بیمارستان الوزير علي بن عيسى: عام (302 هـ/914 م)، والبیمارستان المقتدری: عام (306 هـ/918 م)، وبیمارستان السيدة (أم المقتدر): عام (306 هـ/918 م)، وبیمارستان بدر عام (311 هـ/924 م)، وبیمارستان ابن الفرات: قبل عام (312 هـ/925 م) .

¹ انظر: تاريخ البیمارستانات في الإسلام: (ص 193 — 197). الأطباء الذين عملوا بالبیمارستان العضدي: أبو الحسن، سنان بن ثابت بن قرة الصابئ: (كان حياً: 439 هـ/1047 م) — مثلاً.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

عن بعضهم، ولا نعرف عن بعضهم الآخر إلا القليل، وقد ضاعت مؤلفات كثيرة كتبها عدد كبير منهم.

لذلك فإننا لا نمتلك إلا النزر اليسير من مؤلفات أساتذة مدرسة بغداد، وهنا نشير إلى أحد الأساتذة الذي يعترف مؤرخو الطب بأنه كان أحد أهم العلماء وأحذق التراجمة، وهو أبو الفرج، عبد الله بن الطيب (نحو 435 هـ/1043 م) الذي اختصر عدداً من مؤلفات جالينوس ناسجاً على منوال حنين وثابت.

وكان لابن الطيب عدد من التلامذة أشهرهم ابن بطلان¹، ومن هؤلاء التلامذة علي بن عيسى الكحال² الذي صار أهم الكحالين العرب، وأوسعهم نفوذاً على مدى سبعة عشر عاماً، أي إلى العصر الذي انقطع فيه التأليف باللغة العربية (القرن الثامن عشر).

وضع علي بن عيسى قاعدتين في التأليف ما يزال العالم يتبعهما حتى الآن، فما من مؤلف في طب العين الحديث يخرج عن الخط الذي رسمه كحال بغداد للتأليف.

ظهر هذا الكتاب المدرسي لأطباء العيون العرب وهو بمثابة قانون للكحالين المسلمين اتبعوه حتى القرن الثامن عشر الميلادي.

علي بن عيسى وكتابه تذكرة الكحالين

يقول علي بن عيسى في مقدمة كتابه أنه أخذ المادة العلمية من (كتب الأوائل) وأنه لم يضيف من عنده إلا القليل، وهذا القليل هو ما أخذه عن طريق الأساتذة الذين قرأ عليهم: "... وتلطف لتأليف هذا الكتاب من كتب الأوائل، ولم أضف فيه شيئاً ألفته من تلقاء نفسي سوى

¹ توفي: 455 هـ/1063 م)، وقيل: (458 هـ) انظر: عيون الأنباء: (241/1 ← 243). أبو الحسن، المختار بن عبدون بن سعدون بن بطلان .

² قدر هيرشبرغ أن الكتاب ظهر (400 هـ/1009 - 1010 م). ونعرف الآن من ابن قاضي شهبة أن علي بن عيسى توفي (429 هـ)، وهذا ما لم يكتبه ابن أبي أصيبعة.

أشياء يسيرة شاهدها من شيوخ زماننا وبلوتها في أعمال هذه الصناعة...¹.
هذا القول إنما هو تواضع من المؤلف الذي جاء كتابه حافلاً بالمشاهدات الشخصية التي
تجمعت من خبرته الطويلة في الممارسة.
أما ما أخذه عن (الأوائل) فقد نظر إليه بعين فاحصة وقارنه بتجربته الخاصة، فجاء وصفه
للأمراض أدق من وصف هؤلاء الأساتذة الذين سبقوه.
تخلط بعض المصادر بين اسم كحالنا علي بن عيسى، واسم عيسى بن علي تلميذ حنين بن
إسحاق الذي عاش في القرن التاسع الميلادي.
لم يمارس علي بن عيسى من فروع الطب إلا الكحالة، إذ انصرف إليها كلياً طيلة حياته،
لذلك فقد تفوق الكتاب على كل الكتب التي تشبهه².
يشهد مؤرخ الطب الشهير ابن أبي أصيبعة لعلي بن عيسى بأن كتابه صار ضرورياً لكل
من يريد أن يتعلم طب العيون، ويقول كذلك بأن هذا الكتاب أغنى القراء عن العودة إلى الكتب
الأخرى³.
تأثر علي بن عيسى كثيراً بما كتبه حنين في طب العين في كتابيه: (المسائل في العين)
و(المقالات العشر في العين). ولا عجب فإن حنيناً كان في كتابيه هذين قد لخص كل ما جاء
عند جالينوس في (علم العين) في سائر كتبه.

¹ مقدمة التذكرة: (ص 3).

² عن القفطي .

³ عيون الأنباء: (247/1): "... وكتابه المشهور بتذكرة الكحالين هو الذي لا بد لكل من يعاني صناعة الكحل أن يحفظه، وقد اقتصر الناس عليه دون غيره من سائر الكتب التي قد ألقت في هذا الفن، وصار ذلك مستمراً عندهم . وكلام علي بن عيسى في أعمال صناعة الكحل أجود من كلامه فيما يتعلق بالأمور العلمية".

وتوقف علي بن عيسى عند عبارة ذكرها حنين¹ يلاحظ فيها أن بعض أمراض العين تكون ظاهرة لحسن الطبيب الفاحص، على حين تكون أمراض أخرى خفية عن الحسن لا يراها الطبيب ولا يتعرفها إلا بالتقدير والتخمين اعتماداً على معرفته بعلمي التشريح ووظائف الأعضاء.

فأمراض الجفن وأمراض القرنية - مثلاً - تتظاهر بأعراض واضحة: كالاحمرار، والانتفاخ في الجفن. أو التقرح، أو البياض في القرنية.

وهذه الأعراض تكون بيّنة، يراها الفاحص بسهولة، فيسهل على الطبيب وضع تشخيص للمرض، على حين الأمراض الأخرى التي لا تظهر أعراضها يصعب تشخيصها، فالعمى المفاجئ - مثلاً - الذي لا يتظاهر بأعراض مرئية لا يستطيع الطبيب الفاحص معرفة سببه ووضع تشخيص صحيح له إلا بصعوبة، وذلك اعتماداً على معرفته بوظائف أجزاء العين المختلفة، فقد يكون العمى ناجماً عن مرض في العصب البصري، أو عن إصابة ما في الشبكية التي لا يمكن رؤيتها بالفحص العادي. وهكذا...

لذلك صنف علي بن عيسى هذه الأمراض في زميرتين كبيرتين:

الأولى: (أمراض العين الظاهرة للحسن)².

الثانية: (أمراض العين الخفية عن الحسن)³.

وأفرد للزمرة الأولى المقالة الثانية في كتابه، وللزمرة الثانية المقالة الثالثة. أما المقالة الأولى فقد عرض فيها عرضاً سريعاً علم تشريح العين ووظائفها.

¹ العشر مقالات في العين: (ص 127): "الأمراض التي تحدث في العين منها ما يعرض فيما يظهر منها للحسن، ومعرفتها عسرة. ومنها ما يعرض فيما لا يظهر منها للحسن، وتكون بعلامات من الفكر والتخمين".

² التذكرة: (ص 3، و39): "المقالة الثانية: أذكر فيها أمراض العين الظاهرة للحسن وأسبابها وعلامة كل مرض منها وعلاجه وهي ثلاثة وسبعون باباً"

³ التذكرة: (ص 3، و278): "المقالة الثالثة: في الأمراض الخفية عن الحسن وأسبابها وعلاماتها وعلاجها وهي سبعة وعشرون باباً".

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وفي تصنيف الأمراض اتبع منهجاً واضحاً في تعداد الأمراض فبدأ بأمراض الجفن، ووصفها واحداً واحداً، ومنها انتقل إلى أمراض جهاز الدمع فعدّها وعرضها، ثم إلى أمراض الطبقة الملتحمة، ثم إلى أمراض الطبقة القرنية...

فالترتيب المنطقي الواضح هو الذي يحكم تصنيف الكتاب وتسلسل أبوابه. وهو في هذا يتّبع حنين لكنه يشكل خطوة إلى الأمام إذا قورن بكتابي حنين.

كان الإغريق يكتبون عن أسباب الأمراض في مكان من الكتاب الطبي، أو يفردون لأسباب الأمراض كتاباً خاصاً. أما أعراض الأمراض فلها كتاب متخصص أو أنها موجودة في مكان معين من الكتاب الطبي. وهكذا فإننا نجد عند جالينوس — على سبيل المثال — الكتب التالية: (في أسباب الأمراض)، (في أسباب الأعراض).

فإذا أراد القارئ دراسة مرض من الأمراض فإنه ينبغي أن يبحث عن أسبابه في كتاب وعن أعراضه في كتاب آخر.

وهذا الأسلوب في الكتابة درج عليه حنين في كتابه (العشر مقالات في العين) فأسباب الأمراض لها مقالة خاصة، وأعراضها كذلك، ومعالجتها تأتي في مكان ثالث.

حاول الرازي أن يتجاوز هذا الأسلوب فذكر أسباب الأمراض وأعراضها في مكان واحد، على حين ترك المعالجة إلى مكان آخر، ويبدو أسلوب الرازي هذا أول ما يبدو في رسالة قصيرة سمّاها: (المُشجّرة في معرفة أمراض العين)، ونجد ملامح هذا الأسلوب في كتابه: (المنصوري في الطب).

وقد قلّد بعض المؤلفين الرازي في هذا الأسلوب المتقدم نسبياً عن أسلوب الإغريق، وعن أسلوب حنين.

أول هؤلاء المؤلفين هو يعقوب الكشكري، (الذي عمل في مشافي بغداد في الربع الأول

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

من القرن العاشر الميلادي) في كُنْاشه الذي صارت صورته بين أيدينا ولم يُحَقَّق بعد¹.
ومن هؤلاء المؤلفين: علي بن العباس المجوسي في كتابه (كامل الصناعة الطبية)، وأبو الحسن، أحمد بن محمد الطبري في كتابه (المعالجات البقراطية)، وقد ظهر هذان الكتابان بعد منتصف القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري).

وإذا عدنا إلى المادة المخصّصة لطب العين في هذه الكتب الثلاثة فإننا نجد بدايات هذا الأسلوب الذي يبدأ — في بعض الأحيان — بذكر تعريف صريح للمرض، ثم يأتي المؤلف على ذكر أسبابه وبعدها ينتقل إلى وصف أعراضه.

لكن هذا لم يصبح تقليداً مُتَّبَعاً إلا في آخر القرن حينما ظهر كتاب (تذكرة الكحالين) لعلي بن عيسى، وكتاب (المنتخب من علم العين وعلاجها) لعمار بن علي الموصلي الذي عمل في القاهرة في الوقت نفسه الذي عمل فيه علي بن عيسى في بغداد.

والأرجح أن هذين الكتابين قد ظهرا قرابة عام (400 هـ/1010م)، أي في الوقت نفسه الذي ظهر فيه كتاب الزهراوي (التصريف لمن عجز عن التأليف) في الأندلس.

وفي عرف مؤرخي طب العيون يُعَدُّ علي بن عيسى صاحبَ الكتاب المدرسي العربي في هذا الفن، فهو أول (أو أهم) من أرسى هذه القاعدة في التأليف: ونأخذ هنا بعض الأمراض — على سبيل المثال — من (تذكرة الكحالين):

في أمراض الجفن:

1. في البرد وعلاجه: أما البرد فنوع واحد.

وأما سببه: فاجتماع رطوبات غليظة تجمد في الجفن، وأكثر ما يتولد في ظاهر الجفن.

وأما علامته: فهو ورم صلب شبيه بالبرد.

¹ هذا المخطوط اكتشفه الأستاذ سزكين في مكتبة أيا صوفيا (استانبول، السلمانية). انظر: آراء ودراسات: (162/2) .

العلاج: ينبغي أن يُداف الأَشَقُّ والقِنَّةُ بالخلِّ النَّقِيفِ وَيُطْلَى عليه، وقد يُخَلَطُ بعد ذلك بدهن وردٍ وصمغ البُطْم، أو يُنَقَّعَ سَكْبِينَجَ بخلٍّ وَيُطْلَى. أو يُطْلَى بهذا الطَّلَاءِ.

... فإن تحلَّلَ وإلا فينبغي أن تشقَّ الجفنَ بمبضعٍ شَقًّا بالعرض ثم تخرجَ البردةَ بملقعة الميل، وإن كان الشَّقُّ عَظِيماً مسترخي الشفتين فاجمعهما بخياطةٍ في الوَسَطِ وَذُرُّ عليه ذروراً أصفر. فإذا كان المرضُ في باطنِ الجفنِ فينبغي أن يُقَلَّبَ الجفنُ وَيُشَقَّ بالعرض من داخلٍ وتُخْرِجَ البردةَ، ثم تأمره بغسلِ العينِ بالماءِ الحارِّ¹.

2. في التَّحَجُّرِ وعلاجه: أمَّا التَّحَجُّرُ فنوعٌ واحدٌ ويعرضُ من فضلةٍ غليظةٍ سوداويةٍ تنصبُّ إلى الجفنِ فتجمدُ فيه وتَتَحَجَّرُ. وعلامة: أنه رَمٌّ صغيرٌ شبيهٌ بالغَدِّ الصَّغَارِ صلب.

والسبب: في صَلابته رخاوةُ الجلد وسخافته لأنه يتحلَّلُ لطيفُ المادة ويبقى غليظُها فيصلب، مثل ما يعرضُ في العُنُقِ وتحت الإبط والأربيتين والخنازير والأورام الصُّلبة. ويُسمي هذا الورمَ قومَ عدسة. ويعرض ذلك من سببين: إمَّا من كثرة الأُطعمة الغليظة، وإمَّا من امتناع تحلُّلِ البُخار.

العلاج: تبتدئُ أولاً بالفصد من القيِّف من جانبِ المرض، وتتنظَّل عليه الماء الحارُّ في الابتداء فإن تحلَّلَ وإلا فيجب أن تضعَ عليه مرهم²...

3. في الالتصاق وعلاجه: الالتصاق ثلاثة أنواع: التصاقُ الجفنِ، إمَّا بسوادِ العين، وإمَّا ببياضِ العين، وإمَّا التصاقُ الجفنين أحدهما بالآخر.

ويعرض ذلك من سببين: أحدهما من قَرحةٍ تعرضُ في العينِ ويطولُ انطباقُ الجفنِ عليها. والآخر: من بَعْدِ علاجِ الظَّفَرَةِ والسَّبَلِ، إذا لم تُدَبَّرْ العينُ بالتدبير الذي يجب. وهذه العلةُ تمنعُ العينَ من سُهولةِ الحركة.

¹ تذكرة الكحالين: (ص 85 - 86) .

² التذكرة: (ص 87 - 88).

العلاج ينبغي أن تُدخَلَ تحتَ الجفنِ الميلَ في موضعِ السَّعةِ منه وترفعَ الجفنَ به، أو تَمُدَّ الجفنَ بصنارةٍ أو بصنارتين ثم تسلخَ الالتصاقَ بالمهتِّ كما تعمل بالظفرة حتى تبينَ الأشياءَ الملتصقة، فإن لم يطاوعك بالمهت فاسلخه بالقمادين، ويجب أن تتوقى جهدك لئلا ينخرقَ الغشاءُ القرنيُّ فيعرضَ من ذلك نتوءُ العنبيِّ، ثم تقطرَ في العين ماء الكُمون والمِلح وتضع بين الشَّقِّ قُطْنًا مَبْلَلًا بدهن الوردِ وصُفْرة البيض وتشدُّ على العين...¹

يمتاز كتاب علي بن عيسى بقرب العبارة وسلاسة الأسلوب والاختصار والوضوح. وهذا ما جعل الأطباء وطلاب الطب يعتمدون عليه دون غيره من المؤلفات العربية أو الترجمات المنقولة عن الإغريقية.

وإضافة إلى منهج الكتاب يظهر للقارئ أن المؤلف يستند إلى خبرة طويلة وتجربة غنية في الممارسة الطبية، ولا عجب فقد انصرف علي بن عيسى كليةً إلى هذا العمل دون غيره، فعالج المرض في بیمارستان العضدي الذي يرجح أنه صار المكان الأمثل لتعليم الطب. وقد صار كتاب (التذكرة) كتاباً ينقل عنه كل المؤلفين في حقل طب العيون أكثر مما ينقلون عن أي كتاب آخر.

فإذا استثنينا الزهراوي وعمار اللذين عاصرا المؤلف، فإن كلَّ المؤلفين بدءاً من القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) قد أخذوا عن هذا الكتاب وتقليدوا بأسلوبه. وقد لاقى هذا الكتاب رواجاً فظلت عشرات النسخ المخطوطة منه محفوظة حتى عصرنا الحاضر في عدد كبير من مكتبات العالم التي تحتفظ بالتراث العربي المكتوب.

وطارت شهرة الكتاب في العصور الوسطى فترجمَ إلى الفارسية وإلى اللاتينية، وطبع مراراً في أوروبا بعد اختراع الطباعة، إلا أنه ظهر للباحثين في نهاية القرن التاسع عشر أن الترجمة اللاتينية كانت رديئة إجمالاً، وغير مفهومة في أحيان كثيرة.

¹ تذكرة الكحالين: (ص 89).

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

وقع هذا الكتاب بيد الأستاذ هيرشبرغ أشهر مؤرخي طب العيون في نهاية القرن التاسع عشر، فأعجب به أيما إعجاب، ويعود الفضل إليه في تبيان أهميته ومكانته في تاريخ طب العيون، ثم قام هيرشبرغ وزميله ليبرت بترجمة التذكرة إلى اللغة الألمانية عام (1904م)، وهو الذي قارن بين المادة العلمية التي كتبها علي بن عيسى، والمادة العلمية التي كتبها الأستاذة الإغريق — الذين أشار إليهم علي بن عيسى في مقدمة كتابه — فتبين له أن علياً بن عيسى كان يعرف أعمال أبقراط، وجالينوس، وديوسقوريدوس، وأريباسيوس، وبولص. كما تبين له أيضاً أنه قد تفوق على جميع هؤلاء الأساتذة في وصف بعض الأمراض، إمّا بإضافة معلومات جديدة لم يعرفها القدماء، أو بوضوح عبارته أو سهولتها، وقد أشار في حواشي (الترجمة) إلى كل هذا.

بعد ذلك حقق (غوث محيي الدين القادري) هذا الكتاب ونشره بنصه الأصلي عام (1964م).

يُصدر هيرشبرغ حكمه على هذا الكتاب مؤكداً أن أوروبا لم تعرف كتاباً في طب العين يصل إلى مستوى هذا الكتاب إلا بعد مرور ثمانية قرون على ظهوره. ويضيف أنه من سوء حظ العلم أن الترجمة اللاتينية للكتاب كانت على درجة من الرداءة لم تسمح بفهمه وإدراك أهميته، ولولا هذا لكان طب العيون الأوربي قد تطور قبل القرن الثامن عشر ربما بعدة قرون، ولخطا طب العيون خطوات إلى الأمام في العصور الوسطى.

ومن المؤلفين العرب الذين تأثروا بكتاب التذكرة :

- محمد بن قسوم بن أسلم الغافقي الأندلسي في القرن الثاني عشر في كتابه: (المرشد في طب العين)، وهو كتاب أعطى المؤلف فيه العلوم النظرية جزءاً كبيراً من الكتاب.
- عبد الله بن قاسم الحريري الإشبيلي، (في الوقت نفسه تقريباً) في كتابه: (نهاية الأفكار ونزهة الأبصار) وهو كتاب تميز بجزأين أحدهما للأقرباذين والآخر لمدواة الأمراض.
- وأحمد بن عثمان بن هبة الله القيسي، في القرن الثالث عشر، في كتابه: (نتيجة الفكر في

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

علاج أمراض البصر)، وهو مختصر في علم السريريّات أضاف إليه المؤلف في مرحلة متأخرة بابين في كليات أمراض العين.

— وخليفة بن أبي المحاسن الحلبي، في القرن الثالث عشر، في كتابه: (الكافي في الكحل)، وقد اعتمد فيه المؤلف في المقام الأول على علي بن عيسى وابن سينا والطبري.
— يحيى بن أبي الرجاء، في القرن الثالث عشر، في كتابه: (نور العيون وجامع الفنون)، ولعله أحد أكثر الكتب غنىً بالمقتبسات المأخوذة عن المؤلفات السابقة.

— صدقة بن إبراهيم الشاذلي المصري، في القرن الرابع عشر، في كتابه: (العمدة الكُلية في الأمراض البصرية)، وقد اطلع هيرشبرغ على هذا الكتاب ولفت الأنظار إلى أهميته.

ويشهد الأستاذ هيرشبرغ لعلي بن عيسى أيضاً بأنه كان موهوباً في القدرة على التعبير، فجمع الاختصار إلى جانب الوضوح، كما أنه كان حذراً في وضع التشخيص، ومتأنياً في المعالجة واللجوء إلى العمل الجراحي، وهو يحرص إلى جانب ذلك على استيعاب كل آراء المؤلفين الذين سبقوه ويحسن عرض آرائهم ويهدف دائماً إلى الوصول إلى الكمال في كتابه ما أمكن له ذلك.

وفي أخلاقه يتسم بالتواضع، واحترام الأساتذة وتقديرهم وحب الطلبة والحرص على تسهيل مهمتهم في التعلم واكتساب المعرفة. وهو رجل يخشى الله في جميع أعماله.

ويخلص هيرشبرغ إلى القول بأن علياً بن عيسى ليس الكحال العربي الأهم والأشهر فحسب، بل هو أحد المؤلفين في علم العين عبر التاريخ.

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

المصادر والمراجع:

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة. (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) نقله من النسخ الموجودة في بعض خزائن الكتب وصححه: امرؤ القيس بن الطحان، تحقيق: أوغست مولر، الطبعة الأولى. المطبعة الوهبية، القاهرة. 1882م (1299هـ)
- أبو الحسن الطبري، أحمد بن محمد. (المعالجات البقراطية)، مخطوط. منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية. يصدره فؤاد سزكين. سلسلة عيون التراث: المجلد 1/47. طبع بالتصوير عن مخطوطة (4474) مكتبة ملك مليّ. طهران.
- ثابت بن قرة. (الذخيرة في الطب)، منحول. دار المدينة للطباعة والنشر، بيروت، 1928م.
- الحريري الإشبيلي، عبد الله بن قاسم. (نهاية الأفكار ونزهة الأبصار). تحقيق: د. حازم البكري. د. مصطفى شريف عاني. الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام - دار الرشيد للنشر. سلسلة كتب التراث (85).
- الحمارنة، نشأت. (تاريخ أطباء العيون العرب) إصدار خاص عن مجلة الكحال، الجزء الأول - الطبعة الخامسة 2004م، الجزء الثاني - الطبعة الثالثة 2004م، الجزء الثالث - الطبعة الأولى 2004م
- الحمارنة، نشأت. (مكتبة الكحال في عصر الرازي) الاحتفال بذكرى مرور أحد عشر قرناً على وفاة العالم العربي أبي بكر محمد بن زكريا الرازي 25 ربيع الثاني - 2 جمادى الأولى 1412هـ، 2-8 تشرين الثاني 1991م.
- الحمارنة، نشأت. (آراء ودراسات في تاريخ الطب العربي) الجمهورية العربية السورية، وزارة الصحة، جزآن - 2004م
- حميدان، زهير. (أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية). ستة أجزاء، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق. عام 1995 م.
- حنين بن إسحاق. (العشر مقالات في العين). التحقيق والترجمة الإنجليزية: ماكس مايرهوف. المطبعة الأميرية بالقاهرة. 1928 م.
- حنين بن إسحاق. (المسائل في العين). التحقيق والترجمة الفرنسية: بولص سباط، ماكس مايرهوف. القاهرة. 1938 م.
- خليفة بن أبي المحاسن الحلبي. (الكافي في الكحل)، تحقيق: محمد ظافر الوفائي. محمد رواس قلعجي. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) 1410 هـ - 1990 م.
- الرازي، محمد بن زكريا. (المُشجرة في معرفة أمراض العين). مخطوط طهران. سنا 30/190.
- الرازي، محمد بن زكريا. (التقسيم والتشجير) تقاسيم العلل. تحقيق: صبحي محمود حمامي. معهد التراث

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

- العلمي العربي، منشورات جامعة حلب. 1412 هـ/1992 م.
- الرازي، محمد بن زكريا. (المنصوري في الطب). تحقيق: حازم البكري الصديقي. منشورات معهد المخطوطات العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. الطبعة الأولى. الكويت. 1408 هـ/1987 م.
- الرازي، محمد بن زكريا. (الحاوي في الطب) الجزء الثاني. صحح وطبع تحت مراقبة: شرف الدين أحمد. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن. الهند. 1396 هـ — 1976 م. الطبعة الثانية.
- الزهراوي، خلف بن عباس، أبو القاسم. (التصريف لمن عجز عن التأليف). تحقيق: د. صبحي محمود حماني. مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، إدارة الثقافة العلمية. سلسلة التراث العلمي العربي. الطبعة الأولى 2004 م.
- سزكين، فؤاد. (تاريخ التراث العربي)، الجزء الثالث. GESCHICHTE DES ARABISCHEN SCHRIFTTUMS, G. A. S. 3, BRILL – LEIDEN – 1970
- صدقة بن إبراهيم الشاذلي المصري. (العمدة الكُحلية في الأمراض البصرية)، المخطوط، دبلن: رقم (3990).
- علي بن العباس المجوسي. (كامل الصناعة الطبية)، المعروف بالملكي. المخطوط.
- علي بن عيسى. (تذكرة الكحالين). تحقيق: غوث محبي الدين القادري. حيدر آباد الدكن. 1964.
- عمار بن علي الموصلي. (المنتخب من علم العين وعلاجها). تحقيق: د. محمد رواس قلعه جي. د. محمد ظافر وفائي. سلسلة التراث الطبي الإسلامي. علم الكحالة (6). الطبعة الأولى: عام 1412 هـ/1991 م.
- عيسى، أحمد. (تاريخ البيمارستانات في الإسلام). دار الرائد العربي، بيروت، لبنان. الطبعة الثانية. 1401 هـ/1981 م.
- الغافقي، محمد بن قسّوم بن أسلم الغافقي الأندلسي. (المرشد في طب العين). تحقيق: د. محمد رواس قلعه جي. د. محمد ظافر وفائي.
- الغافقي، محمد بن قسّوم بن أسلم الغافقي الأندلسي. (المرشد في طب العين). تحقيق: حسن علي حسن. سلسلة الكتب العلمية 2. معهد الإنماء العربي.
- القفطي، علي بن يوسف، جمال الدين أبو الحسن. (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) باعثناء: ليرت — لايبزغ. 1903 م.
- القيسي، أحمد بن عثمان بن هبة الله، أبو العباس. (نتيجة الفكر في علاج أمراض البصر)، تحقيق: محمد ظافر الوفاي. محمد رواس قلعه جي. سلسلة التراث الطبي الإسلامي، علم الكحالة، 13. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن. 1419 هـ/1998 م.
- الكشكري، يعقوب. (كناش في الطب). تحقيق: علي شيري. مؤسسة عز الدين، بيروت. الطبعة الأولى،

التعريب العدد الثامن والثلاثون - جمادى الآخرة / حزيران (يونيو) 2010

1414 هـ / 1994 م.

— يحيى بن أبي الرجاء. (نشر الكتاب باسم صلاح الدين بن يوسف الكحال الحموي). (نور العيون وجامع
الفنون). تحقيق: محمد ظافر الوفائي. محمد رواس قلعجي. الطبعة الأولى: 1407 هـ / 1987 م.
- Hirschberg. J. , Lippert, J. Ali Ibn Isa, Erinnerungsbuch für Augenäryt. Leipyig ,1904 .